

الزخشي

لغويًا ومفسِّرًا

تأليف

مرتضى آية الله زاده شيرازي

أستاذ اللغة العربية المساعد
بكلية الآداب والعلوم الإسلامية
جامعة طهران

تقديم

الدكتور حسين نصار

دار الثقافة
للطباعة والنشر
بالقاهرة

٢١ شارع كامل صدقي بالفجالة
ت : ٩١٦٠٧٦ - القاهرة

الزخمشرى

مرتضى آية الله زاده الشيرازى

دار الثقافة

تراجع

تدنگارى

٢

٤

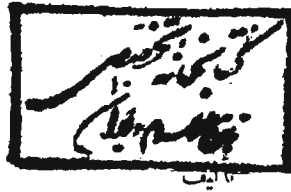
٢

QVO

الزخشرى لغويا ومفسراً

الزخشي

لغويًا ومفسّرًا



مرتضى آية الله زاده اشيرازي

أستاذ اللغة العربية المساعد
بكلية الإلهيات والمعارف الإسلامية
جامعة طهران

تقديم
الدكتور حسين نصار

١٩٧٧





تقديم

للاستاذ الدكتور حسين نصار

وكيل كلية الاداب جامعة القاهرة للدراسات العليا

جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري (٤٦٧-٥٣٨هـ)
مثل رائع لأرجل المسلم في القرنين الخامس والسادس وغيرها من القرون .
فهو رجل فارسي من مشرق الدولة الإسلامية ، تغلب على العوائق التي
أقامها الجنس واللغة والبعد ، وذلكما حتى صار ما صار .

وهو رجل يفنى بالثقافة العربية في ميدانها الأخص : البلاغة ، ذلك
الميدان الذي يحتاج من سالكه أن يتعرف على مسالك اللغة العربية ، وأن
يتعمق دقائقها ، وأن يفتن إلى أسرارها .. وعلى الرغم من ذلك لم يتهمب
الزمخشري الطريق ، وسار فيه جريئا واعيا ، حتى كان ما كان .

وهو بلاغي في دراساته المتنوعة التي منعت البروز في عالم التفسير
واللغة والكلام وإعجاز القرآن .

نعم ، لقد كان الزمخشري مثالا جميلا للمسلم ، ورمزا مجسدا للإسلام
يضم في برده البشر على اختلاف أجناسهم وأصقاعهم وقراهم يؤمنون بإله
واحد ، ويدينون لنبي واحد ، ويتجهون لقبله واحدة ، ويهون لغة واحدة
يهفوا إليها قلب من استطاع إليها سبيلا ومن لم يستطع .

وكان الزمخشري — بسبب ذلك كله — جديرا بالدراسة ، أعنى
الدراسة المتأنية المعمقة المتدبرة ، تنظر إلى الرجل في حياته الشاقة التي تنقل
فيها بين أرجاء العالم الإسلامي ، وفي سلوكه الزهدي الذي حملة على

الاعتكاف في بيت الله الحرام ، أى تنظر في الرجل عامة .

وكان جديرا بالدراسات المتخصصة بالدراسات التى تغنى بالمفسر ،
وبالمتكلم ، والبلاغى واللفوى ، والشاعر ... أعنى الدراسات التى تقتصر
على مجال محدد لاتتمدها إلى غيره من المجالات التى سلكها الرجل وبرز
فيها ، تبين أبعاده وتروده وتختبره وتقيم كل ما تمثر عليه فيه .

وقد اتقى الرجل الدراسات العامة والخاصة ، وتوالى التأليف عنه .
ولازال الميدان عنده محتاجا إلى دراسات ودراسات .

وبين يدي القارئ واحد من هذه المؤلفات . أचार بعض الخبرة إذا
ما أردت أن أحدد مجاله . فالعنوان صريح أن الكاتب قاصد إلى الجهد
اللفوى للزمخشري ، يريد أن يقيم حوله دراسة حتمة تبين آراء الرجل
اللفوية وتقييمها . ولكن الكاتب نفسه يدل دلالة قاطعة على أن المؤلف
لم يحصر نفسه في هذا المجال الضيق ، وخرج عنه ووسم على نفسه ، وسعى
إلى إعطاء صورة متكاملة للزمخشري .

فتحدث عن الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التى عاش فيها ،
وعن حياته ، وشخصيته وآثاره . فكان القسم الأول من كتابه
مدخلا هاما للموضوع الرئيسى .

وسمى مؤلف الكتاب إلى كمال البحث في القسم الثانى من دراسته
فلم يقتصر على الآثار اللفوية عند الزمخشري ، مثل معجم أساس البلاغة
والفائق بل تعداهما إلى الآثار ذات الصبغة اللفوية مثل الكشف في تفسير
القرآن ، بل تجاوز هذا إلى المؤلفات التى أثرت معارفه اللفوية فيها مثل
المقامات .

وتتبع المؤلف نظرات الزمخشري اللغوية ، والتقط الهام منها. فأقام عليه دراسة خاصة ، تقوم على المسح والاختبار أكثر ما تقوم، وعلى المقارنة بغيره من اللغويين في بعض الأحيان .

ولم يكتف المؤلف بذلك . بل أراد أن يكشف عن مكانة فكر الزمخشري اللغوية بين أفكار المعاصرين لنا .

وعلى الرغم من اختلاف مع المؤلف في بعض ما قال ، وفي بعض خطأ المنهج الذي سلكه ، فإني أستطيع أن أقول معامتنا : إن الكتاب الذي بين يدي القارىء يكشف عن رجل مسلم ، يحب العربية ورجالها ، ويسمى أن يكون واحداً منهم .

ويكشف عن رجل قادر على الكتابة بلغة عربية سليمة سلسلة ، يقرؤها القارىء فلا يكاد يصدمه فيها خروج أو شذوذ .
ويكشف عن رجل قادر على البحث في التراث العربى ، وعلى التقاط ما يستحق الدراسة منه ، وعلى منحه الدراسة المناسبة .

فتهاثى للدكتور مرتضى آية الله زاده الشيرازى ، أستاذ اللغة العربية المساعد ، بكلية الإلهيات والمعارف الإسلامية ، بجامعة طهران ، والذي كان أحد أفراد أول بعثة علمية إيرانية تفد إلى الجامعات المصرية ، وكانت رسالته أول رسالة أناقشها علمياً في كلية الآداب بجامعة القاهرة .

وأرجو أن يزداد حبا في التراث العربى ، وسمياً وراء البحث عن ذخائره ، وقدرة على إعطاء الصور القويمة الحقيقية عنه .

والله هو المستعان والموفق ؟

حسين نصار

and the other two are the same as the first two
the first two are the same as the first two
the first two are the same as the first two

the first two are the same as the first two
the first two are the same as the first two

the first two are the same as the first two
the first two are the same as the first two
the first two are the same as the first two

the first two are the same as the first two
the first two are the same as the first two
the first two are the same as the first two

the first two are the same as the first two
the first two are the same as the first two
the first two are the same as the first two

the first two are the same as the first two
the first two are the same as the first two

the first two are the same as the first two

the first two are the same as the first two

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

— ١ —

الاتجاهات اللغوية عند الزمخشري :

أثر الامام جاز الله الزمخشري في الثقافة العربية الاسلامية في عصره وبعد عصره تأثيرا كبيرا ضخما امتد حتى اليوم ، وقد تجلّى هذا التأثير واضحا جليا في امتدادات مدرسته في شتى علوم الدين والعربية التي كتب وألف فيها ولاتزال مؤلفاته الدينية واللغوية مصدرا للعلماء والدارسين من بعده حتى اليوم .

وجوانب الزمخشري العلمية العديدة ومزنته الكبيرة في العلوم الدينية وعلوم البلاغة والأدب ، تجعلنا نجعل هذا الرجل الخالد الذي أثر في اللغة العربية بآرائه ومؤلفاته التي انغضت بها مدارس الثقافة الاسلامية في كل عصر وجيل . على أن لمنزلة اللغوية الكبيرة مقاما لم ينله أحد من معاصريه أو ممن جاءوا بعده ، وهذا الجانب اللغوي الذي لم يكشف عنه أحد من الدارسين هو موضوع هذا البحث .

وفلسفة الزمخشري اللغوية وآراؤه في اللغة ودراساته العديدة فيها وكعبه القيمة الخصبية التي توارثتها وتعلمذت عليها الأجيال حتى اليوم من أمثال ، الاساس ، والفائق ، المفصل ، وسواها تجعل منه صاحب مدرسة كبيرة ومرجعا هاما في اللغة لها مقامها ومنزلتها الكبيرة بين مدارس النحو واللغة في الثقافة العربية والاسلامية ، فضلا عن أن تفكير الزمخشري

اللغوى موصول الصلة بفكرنا اللغوى المعاصر من الإيمان بضرورة التوليد والتجديد اللغوى عن طريق الاشتقاق والقياس والتعريب والتوسم وغيرها ، ومن اجازة الاستشهاد باللسان اللغوى المعاصر فى تأييد الأصول اللغوية وفى كتابة المعاجم .

لقد كان ذلك باعنا كبيرا الى على دراسة الاتجاهات اللغوية عند الزمخشري ، هذه الدراسة الشاقة المسيرة التى تضمنتها هذا البحث والتى استعنت عليها بكل ما يمكن أن يفيد فى البحث من مراجع وأصول مطبوعة أو مخطوطة ، ولم تسبق هذه الدراسة للاتجاهات اللغوية عند الزمخشري دراسة أخرى تنير السبيل أمامى وذلك أحد الأسباب التى صعبت هذا البحث .

وقد قسمت هذه الدراسة إلى قسمين : الأول فى عصر الزمخشري وحياته وثقافته ، والقسم الثانى فى أصول فلسفته اللغوية ، أما القسم الأول فيشتمل على ثلاث أبواب : الأول فى عصر الزمخشري والثانى فى حياته والثالث فى شخصيته وثقافته وآثاره واعتزاله . وكل باب من هذه الأبواب الثلاثة مقسم إلى فصول عدة ، فالباب الأول يشتمل على أربعة فصول فى دراسة الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية واللغوية . والباب الثانى يحتوى على خمسة فصول فى دراسة بيئة الزمخشري ونشأته وحياته العلمية الأولى واستاذيته فى طور الرجولة وعزله ووفاته . والباب الثالث يحتوى على أربعة فصول تناولات بالدراسة المستفيضة المستوعبة آثاره وثقافته وشخصيته واعتزاله .

أما القسم الثانى فهو كذلك مقسم إلى أبواب ثلاثة ، فالأول فى

مواجهه اللغوية والأدبية والثاني إتجاهاته اللغوية والثالث في أصوله اللغوية وتجديده في اللغة . و كل باب من هذه الأبواب الثلاثة كذلك مقسم إلى فصول ، حسب طبيعة البحث وحاجاته ، فالباب الأول يحتوى على فصول ثلاثة ، الأول في نبوغه في اللغة وعلومها والثاني في منزلته في البلاغة العربية ، والثالث تحدث فيه عن الزمنخشرى الأدب .

والباب الثاني مقسم إلى أربعة فصول ، الأول في مقاماته والاتجاه اللغوى السائد فيها ، والثاني في أساس البلاغة وإتجاهه اللغوى ، والثالث في الاتجاه اللغوى في الكشف ، والرابع في الاتجاه اللغوى في الفائق . أما الباب الثالث والأخير من أبواب القسم الثانى من الرسالة ، وهو عن الأصول اللغوية عند الزمنخشرى وتجديده ، فهو مقسم إلى خمسة فصول : الأول في المبادئ اللغوية عند الزمنخشرى ، والثاني في الصلات الفكرية بين الزمنخشرى وابن جنى ، والثالث في مآخذ العلماء على الزمنخشرى ، والرابع في تجديده اللغوى ، والخامس في الصلة بين تفكيره اللغوى والتفكير اللغوى المعاصر .

القسم الأول

الزخشرى اللغوى

٨٥٣٨ — ٤٦٧

الباب الأول

عصر الزمخشري

September 1900

San Francisco

الفصل الأول

الحياة السياسية

الحياة السياسية فى عصر الزمخشري :

(أ) عاش الزمخشري فى فترة حافلة بالأحداث والتطورات السياسية وشهد تقسيم العالم الإسلامى إلى العديد من الممالك والامارات وعاصر بعض الملوك المشهورين فى تاريخ الاسلام ، وشاهد آثار الحياة السياسية المعاصرة فى شتى جوانب الثقافة والاجتماع والاقتصاد والآداب وسواها .

(ب) ومن الدول التى عاصرها الزمخشري والتى قامت فى أرجاء العالم الإسلامى .

١ — الخلافة العباسية وقد كانت فى عهد ضعف سياسى ظاهر، وغلب عليها السجوقيون الذين خلفوا آل بويه فى الاستيلاء على النفوذ والسلطات والملك فى دولة الخلافة . وقد حكموا رقعة واسعة فى العالم الإسلامى ، وخراسان وما وراء النهر ، ويلقبون « بالسلاجقة العظماء » وقد أسس دولتهم ركن الدين أبو طالب طغرل (٤٢٥ — ٥٢٢ هـ) .

وأشهر ملوكها بعده :

١ — جلال الدين أبو الفتح ملكشاه ٤٦٥ — ٤٨٥ هـ .

٢ — ناصر الدين محمود ٤٨٥ — ٤٨٧ هـ .

٣ — ركن الدولة أبو المظفر بركيارق ٤٨٧ — ٤٩٨ هـ .

٤ — ركن الدين ملكشاه الثانى ٤٩٨ — ٤٩٨ هـ .

غياث الدين أبو شجاع محمد ٤٩٨ — ٥١١ هـ .

٦ — معز الدين أبو الحارث سنجر ٥١١ — ٥٥٢ هـ .

وعندما جاء دورهم فى الخلافة العباسية عام (٤٤٧ هـ) ، انتقل

السلطان والملك من آل بويه إلى أمة تركية يمثلها سلطان من آل سلجوق وكان بنو العباس مع هذه الدولة أحسن حالا منهم مع بنى بويه ، فإن هؤلاء كانوا سنين يحترمون الخلفاء تدفينا ، وكانوا يعبرون لهم من مظاهر التعظيم والاحلال بما يناسب مكانتهم ومنزلتهم الدينية . ولكن مع ذلك كله فإن السطوة السياسية والنفوذ الفعلى كانا بيد هؤلاء السلاطين السلاجقة فكان لهم الأمر والنهى ، أما الخلافة فكانت لها قدسيتهما ومكانتها الروحية ، ولكنها لا تتدخل فى شئون السياسة والحكم ، وقد ولى فى هذا الدور من آل عباس تسعة خلفاء وهم :

- ١ — عبدالله القائم بأمر الله بن القادر بن المقتدر ٤٢٢ — ٤٦٧ هـ .
- ٢ — عبد الله المقتدى بالله بن محمد بن القائم ٤٦٧ — ٤٨٧ هـ .
- ٣ — أحمد المستظهر بن المقتدى ٤٨٧ — ٥١٢ هـ .
- ٤ — الفضل المسترشد بن المستظهر ٥١٢ — ٥٢٩ هـ .
- ٥ — المنصور الراشد بن المسترشد ٥٢٩ — ٥٢٩ هـ .
- ٦ — محمد المقتفى بن المستظهر ٥٢٩ — ٥٥٥ هـ .
- ٧ — يوسف المستنجد بن المقتفى ٥٥٥ — ٥٦٦ هـ .
- ٨ — الحسن المستضىء بن المستنجد ٥٦٦ — ٥٧٥ هـ .
- ٩ — أحمد الناصر بن المستضىء ٥٧٥ — ٦٢٢ هـ (١) .

وكانت الامبراطورية الاسلامية حينئذ فى حالة تفكك وتقسيم من الناحية السياسية ، فقد كانت المصيبة تسيطر على أفكار الولاة والحكام وكان النزاع من قبل بين الفرس والعرب فأصبح بين العرب والفرس والترك

وكان العرب قد ضعف أمرهم في نزاعهم مع الفرس . فجاءت قوة الترك ضغفا على اباله وتوجهت قوة الترك — أولا — لاضعاف شأن هؤلاء الفرس المستبدين بالسلطان ، وأخذ الفاربيخ الاسلامى من الفاحية السياسية يصطبغ بالصيغة التركية بعد أن كانت الأحداث تقتل بأعلام الفرس ، وبدأت العصية ضد الانراك أثر مهد دخولهم بغداد ، ففي تلك الحقبة من الزمن حكمت البلدان الاسلامية في شتى بقاعها دويلات كانت تقسم أحيانا بالقوة وتارة بالضعف ومن أشهرها :

- ١ — الدولة الغزنوية ٣٥١ — ٥٥٨٢ .
- ٢ — الدولة العقيلية في ديار بكر والجزيرة ٣٨٦ — ٥٤٨٩ .
- ٣ — الدولة الزيدية في الحلسة ٤٠٣ — ٥٥٤٥ .
- ٤ — الدولة الفاطمية في مصر والشام ٢٩٧ — ٥٥٦٧ .
- ٥ — دولة المثلثين في الاندلس والمغرب الأقصى ٤٨٠ — ٥٥٣٧ .
- ٦ — دولة آل زبرى بأفريقيا ٥١٥ .
- ٧ — دولة المرابطين في مراکش ٥٤٨٣ . (١)
- ٨ — دولة الاشراف الحسنيين في مكة ومن أشهر امرائها في عصر الزمخشري : قاسم بن محمد الحسنى
- ٤٨٧ — ٥٥١٨ . (٢)

وأهم الدول التي عاصرها الزمخشري هي الخوارز مقتناهية التي كانت تحكم خراسان وما وراء النهر (٤٩٠ — ٥٦٢٨ .) وكان

(١) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للفاس ج ٢ ص ١٩٧ .

(٢) تاريخ حبيب السير — الحونسير .

ظهور هذه الدولة على مسرح التاريخ الاسلامى نتيجة حوادث متعددة ومتداخلة ظهرت مع الدولة العباسية منذ نشأتها وكما ظهرت نتيجة للقيارات السياسية والاجتماعية فى شرق آسيا وغربها .

وعلى يد هذه الدولة انقضت الدولة السلجوقية ولها أهمية خاصة فى عصر الزمخشري وحياته إذ كانت - زمخشر - موطن الزمخشري بلدا من البلاد التى تضمها هذه الدولة الكبيرة وسنحدث عن تاريخها بشئ من التفصيل . .

— ٢ —

تنسب هذه الدولة الخوارزمية إلى مدينة - خوارزم ^(١) أو - خيوة - وتطلق على منطقة شاسعة تقع فى الجنوب من نهر جيحون وشمالي شرقى خراسان وهى منطقة خصبة لعبت دورا كبيرا فى تطور الحضارة فى أواسط آسيا من أقدم العصور وقد دخلت تحت الحكم الاسلامى بعد أن فتحها « قتيبة بن مسلم » عام ٨٦٩ هـ . أو ٩٣٥ هـ . (٧١٢ م) كما تقول دائرة المعارف الاسلامية - وقد يكون تحديد عام ٩٣٥ هـ . تاريخا لاستقرار الحكم الاسلامى فيها . .

ومن الأمر الذى حكمت خوارزم فى التاريخ الإسلامى أسرة أبى العباس مأمون بن محمد الذى ولى من (٣٨٥ - ٩٩٥ م) الذى غزا

(١) لأن كلمة خوارزم . جاءت فى افسنة XVARIZEM وجاءت فى نقوش الهجاء منشية هوارزميش HUARZMISH والكلمة مركبة من جزأين خوازم والجزء الثانى بمعنى الأرض والجزء الألى بمعنى الشمس والمأكل والمزروع ولها معان أخرى أيضا ولكن هذا المعنى الذى ذكره هنا مع ملاحظة خصوصه أراضى خوارزم يكون أنسب وأولى . راجع : برهان قاطع : دكتور محمد معين ج ٢ ص ٧٨٠ ، ١٠٣٢ ط طهران .

الجزء الجنوبي من خوارزم ونصب نفسه شاهاً ولقب - « بنخوارزمشاه »^(١) وتوارث الحكم واللقب من جاء بعده من خلفائه وقد صادف حكم هذه الأسرة امتداد نفوذ السلطان محمود الغزنوي (٣٨٨ - ٤٢١ هـ) الذي ضم بلاد خوارزم إلى مملكته الواسعة عام (٤٠٧ هـ) على أثر مقتل خوارزم شاه مأمون الذي كان قد تزوج من أخت السلطان محمود واعترف بسلطانه وأراد أن يخطب له على منابر بلاده فقتله بعض قواده وأجلسوا ابنه مكانه^(٢) ، وقصد السلطان محمود هذه البلاد واستولى عليها ، وأدب الثوار وولى عليها نائباً من قبله^(٣) وبذلك انقرضت الأسرة المأمونية الخوارزمية وخضعت لحكم الدولة الغزنوية .

ومن الأسر التي حكمت خوارزم أسرة - أنوشتكين^(٤) ، وكان أنوشتكين مملوكاً لأحد أمراء السلاجقة ثم تدرج في وظائف الدولة ، وكان يشغل وظيفة الساقى وهى إحدى وظائف البلاط الإسلامى . وهذا وإن لم يكن مؤسس الدولة الخوارزمية ولكنه الذى كان قد وضع نواتها - وتوارثت

(١) دائرة المعارف الإسلامية . وراجع كتاب « بلدان الخلافة الشرقية » - تأليف لسترنج - ترجمة : بشير فرنايس وكوركيس عواد ص ٤٨٩ ، ٤٩٧ ، ٤٩٣ . وراجع المسالك والممالك - للإصطخرى . ط دار القلم .

(٢) حبيب السير - خوفدمير

(٣) انظر ابن الأثير ج ٩ ص ٩٨ .

(٤) وقد سمي بعض المؤرخين هذا الرجل باسم - نوشتكين ومنهم النسوى ولكننا نميل مع أبى الفداء وابن الأثير إلى - أنوشتكين - من حيث أنه أقرب وأصح لأن الاسم مركب من جزأين - أنوشه أو أنوشا - بمعنى طوبى ومرحبا والعدالة والرفاه والابدى والجزء الثانى - تكين - أصلها تركيه وتأتى في الاسماء المركبة ومعناه الجليل ومثله سبكتكين والبكتكين . . . راجع برهان قاطم ط طهران دكتور معين ، تاريخ أبى الفداء ج ٣ ص ٢٠٩ ط الاولى .

أسرته المحكم في خوارزم حتى عام ٦٢٨ هـ. ومن أشهر امراء وملوك هذه الأسرة :

- ١ — أنوشتكين ٤٧٠ - ٤٩٠ هـ .
- ٢ — قطب الدين محمد بن أنوشتكين ٤٩٠ - ٥٢١ هـ .
- ٣ — اتسر بن محمد^(١) ٥٢١ - ٥٥٠ هـ .
- ٤ — ارسلان بن اتسر ٥٥١ - ٥٦٨ هـ .
- ٥ — سلطان شاه محمود بن ارسلان ٥٦٨ - ٥٦٨ هـ .
- ٦ — تكش بن ارسلان ٥٦٨ - ٥٩٦ هـ^(٢) .

وعندما جاءت أنوشتكين الوفاة نظر إلى من يكون أولى من بعده فوقع الاختيار على أكبر أولاده قطب الدين محمد ، وكان أبوه قد أرسله من قبل إلى مرو ليعلم ويطلع على فنون الآداب والرياسة ، ولما شب وكبر عمنه أحد قواد — بركيارق السلجوقي واليا على إقليم خوارزم ولقبه خوارزمشاه ، ويقول ابن الأثير عن حوادث سنة ٤٩٠ هـ مامعناه : « أن بركيارق ولي خوارزم الأمير محمد بن أنوشتكين ، وكان أبوه أنوشتكين مملوك أمير من السلجوقيه سماه أنوشتكين غرشجه فأنجب ولدا سماه محمدا ، فأحسن تأديبه ، فنظر الأمير فيمن يولى خوارزم فوقع اختياره على هذا الأمير ولقبه خوارزمشاه ، ولما توفي ولي بعده ابنه اتسر » وهكذا أخذ نجم الخوارز مشاهية في الارتفاع ففي فترة حكم ملكشاه

(١) ويكتبه أبو الفداء — الحسن واعتقد أن هذا تعريب حيث يكون نطق تعريب —

الناء — والطاء — في اللغة الفارسية واحدة .

(٢) تاريخ كزبده — تصحيح القزويني .

السلجوقي كان عصره عهد تناسك القوى الاسلامية عامة سواء في إيران أو العراق أو كرمان أو الروم ولكن بعد ما أخذت الدولة السلجوقية في الانحلال تبعها انهيار الدولة الإسلامية حتى وافت سنة ٥٩٠ هـ وزالت سلطة السلجوقية بمقتل آخر سلاطنتهم .

أخذت الدولة الخوارزمية في بناء صرح سلطانتها في الشرق وبلاد خوارزم ودفعت الاعداء والمنافسين ، وامتدت امبراطوريتهم في الناحية اليمنى لنهر سيمحون حتى البحيرات الجبلية التي تربط إيران بوادي دجلة ، واعترف بحكمهم في شبه جزيرة العرب - عمان - فاستعادت خوارزم مكانتها السياسية بين الدول الكبرى وكانوا محبين للفضل والأدب مشهورين باكرام العلماء والأدباء وكانت نية الخوارزمية أن يبنوا امبراطورية عظيمة على أشلاء قوى الامارات والدول الاسلامية المتناثرة التي كانت سببا في تفكك العالم الاسلامي وضعفه ، ولو أن الحوادث أمهلتهم قليلا لاستطاعوا أن يحققوا مآربهم ، إلا أن الأحداث سبقتهم فصرعهم المغول في ميدان حرب لم يعرفها المسلمون من قبل^(١).

ومن أشهر الملوك الذين اتصل بهم الزمخشري في عصره :
(أ) أبو الفتح ملكشاه السلجوقي (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ) وقد ولد الزمخشري في عصره الذي يقاس عهده في عظيمته وفخامته بأزهر عهود

(١) تاريخ كزیده - ٤٨٦ ، ٤٩٣ ، ٤١٤ ، ٤٩٤ تاريخ جهان كشای جوینی ج ٢ ، ابن الاثير - الكامل - حوادث سنة ٤٩٠ هـ وما بعدها ، الآثار الباقية لبيروني ص ٤٩ ، ٣٥ ، ابن مسكويه - عيوان العدائق ج ٣ ، دائرة المعارف الاسلامية .

الدولة العربية والرومانية^(١).

(ب) محمد بن أبي الفتح ملكشاه السلجوقي المتوفى عام ٥١١ هـ —
وقد اتصل الزمخشري به في اصفهان ومدحه منوها بأفعاله وسجاياه التي
خدم بها الاسلام حيث يقول :

محمد ابن أبي الفتح الذي تركت
أوصافه لكنه في كل منطق
ابن السلاطين من أبناء سلجوق
وابن الفطراف منهم والغرائق
لله من عادل من حق سيرته
ونصرة الحق أن يدعى بفاروق
مستوجب من جموع الشرك مبغضه

محبب في بني الاسلام مرموق^(٢)
ج — واتصل كذلك بالأمير الخوارزمشاه — محمد بن انوشكين —
(٤٩٠ — ٥٢١ هـ) ، حيث لقي مكانة مرموقة ، ومدحه في قصيدة
طويلة مطلعها :

أي الملوك تلاقت في مجالسه غرائب العلم والآداب والحكم^(٣)
د — وظلت مكانته محفوظة أيضا عند ابنه اتسز — الذي حرر له

(١) مختصر تاريخ العرب لسيد بن علي ص ٢٧٢ ، دولة آل سلجوق للعماد
الأصفهاني ص ٥٢ .

(٢) ديوان الزمخشري ورقة ٨٦

(٣) ديوان الزمخشري ورقة ١٠٧

الزمخشري كتابه « مقدمة الأدب » : ويقول في مقدمتها : « والذي اصطفاه الله في زمانه لنصرة الأدب وقذف في قلبه رغبة في كلام العرب - الأمير الأجل الاسفها لار بهاء الدين أو المظفر - « اتسز - ابن خوارزمشاه ادام الله علاه » ثم يقول « وقد رسم لى أمره العالى - زيد علوا - بتحرير نسخة من كتاب « مقدمة الأدب » لخزانة كتبه المعمورة ففعلت على رسمه وجملت الكتاب مرسوما باسمه ^(١) .

ومن الأمراء والوزراء الذين اتصل بهم الزمخشري :

(أ) نظام الملك الطوسى وزير السلطان السلجوقى ^(٢) للقتول عام

(٤٨٥ هـ) ويقول فى قصيدة مدحه بها :

ثنائى لصدر الملك ماعشت دائم

وأن دعائى مثله فى دوامه

جعلهما وردى نهارى وإيلتى

كفعل الفتى فى صومه وقيامه

وكان فريد المصر عبدا مقربا

وما أنا الا هضبة فى شهامة ^(٣)

(ب) مؤيد الملك بن نظام الملك كان قد تولى ديوان الانشاء من

قبل أبى الفتح ملكشاه ^(٤) ، ويقول فى مدحه :

(١) مقدمة الادب : للزمخشري

(٢) تاريخ آل سلجوق - لعماد الاصفهاني ص ٥٩ ط ١٩٠٠ م .

(٣) ديوان الزمخشري ١٠٤ - ١٣ - ٩٥ - تاريخ آل سلجوق - لعماد

الاصفهاني - ص ٥٧ .

(٤) ديوان الزمخشري ورقه ٩٧ ، تاريخ آل سلجوق لعماد الاصفهاني ص ٥٢

إليك عبيد الله أنهى شكائى نكابة دهر يفتحى بصياله
بحقك فأزجره ومره لينتهى فأمرك امضى من مواضى نباله
وقل يازمان السوء مالك قاصدا لمن عرف الناس اهتمامى بحاله
فأنت الذى الديوان طوع لحكمه وذلك طوق فى رقاب رجاله^(١)

ج - وذهب الزمخشري إلى مكة ولقي رعاية من الأمير العلوى
بن عيسى بن حمزة بن وهاس^(٢) وكان من أمرائها وأشرافها وقد ألف
الكشاف بإشارة منه^(٣) عام (٥٢٦ هـ)^(٤) ويقول من قصيدة في مدحه:
مأجل الصنم فيه أناختى بمكة مرضيا مرادا وموردا
لولا ابن وهاس وسابغ فضله رعت هشيم واسقيت مصروا^(٥)
(د) والتقى الزمخشري فى دمشق بصاحبها تاج الملك عام (٥٢٦ هـ)
ومن بعده بابنه شمس الملك الذى ولى بعد أبيه^(٦) وقد مدحهما الزمخشري
وله فيهما قصائد وردت فى ديوانه^(٧).

هـ - وقد اتصل خراسان بجماعة من أصحاب السلطة والدولة -
منهم مجير الدولة أبو الفتح على بن الحسين الاردستاني الذى استغنا به
تاج الدولة عنه فى ديوان الطغراء والانشاء فى عهد السلطان أبى الفتح

(١) ديوان الزمخشري ورقة ٩٧.

(٢) شفاء الغرام ٣ : ١٦٦ يذكر حمزة بن أبى وهاس فى أخبار نحو عام ٤٨٠ هـ ،
وهو أبو المذكور ، وبدلنا هذا على أن صحة الاسم ، ابن أبى وهاس .

(٣) مقدمة الكشاف .

(٤) العقد الثمين للفاسى ج ٢ مخطوطة دار الكتب .

(٥) ديوان الزمخشري الورقة الاولى .

(٦) ابن الاثير ج ١٠ ص ٣٢٤ الى ٢٤٣ .

(٧) ديوان الزمخشري ٣٨ ، ٩٩ .

ملكشاه^(١).

ونرى هنا الزمخشري يمرض على ممدوحه كتبه النفوية متوسلا
حيث يقول من قصيدة في مدحه :

وأصبحت كالقصوص ريش جناحه
أنوء بركن كلما قمت جـانـح
فعمد مجير الدولة المستجار لي
مداواة أدواء وأسوأ جرائح

نظامي آمال مراضى وجابر
لكسر مهيضات الخطوب الفواح
فليست رحالي ألفت بفنائنه

فارتع من نعمائه غير نازح
ويقده زندا وأرباً من مناقبي

إذا صلدت كل الرناد بقادح
وفي شرح أبيات الكتاب لبعضها ما

يرى في صفاتي مجلا أي شارح
وأنموذجا انفذت فيه يضمه

رجائي أرى فيه وجوه المناجح
أراقب من عين الوزير لإطلاعه

عليه وحسبي منه لحة لامع^(٢)

(١) تاريخ آل سلجوق لعماد الاصفهاني ٥٨ .

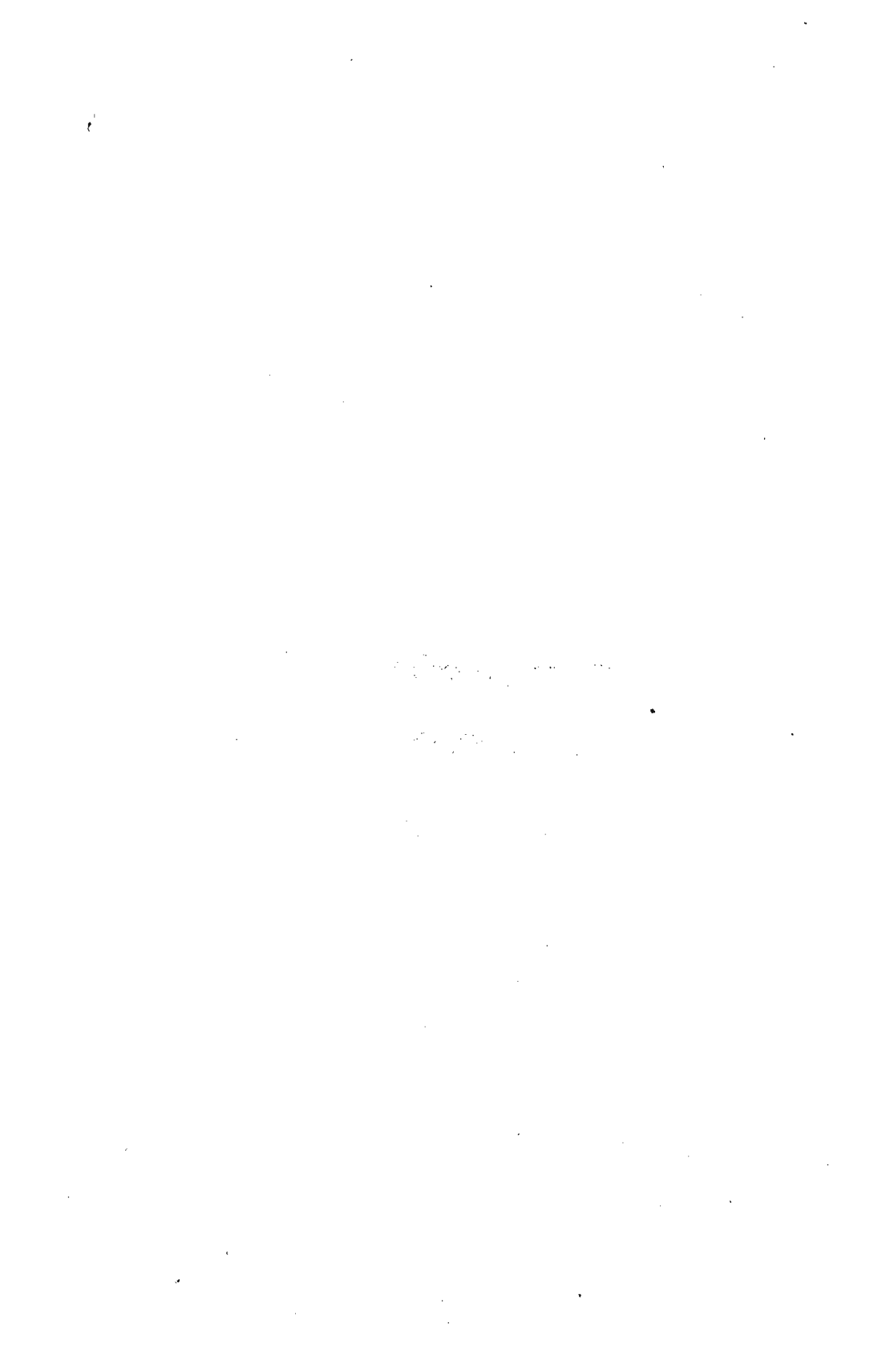
(٢) ديوان الزمخشري ٣٣ .

هذه هي ملامح عصر الزمخشري السياسي وأشهر دوله وحكامه ،
ووجوه الملوك والأمراء والوزراء الذين اتصل بهم الزمخشري ومدحهم .
ومن دراسة هذا العصر — سياسيا — نستطيع أن نعرف أهم
خصائص هذا العصر — اجتماعيا وثقافيا وأدبيا لتتضح لنا معالم بيئته ،
وخصائص عصره ، وسمات زمنه ... ولتتضح لنا بذلك غوامض حياته ،
ومجمل أفكاره وآرائه ...

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية

في عصر الزمخشري



الحياة الاجتماعية في عصر الزمخشري

- ١ -

يراد بالحياة الاجتماعية ذكر طبقات المجتمع من حيث الجنس والدين وعلاقة كل من هذه الطبقات ببعضها ببعض ، ونظام الأسرة والصلات بين أفرادها ووصف البلاط ومجالس الخلفاء والأعياد والمواسم والحفلات ووصف القصور وما فيها من آثاث ولباس وشراب وما إلى ذلك من مظاهر المجتمع ولاشك أن من أسس الحياة الاجتماعية كذلك الحالة الاقتصادية التي تسيطر على الناس وتؤثر في الصلات الاجتماعية بينهم....

- ٢ -

كان المجتمع الإسلامي في عصر الزمخشري يتألف من عدة عناصر : أهمها العنصر العربي ، والعنصر الفارسي ، والعنصر التركي . إلى عناصر أخرى مثل الروم والزنج والبربر ... إلخ . وكان النزاع بين العنصر التركي والفارسي على أشده ، فقد كان النفوذ للفرس في عهد آل بويه ثم خلفت دولتهم دولة السلجوقية التركية ، فانتقل النفوذ والسلطان والرتب الأخرى إلى الأتراك ، الذين كان لهم أثر في التاريخ الإسلامي ، ولهم كذلك النفوذ السياسي في شتى أنحاء العالم الإسلامي ، وقد قضوا على نفوذ الفرس والعرب في دولة الخلافة العباسية ، وتولوا مختلف المناصب الرفيعة فيها . وكانت أخلاقهم الاجتماعية ضعيفة ، وكان فيهم العبث بالأخلاق والشراعة في جمع الأموال ، كما كانوا مشهورين بالجمال والنظافة ، وطابهم على

العموم حب الجندية ، والفروسية والانتصار لمذهب أهل السنة والجمعة عن الفلاسفة والجدل في الدين وحب المال مع عدم الرغبة في الإصلاح . وقد دخلت العناصر التركية في الإسلام على التدريب وتعلموا اللغة العربية والدين ، ونبغ فريق منهم في مختلف الجوانب . ومن العناصر التركي قبل عصر الزمخشري : أبو نصر الفارابي القفوي عام (٣٣٩ هـ) ، وإسماعيل بن حماد الجوهري صاحب كتاب « الصحاح » وهو من أهم مصادر اللغة وأصولها ، وكان من أئمة القرن الرابع .

— أما العناصر الفارسي : فقد كان له النفوذ في العالم الإسلامي قبل عهد السلاجقة ، ولسكنهم كانوا عماد النظام الإداري والسياسي للدولة في عصر السلاجقة أيضا ، ومن مثل ذلك أن الوزير نظام الملك الطوسي (٤٨٥ هـ) تولى الوزارة لآل سلجوق وهو الذي أنشأ المدارس النظامية وكان له فضل كبير على دولتهم ..

وكان العالم الإسلامي قد تأثر بالعصر الفارسي في الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد العامة وفي الحياة العقلية الخصبية كذلك . واستعاد النيروز في بلاط الخلفاء العباسيين رونقه الذي كان له في العصور السابقة ، وأخذ السكتاب والوزراء الفرس يحفظون به ، وقد ظهر أثر ذلك في الأدب العربي حتى لنجد ٦٨ قصيدة قالها مهيار الديلمي (م ٤٢٨ هـ) في القهوة بالنيروز والمهرجان ، ونجد آداب السكتاب والشعراء في هذا العيد مبشرة في شتى مصادر الأدب والتاريخ .

ومن ذلك يحدثنا القلقشندي بأن أول من رسم هدايا النيروز والمهرجان في الإسلام الحجاج بن يوسف الثقفي . ثم رفع ذلك عمر بن عبد العزيز

واستمر المنع إلى أن رفع السكاتب أحمد بن يوسف سقفاً من ذهب فيه
قطعة عود هندي إلى المأمون وكتب معه :

« هذا يوم جرت فيه العادة بأتحاف العبيد السادة » .

ويقول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في يوم المهرجان :

إذا ما تحقق بالمهرجان من ليس يعرف معناه غائلاً

ومعناه أن غلب الفرس فيه - فسهوه للروح فيه حفاظاً .

ويقول أيضاً :

أخا الفرس إن الفرس تعلم أنه لأطيب من نوروزها مهرجانها

لادبار أيام يغم هواؤها وإقبال أيام يسر زمانها

ومن قصيدة لعبد العزيز بن نباته يمدح عضد الدولة في المهرجان :

هي الليلة الغراء في كل شتوة تغادر جيد الدهر أبلج حالياً

ومن الشعر الذي جاء في الأدب العربي وتأثر بأدب الفرس قول

الشاعر :

كيف ابتهاجك بالنيروز ياسكن وكل ما فيه يحكي وأحكيه

فتارة كلهم الفار في كبدى وتارة كقولى عبرتى فيه

ومن ذلك نرى أن أموراً دخلت في الأدب العربي لم تكن مألوفاً

فيها أمثال القهنة بولاية الديوان ، والقهنة بالنيروز ، والقهنة بالمهرجان

وغير ذلك... (١) .

(١) راجع صبح الاعشى - للقلقشندي - ح ٢ ص ٤٠٧ ، ٤٢٦ ، ج ٩ - ص ٢١ ،

٢٧ ، ٢٨ ، ٤٩ ط دار الكتب المصرية .

راجع ديوان مكيار الديلمي - ح ٢ ، ص ١١٧ ، ١٤٠ ، ١٦١ ، ١٧٧ - ج ٤ ،

ومن ذلك أيضا استعمال التقويم الفارسي في الدواوين^(١) ، وهكذا نجد أسماء المأكولات والمشروبات والرياحين والملابس الإيرانية دخلت وراجت في المجتمع الإسلامي ونجد كثيرا من ذلك في الأدب العربي حتى قبل عصر الزمخشري ، ومنه ما نراه عند الجاحظ في كتابه البيان والتبيين وفي كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير ، وفي كتاب « المعرب » للحوالي و « بقيمة الدهر » للثعالبي ، ومنه كذلك ما نقرؤه في « ديوان بشار » من قوله :

أحين ليست بعد العرى خزا ونادمت الكرام على العقار
ونلت من الشبارق والقلايا و أعطيت البنفسج في الخمار
تفاخر يابن راعية وراع بنى الأحرار حسبك من خسار^(٢)
وكذلك قول الأعشى ميمون بن قيس من قصيدة له :

لنا جلسقان عندها وبففسج سيمسفر والمرزجوش منمنما
وشاهسفرم والياسمين ونرجس يصيحفنا في كل دجن تغمنا
فكلمات جلسقان بمعنى الروضة — وبففسج ، البنفسج ، وسوسن ومرزجوش وشاه اسفرم ونرجس . كلها فارسية وقد ذكرت كل هذا للدلالة على تأثير المجتمع الإسلامي بالحياة الفارسية وعاداتها وتقاليدها وما إلى ذلك ...

= ط دار الكتب المصرية

أنظر : كتاب التاج — للجاحظ — تجد فيه شواهد كثيرة لهذه العادات والتقاليد الفارسية .

(١) السنة الإيرانية سنة إسلامية كالسنة الهجرية إلا أنها تختلف عن السنة العربية بأنها شمسية وستنتها ٣٦٥ يوما وساعة — أحسن التقاسيم — ص ٤٤١ ، الآثار الباقية ٦٨
(٢) ديوان بشار ج ١ ص ٣٣٠ .

ومن عناصر المجتمع في هذا العصر : الخوارزمية الذين ينتمون إلى إقليم « خوارزم » الذي سبق أن تحدثنا عنه، وقد دخلوا الإسلام تدريجيا وذاعت بينهم اللغة العربية . ويحدثنا البيروني عن العادات والتقاليد الفارسية هناك^(١)، ويحدثنا أيضا الرحالة المقدسي^(٢)، وياقوت^(٣)، وابن بطوطة^(٤) عن بساطينها وشوارعها الفسيحة وأسواقها العامرة وما إلى ذلك من مظاهر العمران والازدهار ويحدثنا هؤلاء الرحالة أيضا عن تمسك أهل خوارزم بالثقافة الدينية وأداء الفرائض وإطعامهم للفقراء والمساكين وعن طبيعتها الجميلة ووفرة أسباب المعيشة والترفيه فيها ...

ومن إقليم خوارزم الذي كان يحكم موقعه عاملا مؤثرا في العاطفة الدينية لأهله : جماعة من المحدثين ذكرهم الخطيب البغدادي وياقوت والسيوطي ... وسنتحدث عنهم عند ذكرنا البيئة العلمية ... وكانت خوارزم أيضا مرتعا — خصبا للاعتزال ، ويمدد الزمخشري : رأس فضائلها فيقول :

« رأس فضائل خوارزم هو ما رزقته من المذهب السديد ، مذهب أهل العدل والتوحيد »^(٥) . وكانت لغة تنحاط بهم في خوارزم هي اللهجة الخوارزمية ، التي كان فيها مسلم بن قتيبة كفاحا مريرا ، ويقول البيروني : أنه — أي ابن قتيبة — أباد من يحسن كتابة الخط الخوارزمي وقتل من

(١) الآثار الباقية للبيروني من ٣٦ ، ٤٨ ط أوربا .

(٢) أحسن التقاسيم من ٢٨٤ طاروب .

(٣) معجم البلدان لياقوت ج ٥ ص ٤٨٢ .

(٤) مذهب رحلة ابن بطوطة من ٢٩٨ .

(٥) الباب التاسع من مخطوط ربيع الأبرار للزمخشري دار الكتب

يُعلم أخبارهم ويدرس ذلك ومزق ما كان عندهم كل ممزق - فخفضت لذلك خفاء لا يتوصل معه إلى معرفة حقائق ما بعد الاسلام
ولكن مهما كان من صنيع ابن قتيبة فعلى الرغم من ذلك بقيت كل هذه حتى القرن الثامن الهجري .

واللغة الخوارزمية تعد من اللهجات الإيرانية الوسطى التي كانت جسرا بين اللغات الإيرانية الحديثة واللغات الإيرانية القديمة وقد دخلها في العهد الإسلامي كثير من الكلمات العربية والفارسية ولكن معلوماتنا عن اللغة الخوارزمية عدا الكلمات التي ذكرها البيروني (في الآثار الباقية) حديثة جدا لا تعود إلى أكثر من سنة ١٩٢٧ ميلادية حين عثر على آثار جديدة منها ، وهذه الآثار هي نسختان في الفقه باللغة العربية نقلت فيها عبارات باللغة الخوارزمية ثم فيهما فهرست موضوع لشرح تلك العبارات في إحدى هاتين النسختين . على أن أهم أثر من اللغة الخوارزمية هو « مقدمة الأدب » للزمخشري الذي اكتشف عام ١٩٤٨ وهو يحوي كلمات عربية مع ترجمتها الخوارزمية والآثار الخوارزمية مكتوبة كلها بالخط العربي . ولكن قراءتها وشرحها لم يكتمل حتى الآن والصعوبة في ذلك أنها غير معربة كما أن التقطيع فيها ناقص . ويستدل من النسختين الفقهيتين المذكورتين على أن كثيرا من الكلمات الفارسية والعربية قد تخللت اللغة الخوارزمية مما يدل على تأثير هاتين اللغتين فيها (١) .

(١) تطور الشعر الفارسي قبل الاسلام وبعده - دكتور صفا ، راجع مقال A.A.FREIMAN موسكو وليننغراد ١٩٥١ وقد ترجمت في مجلة الدراسات الأدبية - منشورات جامعة لبنان العدد ٢ السنة ٢ ، وعدد ١ السنة الثالثة .

رقد نبغ من هذا العنصر الامام الزمخشري — وأبو الفتح المطرزي
الخوارزمي وعلي بن عراق الصفاري أبو الحسن الخوارزمي ومحمد
بن اسحق الخوارزمي . وجابر بن محمد بن يوسف الخوارزمي .
وغيرهم ... ، ومن قبل نبغ أبو بكر الخوارزمي (٣٨٣ هـ) قرين البديع
الهمزاني (٣٩٨ هـ) .

ولكن مع ازدهار خوارزم ومكانتها من المدنية ورقى المجتمع فقد
كانت الطبقة السفلى من الشعب والعامّة في فقر وبؤس ، ومن أمثلة ذلك
الامام الزمخشري نفسه حيث يقول في شكواه :

ومما شجاني أن غر مناقبي	يغني بها الركبان بين القوافل
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدي	وسارت مسير النيران رسائلي
وكم من آمال لي وكم من مصنف	أصاب بها ذهني محزr المفاصل
غنى من الآداب لكنني إذا	نظرت فإني الكف غير الانامل
فياليتني أصبحت مستغنيا ولم	أكن في خوارزم رئيس الأفاضل
ويا ليتني مرض صديقي ومخط	عدوى وأني في فهاة باقل
وما حق مثلي أن يكون مضيقا	وقد عظمت عند الوزير وسائل
فلا تجعلوني مثل همزة واصل	فيستطني حذف ولا راء واصل
فكل امرئ أمثاله عدد الحصا	وهات نظيري في جميع المحافل ^(١)

— ومن قبل نجد ظاهرة الشكوى دائمة وعمامة ، وكتاب «المتاع
والموانسة» لأبي حيان البغدادي مليء بالشكوى وصور ضنك العيش

(١) ديوان الزمخشري مخطوطة دار الكتب — وبريد الوزير نظام الملك الطوسي

وكان النزاع في هذا العصر بين السنة والشيعة ظاهرة مؤسفة ، وكان بنو بويه من قبل شيعيين وكان الذين خلفوهم من الغزنوية والسلاجقة والخوارزمية سنيين، وكثرت الخلافات حول الاعتراف والمسائل الكلامية والعلوم الحديثة وطوائف الأديان ..

ولتنوع الحياة الاجتماعية إلى خاصة وعامة وتفرق وفقر ونسك ولهو ، كانت البلاد معرضا للفتل ومجالا لدعائيات الجماعات السرية وأصحاب المذاهب الذين كانوا يمزجون الأغراض الاجتماعية بالمبادئ الدينية وقد قامت جماعات تكافح الشك في الدين والمجون في المجتمع وتدعو إلى الحياة الإسلامية بأخلاقها ومبادئها وسلوكها ، وقد استمر الحفلة وخاصة في بغداد يحرصون على القيام بذلك حرصا شديدا ...

وكان هناك أيضا نظام الطبقات كما كانت الفوارق بين الطبقات الخاصة والعامة كبيرة وكان الاقطاع والنفوذ والثروة في أيدي قلة قليلة من الناس مما تبعته المغالاة في القرف واللهو ونشيد القصور .

وكان النظام المالي للدولة نظاما سيئا للغاية فنفتات البلاط قد بلغت حدا لا يطاق من الاسراف والبذخ ، وكان العسف بالناس لأخذ الضرائب منتشرا ، ومن أثر ذلك انتشرت الرشوة والفساد في جهاز القضاء وانقسم الجيش إلى شعب مختلفة وأصبحت السلطة مضطرة لانفاق الأموال الطائلة لاسترضاء هؤلاء وهؤلاء ، ولم تكن المناصب الحكومية في استقرار ، واستقيم ، من هذا كله فقر الشعب واضطرابه وكثرة شكواه .

أما الفنون فإنها لاتنمو إلا بتشجيع الخلفاء والأمراء وفي قصورهم
وقلما كان يجتهد الفنانون ثمرة موهبتهم .

وكانوا كثيرا ما يقدون على الخلفاء في بغداد والحكام في الامارات
المستقلة يمدحونهم ويتقربون إليهم ومع ذلك كان جزاؤهم القليل .
فالعصر كان عصر الارستقراطيين ، من شاءوا أطمعوه على موائدهم ومن
شاءوا حرموه من إحسانهم . ولو أحصينا الأدب الذى قيل فى المديح
لوجدناه أكثر من الأدب الذى قيل بيباعث نفسى .

ولكن العلماء كذلك ، منقسمون إلى قسمين : قسم يتصلون بالخلفاء
والأمراء أو يعملون فى مناصب الدولة ، وكان هؤلاء ميسورين نسبيا
ولذلك نرى تأليف العلماء فى هذا العصر بأمر وزير أو أمير أو سلطان أو
مصدرة باسمائهم كثيرة ، وأما من بعدوا عن القصور فكانوا فقراء غالبا
لا يسكادون يجدون ما يسد رمقتهم .

* * *

وبسبب هذا كله نشأت مظاهر الحياة الاجتماعية المتعددة الترف إلى
حد الإفراط والفقر المدقع وما يستتبعه من مظاهره المؤلمة ، فكان من
نقائجه إنتشار نزعة التصوف والتواكل والتسليم إلى إقناع النفس بزوال
نعم الدنيا ، وانتشار الشعوذة والسحر والطمسات ، والاتجاء إلى
دعوات الأولياء .

ونجم عن ذلك عدم الطمأنينة واضطراب النفس وبجانب هذا كان

هناك اعتزاز بالعلم والدين ولكنه اعتزاز في أوساط معدودة خاصة ، وهم يستمضون عن فقرهم بهذا الاعتزاز الأدبي ...

وكثر في هذه الحقبة من الزمن الرقيق كثرة باللغة وامتلات القصور بالأماء وكان لذلك أثر كبير في الحياة الاجتماعية ، فكثر نسل الجوارى ، واختلطت الدماء واتخذ أصحابهن لهن بيوتا معدة للفناء والطرب والمجون ، وكثر أيضا الغلمان في الأوساط المستهترة .

وأما الحالة الاجتماعية ومظاهرها بالنسبة إلى إيران وخراسان وخوازم فإنها لم تكن بعيدة عن مظاهرها في سائر البلاد الإسلامية فكان نظام المجتمع يتألف من ثلاث طبقات :

١ — طبقة الأمراء والأشراف والأعيان والنجباء وكانت المناصب تسند إليهم في الدولة والبلاط ، ويتمتعون بجميع الامتيازات والضياع والمعار .

٢ — الطبقة المتوسطة هم أصحاب الصنائع والمهن والتجارة والملاك ، وكانت حياتهم مستقرة نسبيا ويدفعون الضرائب الباهظة ، بينما كان الأمراء والأشراف معفون من الضرائب .

٣ — طبقة عامة الناس والفلاحين على العموم وهذه الطبقة كانت محرومة من وسائل العيش ولم يمكن لها أن تختلط مع الطبقة الأولى ، وكانوا يساقون إلى الحروب ، وكان نصيبهم من ذلك الغنائم ، وكان لا يدفع إليهم راتب أو مكافأة .

وأما الناحية التجارية فكانت لها أطوار مختلفة فهي تارة نشيطة وأخرى مجمدة وكان الاهتمام بالزراعة أكثر فانتست رقعتها ، وأما البناء

فكان الأسلوب الممارى الإسلامى والإيرانى قد امتزجا ، وأحدث امتزاجهما روعة فى البناء والفنون المعمارية .

وكانت الملوك جميع الامتيازات وكان الوزير ينتخب بأمره وكانت هناك دواوين يرأسها الرئيس الأول ، بأمر الملك ، وكان ديوان العرض يهتم بالشئون العسكرية ويختار المجندين ، وكان هناك ديوان المظالم ، وكان الجيش يتألف من الخيالة والمشاة وبعض الأحيان الفيلة ، وكانت القيادة العليا للملك ، ومن الدواوين ديوان الرسائل وديوان الاشراف وهو يشرف على سير الأمور فى الدوائر الحكومية وفى الحقيقة كان من فيه عيون الملك ...

هذه هى أهم مظاهر الحياة الاجتماعية فى حياة الزمخشري ، صورناها فى إيجاز شديد ، وستتضح معالمها بدراسة الحياة العقلية والأدبية بجلاء ووضوح . مما سنقف عليه بعد قليل ...
راجع :

(أ) ظهر الاسلام — أحمد أمين

(ب) القمدن الاسلامى — جورجى زيدان

(ج) التاريخ الإسلامى السياسى — الدكتور حسن إبراهيم حسن

(د) تاريخ آداب اللغة العربية — جورجى زيدان

(هـ) الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى — الدكتور خفاجه

(و) الحضارة الإسلامية — ترجمة حمزة طاهر

(ز) تاريخ الشعوب الإسلامية — بروكلمن

(ح) تاريخ الحضارة الإسلامية — تأليف آدم متز — ترجمه — أبو ريده

الفصل الثالث
الحياة العقلية والأدبية
في عصر الزمخشري

عاش الزمخشري (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ) في العصر العباسي الرابع ، هذا العصر الحافل بالتطورات والأحداث والذي يبدأ بدخول السلاجقة بغداد عام ٤٤٧ هـ - وينتهي باستيلاء المغول عليها عام ٦٥٦ هـ على يد هولاكو التتارى .

ويمتاز هذا العصر بأحداث سياسية كبيرة ، والحروب الصليبية التي نشبت فيه ، وبكثرة ما بني فيه من المدارس والجامعات ، في أنحاء العالم الإسلامى ، وقد ظهرت فيه المعاجم التاريخية والموسوعات الأدبية ونمت فيه الحركة العقلية ، وازدهرت الآداب والفنون ازدهارا كبيرا وتلاققت في الحواضر الإسلامية شتى الثقافات التي تمثل حضارات الأمم العربية وآثارها في العلم والثقافة ، وفي هذا العصر تدرس أهم مظاهر الحياة العقلية ، والنشاط الفكرى في مختلف أنواع العلوم والفنون والآداب ، الذى تمثل في عواصم العالم الإسلامى ومدنه . لتستبين لنا معالم الحياة العقلية في عصر الزمخشري في وضوح وجلاء .

وقد ظهر في هذا العصر في العلوم والآداب التأثير الأجنبى الثقافى ، وتمددت مراكز الحياة الثقافية والأدبية ، وشملت كل ركن من أركان العالم الإسلامى ، وحفلت هذه المراكز بالعلماء والمفكرين ، والفلاسفة والأدباء ، والشعراء ، وكانت اللغة العربية والثقافة الإسلامية هى المعين الذى يسقى منه الشباب الإسلامى العلم والمعرفة في كل مكان ولاشك أن لغة العلم والثقافة الرفيعة كانت هى اللغة العربية ، حتى في إيران حيث

كانت الكتابة بغير اللغة العربية تعد نقصا كبيرا وكان لابد لأى فارسى يريد أن يكون مثقفا من أن يتعلم اللغة العربية^(١).

ولن أقصر البحث على الحركة العقلية فى إقليم خوارزم وحده ، أو إقليم إيران خاصة فإن خوارزم وإيران لم تكونا منفصلتين من الناحية الثقافية عن سائر البلدان الإسلامية ، وخوارزم على بعدها عن قلب العالم الإسلامى كانت حينذاك ما تزال خاضعة للتأثير العقبى الإسلامى ، وما تزال تحتل اللغة العربية بها مكانا مرموقا^(٢) ، وكانت هذه البيئة « خوارزم » تنقسم بنشاط كبير فى مختلف ميادين العلم والأدب ، وهذه الميزات العلمية والأدبية يصورها لنا عبارة للقدسى (م ٥٩٧ هـ) إذ يصف أهل خوارزم بأنهم « أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وأدب ، وقل إمام فى الفقه والأدب والقرآن لقيقته إلا وله تلميذ خوارزمى »^(٣) .

أما كان عصر الزمخشرى ثمرة العصور السابقة فى ميدان العلم والأدب إذ نبغ فيه كثير من العلماء ، والأدباء ، والكتّاب ، والشعراء وخصوصا فى منطقة خوارزم التى كانت الثقافة الإسلامية تلقى فيها تشجيعا كبيرا من الخوارزمشاهية ، وقد أفرد الثعالبى (م ٤٢٩ هـ) فى كتابه « بقيمة الدهر » الباب الرابع للحديث عن غرر فضلاء خوارزم وترجم ياقوت الحموى (م ٦٢٦ هـ) لبعض آخر حتى عصره ، وذكر آخربن السيوطى (م ٨١١ هـ) فى كتابه « بغية الوعاة » .

(١) راجع من حديث الشعر والنثر - للدكتور طه حسين ص ١٣

(٢) الادب الفارسى - لأدوارد برون - ترجمة الدكتور شواربى ص ١٠٨

(٣) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم - المقدسى ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

وكان لتنافس الدول والملوك في دفع الحركة العقلية إلى الأمام أثر فيما وصلت إليه الثقافة في هذا العصر من إزدهار ورفق . وكان الناس يسابقون إلى إقتناء كتب الثقافة في جميع فروعها ومن ثم إزادات حركة التأليف والتصنيف ، وتغيرت طرائق التدريس ، فكان الطلاب يقرأون في الكتب والاستاذ يشرح ذلك^(١).

وكان تغيير طريقة التعليم سببا في إيجاد نوع من الحلقات العلمية وهي المدارس ، وقد انتقلت حلقات التدريس من المساجد والمساجد إليها^(٢) ، وفي إيران كانت نيسابور وسواها من المدن الإسلامية مشهورة بكثرة المدارس^(٣) فضلا عن العراق والشام ومصر والشمال الأفريقي والأندلس . وقد عرفت المدارس بنظامها الشبيه بنظام مدارسنا اليوم في القرن الرابع الهجري ، وكان أول من بنى المدارس هم النيسابوريين الذين بنوا بمدنهم مدارس عديدة^(٤) ومنها المدرسة البيهقية وتنسب للبيهقي (م ٤٥٤ هـ)^(٥).

وبنى أيضا الأمير سبكتكين أخو السلطان محمود الغزنوي مدرستين وبني في مدينته أيضا مدرسة أخرى باسم (السعيدية) ، كما بني مدرسة

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية - لادم ميتز ترجمة أبي زبدة ١ ج ٢٩٨ ، طيت

الغرب .

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ٢٩٨/١

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٢٩٩/١ خطاط المقرئ ٣٦٣/١

(٤) خطاط المقرئ ٣/ ٣٦٣ .

(٥) المرجع السابق - تاريخ الحضارة الإسلامية ٢٢٩/١ .

بنيسابور لابي اسحق الاسفراييني (٤١٨ هـ)^(١) وأنشأ أبو سعيد بن إسماعيل بن علي المثنى الاسترأبادي مدرسة أخرى^(٢)، وقد بنيت في هذا العصر المدارس النظامية التي بناها الوزير السلجوقي — نظام الملك الطوسي (م ٤٨٥ هـ) ومنها :

نظامية بغداد — نظامية نيسابور — نظامية أصفهان

نظامية مرو — نظامية عسكر مكرم — (نظامية خوزستان)

نظامية البصرة — نظامية الموصل — نظامية هراة

نظامية بلخ — نظامية آمد — نظامية طوس^(٣)

ولم يقتصر بناء المدارس على الملوك والوزراء بل كان العلماء والشعب يسهمون في هذا المضمار كآبي بكر البستي (م ٤٢٩ هـ) فقد أنشأ مدرسة بنيسابور ووقف عليها الكثير من أمواله وعقاره^(٤) بجانب هذه المدارس

(١) طبقات ابن السبكي ٩٠/٣، ١١١/٣

(٢) طبقات ابن السبكي ١٣٧/٣

(٣) طبقات ابن السبكي ج ٣/٤٥٠، ٤٤٩/٤، ١٠٠/٣، ٧٩/٣، ٢٠٤/٣

٢٣٥/٣، ٢٦٥/٤، ٣٢١/٤ محاسن اصفهان — ١٠٥، ١٠١، ١٠٣ — مرآة الجنان

١٣٤/٣ — مراصد الاطلاع ج ١/٤٩٠ الخريدة لعماد الاصفاني ، ٣٢/١ — تجارب السلف

لاين مسكويه ، روضة الصفاء — رحلة ابن بطوطة ٢١٣، ٢١٤ معجم البلدان لياقوت مادة

(جزيرة ابن عمر) ابن خلكان ٣/٢٧٩ — سير الاعلام للذهبي ١١/٥٣٤ — مراصد

الاطلاع مادة بلخ — مادة طبرستان صور الاقاليم .

(٤) تاريخ الحضارة الاسلامية لادم ميتز / . . .

كانت حلقات التدريس في المساجد والمنقديات كثيرة حافلة بالعلماء والمعلمين، وكان عدد الطلاب في الحلقة يبلغ أحيانا ثلاثمائة وأربعمائة وخمسمائة طالب وهذا مظهر لاقبال الغاس على طالب العلم وازدهار الحركة العلمية لا سيما في مجال الدراسات الاسلامية الأصيلة وكان مجتمع مثالا على الأدب الفقيه أبى الطيب الصعلوكى النيسابورى خمسمائة طالب ، كذلك كان يحضر في اليوم الواحد على الامام الفرد (م ٤٧٤ هـ) وهو أحد أصحاب الامام الجوينى ثلاثمائة من الأئمة والطلبة .

ولا شك أن اقبال الملوك والأمراء والشعب وتشجيع العلماء واقتناء الكتب وتأسيس المدارس كانت خطوات كبيرة في سبيل ازدهار هذه النهضة العلمية .

وكان الخوارزميون على الرغم من اشتغالهم بمشكلاتهم الداخلية ، والخاصية ، والأعباء الثقيلة التي كانت ملقاة على كاهلهم ، يعنون عناية كبيرة بتشجيع الحركة العلمية والاقبال على العلماء والأدباء وخاصة الأئمة منهم وكانوا يهتمون بتقنيف الطبقات المختلفة من الشعب ^(١) - فيؤسسون المدارس في مدنهم المختلفة ، وكان يقوم فيها بالتدريس كبار الأدباء والفقهاء في الدولة ، ومنهم مثلاً شهاب الدين أبو سعد بن عمران الذى كان من المتضلعين في اللغة والأدب والطب ، وعهد اليه بالتدريس في خمس مدارس بمدينة خوارزم ، وقد أسست هذه المدينة دور متعددة للكتب ^(٢) وبذلك صارت خوارزم أحد مراكز الحضارة في ايران ^(٣) .

(١) تاريخ الدولة الخوارزمية - حافظ أحمد حمدي ص ٩٠ .

(٢) سيرة جلال الدين منكبرتي - للنسوى ص ٦٨ وما بعده ، تاريخ الدولة الخوارزمية ص ٩٠ لحافظ أحمد حمدي .

(٣) تاريخ الأدب الفارسي لادوارد براون ترجمة شواربي ص ١١٨ .

وكان عصر الزمخشري يعد من أحفل العصور العربية الإسلامية
بالنشاط الأدبي والعلمي والفلسفي وقد ظهر فيه كثير من أعلام الفكر
الإسلامي والثقافة العربية ...

ومن أعلام اللغويين في عصر الزمخشري من شتى أنحاء العالم الإسلامي:

- ١ — أبو زكريا القبريزي م ٥٠٢ هـ
- ٢ — الجواليقي البغدادى م ٥٣٩ هـ
- ٣ — ابن الشجرى م ٥٤٢ هـ
- ٤ — كمال الدين الانبارى م ٥٧٧ هـ
- ٥ — الراغب الأصفهاني م ٥٠٢ هـ
- ٦ — الميداني النيسابوري م ٥١٨ هـ
- ٧ — ابن القطاع الصقلي م ٥١٥ هـ
- ٨ — ابن السيد البطليوسي م ٥٢١ هـ

ومن نبغ في هذا العصر في العلوم الإسلامية :

- الشهرستاني م ٥٤٨ هـ

وفي علوم التاريخ نبغ :

- ١ — عماد الدين الأصفهاني م ٥٧٩ هـ
- ٢ — السمعاني م ٥٦٢ هـ
- ٣ — ابن عساكر م ٥٧١ هـ

ومن العلماء في الجغرافيا والرحلات :

- ١ — الشريف الإدريسي م ٥٤٨ هـ
- ٢ — أبو بكر الزهرى الفرناطى م ٥٣٢ هـ

ومن مؤلفي الموسوعات العامة :

— ابن الجوزي م ٥٧٩ هـ

ومن الفلاسفة المشهورين في هذا العصر :

١ — الغزالي م ٥٠٥ هـ

٢ — ابن باجه م ٥٣٣ هـ

٣ — ابن طفيل م ٥٨١ هـ

٤ — الرازي م ٦٠٦ هـ

٥ — ابن رشد م ٥٩٥ هـ

٦ — عمر الخيام م ٥١٨ هـ

ولا يفوتنا أن نشير أيضا إلى أن اقليم خوارزم كان زائرا بالعلماء والأدباء واللغويين والمحدثين ويذكر بعضهم الشعالي في اليتيمة ويذكر نبذنا من ملاحظهم وأشعارهم (١). وهنا نذكر منهم :

— أحمد بن علي الصفار الخوارزمي — أحمد بن محمود أبو الحسين

السهمي الخوارزمي — أحمد بن ابراهيم الادبي الخوارزمي — القاسم بن الحسين بن محمد أبو محمد الخوارزمي (٢).

— ومنهم : محمد بن علي بن ابراهيم المراسي السكاتي أبو عبد الله

الخوارزمي وعلي بن أحمد الحكيمي البديهي (٣).

(١) يتيمة الدهر — لشعالي ج ٤ ص ١١٤ إلى ١١٦ .

(٢) معجم الأدباء ج ٢ ص ١٣١ ج ٤ ص ٦٧ ، ج ٥ ص ٢١ ، ٣٢ ، ج ١٦ ص ٢٣٨ .

(٣) بغية الوعاة للسيوطي ص ٧٣ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

راجع : ظهر الاسلام — أحمد أمين — ج ١ ص ٢٥٨ فهو يذكر عددا غير قليل منهم .

وتاريخ بغداد ج ٥ ص ٤٧١ وج ١٣ ص ٤٦٥ ، ٢٦٦ وج ١٤ ص ٢١٣ ،

ج ٩ ص ٣١٥ ، ٣١٦ ، ج ١٠ ص ٤٥٤ — ٢٥٥ ج ٧١/٥ ، ج ٢٧٣/٤ ، ج ٣ ص ٢٤٧ ،

ج ٢٦٩/١ .

— ومنهم : محمد بن عبد الله بن اسحق بن حازم أبو عبد الله الخوارزمي مجاهد بن موسى بن فروخ أبو علي الخوارزمي ، يوسف بن جعفر بن علي أبو يعقوب الخوارزمي ، صالح ابن مالك أبو عبد الله الخوارزمي - طالب بن أحمد بن الخوارزمي - عبد العزيز بن الخوارزمي - أحمد بن محمد بن نصر المعروف بابن الخوارزمي ، أحمد بن محمد بن علي بن غير ، أبو سعيد الخوارزمي الضرير ، أبي بكر الخوارزمي المعروف بالبرقاني ، محمد بن موسى بن محمد بن أبي بكر الخوارزمي محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو سعيد الخوارزمي .

— ٤ —

ولقد لقي الأدب في هذا العصر ترحيباً وتشجيعاً ورواجاً لم يعرفه أي عصر سابق وكان كل حاكم في إمارته يفتخر في بطانته جماعة من الأدباء المتمازين ، لينافس بهم حكام الإمارات والدول الأخرى ، وبذلك ظهر في كل مركز من مراكز هذه الإمارات حركة علمية ^(١) وكان الملوك يقلدون من يبرز من العلماء والأدباء مقاليد الحكم ومناصب كبيرة في الدولة ويكفينا أن نذكر تعظيم الخوارزمية لأسرة علمية كبيرة كالجويني ^(٢) .

يقول السمرقندي العروضي :

كان لأبي العباس مأمون خوارزمشاه وزير اسمه أبو الحسين أحمد بن محمد السهيلي ، وكان حلیم الطبع فاضلاً ، وكذلك كان خوارزمشاه حلیم الطبع صديقاً لأهل الفضل ، وبفضلهما اجتمع كثير من الحكماء وأهل الفضل في هذه الحضرة مثل أبي علي بن سينا وأبي سهل السهيلي وأبي

(١) الفن ومذاهبه في النشر العربي - دكتور شوقي ص ١٣٥ .
(٢) مقدمة تاريخ جهانكشاي - للجويني - كتبه العلامة القزويني .

الخير الخمار وأبي الريحان البيروني وأبي نصر العراق ، وكان يلي بطليموس في علم الرياضة وأنواعه ، وكان أبو الريحان في مكان أبي معشر وأحمد بن عبد الجليل في النجوم ، وكان أبو علي وأبو سهل نذرين لارسطاطاليس في علم الحكمة الذي يشمل كل العلوم ، وكانت هذه الطائفة من العلماء في القصر غنية عن كل أمور الدنيا ، وظلوا كذلك حتى أتى كتاب من السلطان محمود يقول فيه :

« إني سمعت أن في مجلس خوارزمشاه جماعة من أهل الفضل ليس لهم نظير مثل فلان وفلان فعليك أن ترسلهم إلى مجلسنا ليشرف بهم ولكي نفيد من علومهم وكفايتهم ولتكون هذه منة للخوارزمشاهية علينا » (١) :

وإلى جانب هذا التعظيم نرى أن محمدا الخوارزمشاه (م ٤٩٠ — ٥٢١ هـ) يدعو الحكيم اسماعيل بن حسن الجورجاني إلى بلاطه ليؤلف له « ذخيرة خوارزمشاه » في الطب ، فمكث عنده ووافته منيته هناك في عام (٥٣١ هـ) وكذلك شاعر البلاط الخوارزمي ذو الاسانين رشيد الدين الوطواط صاحب اتسز الخوارزمشاه - وألف له كتابه « حقائق السحر في دقائق الشعر » - وهو من أقدم الكتب الفارسية في صناعة الشعر ، ويؤلف البيروني أيضا « الآثار الباقية » ، « تاريخ خوارزم » ويؤلف الحكيم القاني كتابا في الفلسفة الإلهية الملك خوارزمشاه .

وسوى هؤلاء كثيرون من العلماء والفلاسفة والأدباء الذين أبدعوا

في مؤلفاتهم في ظلال ملوك وهبوا للعلم والعلماء كل نفيس^(١) .

* * *

— ٥ —

وقد ازدهر الأدب والشعر ازدهاما كبيرا في هذا العصر نتيجة لاددهار الحركة العقلية ، ولظهور آثار الثقافات المترجمة ، وكما قلنا: ظلت اللغة العربية في كثير من أنحاء العالم الاسلامي هي لغة العلم والأدب ، وقد ذاع أدب المقامات في هذا العصر ، ونبع كذلك فن الشعر الفلسفي والصوفي، وذاعت طريقة ابن العميد التي انقلبت على أيدي كتاب المقامات وخاصة البديع والحريري ومن اليهما إلى صناعة لفظية شديدة التأنق وإن كان الذوق الأدبي يتحكم فيها .

وفي هذا العصر ذاع كذلك شعر الموشحات واستحكم النقد وقوى واستقل عن علوم الأدب والبلاغة ، وفي هذا العصر كذلك وضع عبد القاهر الجرجاني أصول البلاغة العربية التي سار عليها العلماء بعده في كل المصور .

وقد ظهر في هذا العصر كثير من الأدباء والكتّاب والشعراء الذين ما زلنا نقرأ لهم ونقتلهم على آثارهم ، ومن أشهرهم :

١ - الطغراني م ٥١٤ هـ

٢ - ابن الهبارية البغدادي م ٥٠٩ هـ

٣ - أنو اسحق الغزي م ٥٢٤ هـ

٤ - ابن الخياط الدمشقي م ٥١٧ هـ

(١) تاريخ الأدب الفارسي - ادوارد براون - ٤١٧ ، مقدمة الغزويني لتاريخ جهانكشاي ج ٢ ص ٦ .

٥ — ناصح الدين الارجاني م ٥٤٤

٦ — الابیوردی م ٥٧٧

٧ — ابن خفاجة م ٥٣٣

٨ — ابن عديس م ٥٢٧

ومن الأدباء والكتّاب :

١ — القاضي الفاضل م ٥٩٦

٢ — الحریری م ٥١٦

وقد جاء في الجزء الرابع في كتاب بتيمة الدهر للنعماني (م ٤٢٩)
ذكر نبذ من أدب الشعراء والأدباء ولغويي خوارزم وأشهر الذين كانوا
قد نبغوا فيها في القرن الرابع الهجري ^(١).

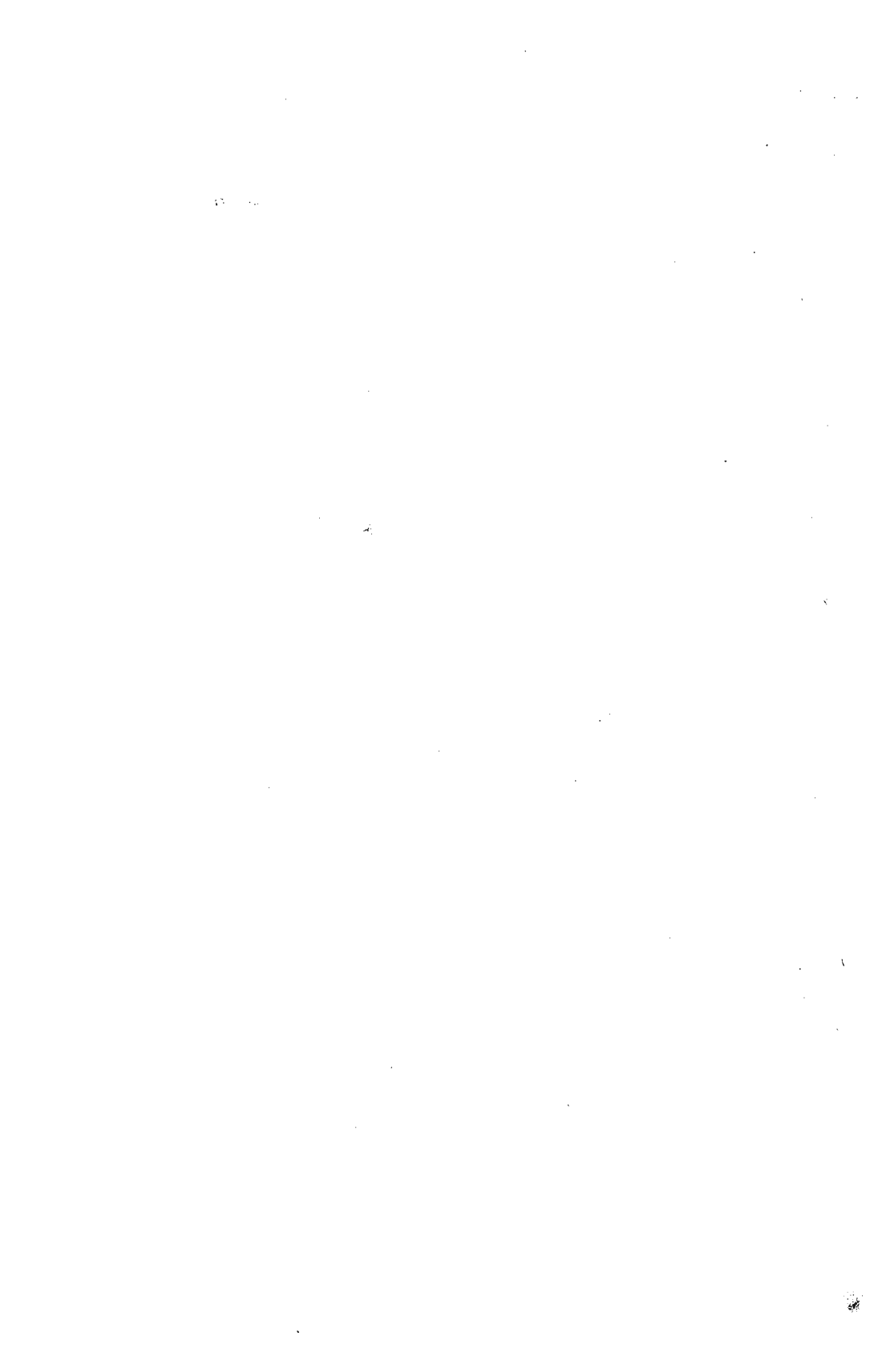
وكان القرآن هو محور الحركة الفكرية والعقلية خلال القرون الستة
الأولى من تاريخ الحضارة الإسلامية ، كان قلب هذه الحركة البصرة
والكوفة وكانت بغداد عاصمة الخلافة ، هي عقل هذه الحركة الموجهة .
ومن هذه العواصم تألفت أشعة النهضة العلمية وامتد سناها إلى كل أفق في
أرجاء الدول الإسلامية شرقها وغربها ، جنوبيها وشمالها ولقد كانت لغة
الأمة القائمة ولغة ثقافات الدين الإسلامي هي اللغة العربية واضطرت اللغات
التابعة أن تنطوي على نفسها وأن ينضوي بعضها الآخر تحت لواء اللغة
العربية الطاهرة ، فظلت العربية لمجموعة علومها وفنونها هي محور الطابع
الفكري والعقلي لهذا العصر ونالت الكثير من عناية المتعلمين فرقت عباراتها
وأصاليها وتعددت مفرداتها ومشققاتها وألف العلماء المطولات في كل من

فنونها المختلفة المتشعبة الأطراف ، من البلاغة والصرف والنحو ، والتفسير والحديث والفلسفة ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والموسوعات وما إلى ذلك . هذه صورة عامة للحياة العقلية والأدبية في عصر الزمخشري وهي صورة تضيء لنا الطريق في دراسة الزمخشري وتراثه وتلقى ضوءا كبيرا على اللغة العربية وحالتها في هذا العصر وخاصة في الأقاليم النائية . ولا شك أن الغموض الذي أحاط بذلك العصر القديم الذي عاش فيه الامام الزمخشري قد أنجب الكثيرين من العلماء بما بسطناه في هذا الفصل من مظاهر النشاط العقلي والأدبي المختلف الألوان والسمات ... (١) .

الفصل الرابع

اللغة العربية

في عصر الزمخشري



امتدت رقعة العالم الإسلامى منذ القرن الأول الهجرى وشملت أجزاء كثيرة كانت لها لغات قومية قديمة : كإيران ، وخوارزم ، ومصر والشام ، والأندلس ، مثلاً .

وبسيادة الإسلام فى هذه الأرجاء ذاعت اللغة العربية فيها ، وأصبحت هى لغة الحكم والسياسة ، وكذلك لغة العلم والثقافة واحتلت المنزلة الأولى فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ، وأخذت اللغات القومية فى الأقاليم تتضاءل وتختفى ، وسارت اللغة العربية صاحبة النفوذ والسلطان .

ولما انقسمت الخلافة العباسية إلى دويلات واستقلال ملوك هذه الدويلات ببلادهم عن خلافة بغداد ، وضعف نفوذ العباسيين ، وقامت دويلات فى إيران ، وخوارزم ، وأفغانستان ، وحدود الهند ، تنمى بعضها إلى أصول فارسية ، كالصفارية ، والبويهية ، والسامانية ، ومن قبلهم الطاهرية « نسبة إلى طاهر بن الحسين قائد المأمون » . وظهرت أسر فارسية كثيرة احتل بعضها مناصب خطيرة فى الخلافة العباسية : وأخذت اللغة الفارسية بتأثير ذلك كله فى الظهور ، وشجع الصفاريون والسامانيون العلماء والأدباء على الكتابة باللغة الفارسية وإحياء تراثها . وسادت اللغة الفارسية فى شرق بلاد ما بين النهرين ، وأخذت اللغة العربية تفقد مكان الصدارة فى هذه البلاد قليلاً قليلاً ، وكان ذلك فى القرنين الثالث والرابع . وإذا كان المعنى وهو فى القرن الرابع الهجرى قال حين مروره ببلاد فارس قاصداً عضد الدولة :

مغاني الشعب طيبا في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان
إلى أن يقول :

ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان
فما بالنا بمصير اللغة العربية في خراسان وخوارزم مثلا .

يحدثنا مؤلف تاريخ سيستان عن إحياء اللغة الفارسية في عهد
السلطان يعقوب بن ليث الصفارى فيقول : إنه عندما تولى العرش جاءته
شعراء العرب ونظموا له أشمارا باللغة العربية ولكنه رد عليهم قائلا إني
لأنهم هذا اللسان ، ولا أريد أن أسمع مالا أفهمه فمن هذا الكلام
نسنتج بأن إحياء اللغة الفارسية أخذ يظهر في عهد الدولة الصفارية (٢٥٤
— ٢٦٥ هـ) وبعدهم جاء السامانيون (٢٦١ — ٣٨٩) ، فأخذت اللغة
الفارسية مكانتها في البلاط وأكب العلماء والأدباء على ترجمة الكتب
العربية إلى الفارسية ، وترجم تفسير الطبرى وترجم أيضا تاريخ الطبرى
بأمر من الملك أبى صالح منصور بن نوح السامانى (٣٤٣ — ٣٦٦ هـ)
وكانت اللغة الفارسية السائدة في تلك العصور هى اللغة الفارسية الدرية
لأن المؤرخين حينما يؤرخون اللغات والمهجيات الفارسية يقسمونها إلى
ثلاثة أطوار وعهود :

١ — عهد اللهجات الإيرانية القديمة .

٢ — عهد اللهجات الإيرانية الوسطى .

٣ — عهد اللهجات الإيرانية الحديثة .

(أ) عرفت اللهجات القديمة بواسطة الكتابات الحجرية والطين
الافستائية والأسماء المادية والسكانية ، وفي كثير من الوجود تتقارب
اللهجات الفارسية القديمة الشرقية والغربية تقاربا تاما ، والظاهر أن

الفارسية القديمة كانت اللهجة الشعبية وحفظت بالخط المسماري في كتابات الأباطرة الهخامنشيين .

(ب) ويطلق اسم اللهجات الإيرانية الوسطى على عدد من اللهجات التي كانت جسرا بين اللغات الإيرانية الحديثة والقديمة ومن أهمها اللهجات التي يوجد منها أدب مكتوب ، وهي : البهلوية ، الفارسية الوسطى (البهلوية الساسانية) السغدية ، الخوارزمية السكائية .

فاللهجة الخوارزمية التي كانت شائعة حتى حوالي القرن الثامن الهجري كانت آثارها القديمة بالخط الأرامي والآثار الحديثة منها بالخط العربي . وكانت اللغة الخوارزمية هي لغة القضاة لأقاليم خوارزم حتى القرن الثامن الهجري ، ثم تخلت عن مكانها للغة الفارسية والتركية ، وأن معلوماتنا عن اللغة الخوارزمية حديثة لا تعود إلى أكثر من سنة ١٩٢٧م ، والآثار التي عثر عليها لم تكتمل بعد ، ولا تعطينا شيئا من المعلومات التفصيلية .

ج — أما اللهجات الإيرانية الحديثة فهي اللهجات المتداولة في القرن الأخير ، ويمكن أن نؤرخ بدايتها منذ شيوع الخط العربي (في بلاد فارس) ولأن هذا الخط لا يستطيم تصوير كثير من الحركات والأصوات في اللهجات المذكورة ، فقد حدثت تغييرات في تحريرها بل وفي تلفظها ، وبالإضافة إلى ذلك دخل هذه اللهجات بالتدريج كثير من الكلمات العربية وأخيرا قواعد صرفية ونحوية .

وأما اللهجة الأدبية التي راجت في إيران في العهد الإسلامي في أواسط القرن الثالث الهجري عما بعده التي تعرف « بالدرية » فقد كانت لهجة أدبية عامة وذائعة في أواخر العهد الساماني والقرون التي تلتها . وهذه

اللغة السكتابية ولدت دائماً شعراء خلال القرنين الثالث والرابع في مناطق مختلفة مثل سيستان ومدن خراسان وماوراء النهر وجرجان والري ، وهذه اللغة استعملت أول مرة في العهد الإسلامي في قصور الملوكة ومدن شرق إيران .

كان عهد السلاطين السامانيين الذين زالت دولتهم سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٨ م) على يد الغزنويين وآل افراسياب أكثر العهود عملاً على نشر اللغة الفارسية الدرية — فقد سعى هؤلاء لإحلال اللغة الفارسية مكان اللغة العربية ووقفوا في هذا السبيل توفيقاً كاملاً حتى ظهر في عهدهم في بلاد ماوراء النهر وخراسان كثير من الشعراء والكتّاب : كما ظهر في عهود من خلفوهم من الغزنويين رجال ربوا ونشئوا في الدولة السامانية أمثال الفردوسي ، والفوخي ، والعنصرى ، وامتدت اللغة الفارسية وآدابها إلى خارج حدود إيران كإهند ولاهور وأفغانستان وآسيا الصغرى^(١) .

على أنه حدث للغة العربية رواج وذبوع في هذه المناطق في القرنين الخامس والسادس عقب ظهور السلاجقة في إيران ، فقد اهتموا باللغة العربية وآزروها في معركتها ، لأنها لغة الدين والقرآن ، وحتى ينشروا نفوذهم السياسى ويضمّنوا لدولتهم البقاء ، ولم يمض قرن من ظهور — السلاجقة حتى اختفى الكتّاب الفارسيون من الدواوين وحل محلهم كتّاب عرب أو مستعربون .

(١) راجع — تاريخ سبكر شناسى ج ١ ص ١٦ ، ١٥٢ ملك الشعراء بهار ، تطور الشعر الفارسي وتاريخ الادب في إيران — دكتور صفا ، تطور اللغات واللهجات الإيرانية — الدكتور احسان يارشاطر ، مجلة الدراسات الادبية العدد الثانى السنة الثانية — والمدد الأول السنة الثالثة .

وقد أخذ العلماء في ترجمة بعض الكتب الفارسية إلى العربية ومن أمثال هؤلاء : السيد اسماعيل الجرجاني (م ٥٣١ هـ) فقد ألف كتابه « ذخيرة خوارزمشاه » بأمر قطب الدين محمد خوارزمشاه . المؤسس الأول للدولة الخوارزمشاهية باللغة الفارسية ، ثم ترجمة إلى اللغة العربية وقال في مقدمة هذه الترجمة : « بما أن كتابي الذخيرة كان باللغة الفارسية ، وإن تسكن الاستفادة منه عامة ، فبناء على طلب أهل العلم ترجمته في عشرة مجلدات إلى اللغة العربية ^(١) .

على أن ذلك لم يمنع كثيرا من العلماء من تأليف كتبهم باللغة الفارسية والعربية معا أو الفارسية وحدها في هذين القرنين . وهذه الفارسية لاشك كانت متأثرة باللغة العربية .

ومن أمثال هؤلاء الذين ألفوا باللغتين الفارسية والعربية :

١ - أبو الحسن علي بن البيهقي المعروف بابن فندق (٤٩٣ - ٥٦٥ هـ)
فقد ألف كتابا باللغتين الفارسية والعربية أمثال « التاريخ »
البيهقي وجوامع الأحكام وغيرها بالفارسية ، وألف « معارج نهج البلاغة »
و « اباب الألباب » و « وتمة صوان الحكمة » باللغة العربية ^(٢) .

٢ - شرف الدين أبو الفضل حبیبش بن إبراهيم (٥٦٩ - ٥٨٨ هـ)
وقد ألف : « كامل التمييز » ، « بيان الطب » وملحمة دانيال بالفارسية ،
وبيان الصناعات وصحة البدان ، كفاية الطب ، تلخيص علل القرآن ،
بيان التعريف ، وباللغة العربية ، وترجم « قانون الأدب » من العربية إلى
الفارسية .

(١) سبكر شناسی - ملك لشعراء بهاء ص ٣٦٤ الجزء الثاني ط طهران .

(٢) سبكر شناسی ص ٣٦٥ الجزء الثاني .

٣ — الامام الفخر الرازى (٥٤٤ — ٦٠٦ هـ) ألف باللغة العربية تفسيره القيم ، وألف باللغة الفارسية « حقائق الأنوار فى حقائق الأمرار » ذكر فيه مبادئ العلوم وذلك بأمر السلطان خوارزمشاه (٤٦٨ — ٥٩٦ هـ) .

٤ — رشيد الدين محمد بن محمد بن عبد الجليل عمر ابن كاتب المعروف بالوطواط كاتب الخوارزمشاه اتسز ، وكان يلقب بذى اللسانين وقد ألف له بالفارسية كتاب « حقائق السحر فى دقائق الشعر » ونثر اللآلى من كلام أمير المؤمنين على . وله رسائل كثيرة باللغة العربية . وقد استمر فى خدمة الخوارزميين حتى مام ٥٦٨ هـ .
عام ٥٦٨ هـ (١) .

ومن الذين كتبوا وألفوا باللغة الفارسية وحدها :

١ — أبو الحسن نظام الدين عمر بن على السمرقندى المعروف بالنظامى المروضى ، فقد ألف كتابه « مجمع القوادى » فى سنة ٥٥١ هـ — ٥٥٢ .

٢ — القاضى حميد الدين عمر بن محمود المحمودى البلىخى (م ٥٥٩ هـ) كان قاضى القضاة فى بلخ ألف « المقامات الحديدية » قلد فيها البديع والحريى ، ويعتبر من أوائل الذين أوجدوا النثر الفنى الفارسى .

٣ — بهاء الدين محمد (م ٤٨٨ هـ) وكان كاتباً لملاء الدين نكش الخوارزمشاه (٦٦٧ — ٥٩٦ هـ) وقد ألف « التوسل إلى التوسل » بالفارسية .

(١) راجع مقال المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام عن الصلات بين العرب والفرس وآدابهما فى الجاهلية والاسلام فى عدد أكتوبر عام ١٩٣٨ من مجلة المقتطف ص ١٥٩ .

٤ — أبو الشرف ناصح بن ظفر بن سعد المنشى الجرفادقانى المتوفى في حدود (٥٩٠ هـ) وقد ترجم تاريخ العقبى من اللغة العربية إلى اللغة الفارسية .

٥ — الامام جمال الدين أبو الفتح الحسين بن على بن محمد بن أحمد الرازى من أعظم علماء التفسير والحديث وعلم الكلام وكتاب اللغة الفارسية ، ألف باللغة الفارسية (روض الجنان ودرج الجنان) في التفسير^(١) ، وكان تأليفه قبل سنة ٥١٠ هـ .

ومع ذلك فقد كانت اللغة العربية دائعة في القرن الخامس والسادس عند العلماء والفضلاء ، أما عامة الناس في خراسان مثلاً وماحولها فقد كانوا يعزفون عن اللغة العربية ، ويقول أبو الممالى نصر الله (م ٥٣٩ هـ) في ترجمته لكتاب « كليمه ودمنه » من العربية إلى الفارسية : أن الذين ترجحوا هذا الكتاب بعد ابن المقفع كانوا يحاولون إظهار الناحية القصصية في هذا الكتاب مغفلين مااشتمل عليه من حكم ، ونصائح ، وبما أن الناس انصرفوا عن مطالعة اللغة العربية ، فقد أصبحت تلك الحكم والنصائح مهجورة ، فلذلك قمت بترجمته إلى الفارسية وتطعيمه بالآيات والأحاديث والأخبار والأمثال .

لقد بقيت اللغة العربية في عصر الزمخشري لغة الدين والثقافة في هذه المناطق النائية عن قلب العروبة ويظهر أنه في القرن السادس كان الغلبة للغة العربية بحيث أنها زاحت الفارسية ، وغلبتها ذبوعا وشهرة ، حتى يش

(١) راجع سبكر شناسى — ملك الشعراء بهار — ج ٢ : ص : ٢٩٨ ، وما بعده

تاريخ آداب ايران — ادوارد براون ج ١ : ص ٥٠٢ وما بعده

الكتاب الفارسيون من أحياء لغتهم ، فأخذوا في نشر اللغة العربية ، وإذا كانوا أحيانا يكتبون باللغة الفارسية ، فقد كان الأسلوب والسمكيات والاستدلال بالآيات والأحاديث والأشمار كلها عربية ، حتى أن الكتاب الذى لم يكن يطعم كتابته الفارسية باللغة العربية كان يعد تافها .

ويقول النظامى العروضى « م ٥٥١ » فى كتابه « جهار مقاله » فى شرائط الكتاب: « أنه يجب أن يكون له نصيب أوفر من الأدب والمنطق واطائف الحكم وأن يكون معتادا على قراءة كلام الله والأحاديث النبوية وآثار الصحابة وأمثال العرب ، وكلمات العجم ، ومطالعة كتب السلف ، كأمثال صاحب الصابى ، وقابوس ، وكلمات قدامة بن جعفر ومقامات البديع والحريرى والحميدى فهو يحمل الثقافة العربية ثقافة أصيلة فى تكوين الكتاب وفى شخصيته^(١) ، ويقول صاحب كتاب تطور الفجر الفارسى^(٢) معلقا على ذلك ، أنه لاشك أن هذه الطريقة قد انتصت من تتبع اللغة الفارسية ودرس قواعدها وفهم دقائقها ، وأن الأدباء الفرس أخذوا يهتمون بحفظ اللغة العربية وقواعدها ، وكان همهم أن يفعلوا النحو والصرف ، ونسوا اللغة الأم (الفارسية) .

وإذا كانت اللغات القومية التى أحيها الحكام الفارسيون والآراك استخدمت فى الآداب والسياسية والفنون ، فإن اللغة العربية ظلت لغة الدين ولغة العلم معا ، ذلك لأن أصول الثقافة الإسلامية كانت مدونة باللغة العربية ، ولم بدون شئ منها باللغة الفارسية أو التركية أو الخوارزمية ،

(١) جهار مقاله ص ١٣ ط ليدن .

(٢) تاريخ سبكر شناسى ص ٣٦٢ الجزء الثانى .

مثلا ، وبعد إحياء هذه اللغات القومية ، لم يكن الزمن يسمح بأن تنقلب هذه اللغات القديمة إلى لغة ثقافة وعلم إذ لابد من انقضاء زمن طويل عليها في هذا المجال وذلك ما لم يكن بالنسبة إلى هذه اللغات .

لذلك بقيت اللغة العربية تستخدم في حلقات التعليم ومنعديبات الثقافة كما ظلت هي لغة التأليف كذلك ، وأقبل عليها العلماء ، يؤيدونها في معركة البقاء أو الموت في هذه الأقاليم النائية ومع ذلك فقد ظهر في القرن الخامس والسادس الهجري معاجم عربية فارسية في خراسان مثل كتاب البلغة وكتاب المصادر للزوزنى ... وخراسان وخوارزم بعيذان عن المناطق العربية وقلمنا كان يحتمك أهلها بالعرب ، ومن ثم كان أهلها في حاجة إلى مثل هذه المعاجم وقد نبغ علماء لغويون في خراسان ومن أشهرهم — الميداني (م ٥٠٨ هـ) — وأبو جعفر البيهقي (٥٤٤ هـ) والوطواط (م ٥٧٣ هـ) ومن أشهر العلماء الخوارزمية في القرن السادس ناصر المطرزي الخوارزمي (م ٦١٠ هـ) والوزني كتاب « السامى للأسامى » والوطواط « حدودنا » والميداني « الهادي للشادي » — وللمطرزي « شرح مقامات الحريري » وللمنخسرى أيضا « مقدمة الأدب » .

وظهور المعاجم باللغتين يدل على ظهور اللغة الفارسية ، وفي الوقت نفسه يدل على حاجة الناس إلى فهم اللغة العربية . وإذا كانت اللغة العربية قد فقدت سلطانها المطلق التي كانت تتمتع به اذ شاركتها اللغات القومية فأنها على الرغم من ذلك كله كانت تفضى في الغلبة قدما على الفارسية لأنها كانت مازال هي لغة الدين والعلم ، وأغلب الذين يذكرون في عداد العلماء والأدباء والشعراء في خوارزم وإيران كانوا يلقبون بذي اللسانين وكتاب القيمة للثعالبي مشحون بذكر هؤلاء ... فخوارزم مثلا

كانت مهد العلم ومهبط الحضارة ولعبت دورا مهما في انهاء الثقافة الإسلامية ، واللغة السائدة فيها كانت اللغة العربية : ويقول الزمخشري في مقدمة كتابه (الفصل) : « ولعل الذين يفضون من العربية ويضمون من مقدارها ويريدون أن يخفضوا مافزع الله من منارها ، حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه في عجم خلقه وليكن في عربيه ، لا يبعدون عن الشعبية منابذة المحق الابلج ، وزيفا عن سواء المنهج ، والذي يقضى منه العجب حال هؤلاء في قلة انصافهم وفرط جورهم واعة سافهم ، وذلك أنهم لا يجحدون علما من العلوم الاسلامية فقها وكلامها وعلما تفسيرها وأخبارها إلا وافقاره إلى اللغة العربية بين لا يدفع ومكشوف لا يتفنع » ثم يقول : وبهذا اللسان مناقلتهم في العلم ومحاورتهم وتدريسهم ومناظرتهم وبه تقار في القراطيس أقلامهم وبه تسطر الصكوك والسجلات حكاهم ، ثم أنهم في تضاعف ذلك يجحدون فضلها وبذهبون عن توقيرها وتعظيمها وينهون عن تعلمها وتعليمها ^(١) ، ثم يقول : ويدعون الاستغناء عنها وأنهم ليسوا في شق منها ، فان صح ذلك فما بالهم لا يطلقون اللغة رأسا والاعراب ولا يقطعون بينها وبينهم الأسباب فيطمسوا من تفسير القرآن آثارها وينفضوا من أصول الفقه غبارها ، ومالهم لم يقرطوا في مجالس التدريس وحلق المناظرة ثم نظروا هل تركوا للعلم جمالا وهل أصبحت الخاصة بالعامّة مشبهة وهل انقلبوا هزأة للساخرين وضحكة للمناظرين الخ ^(٢) .

(١) الفصل للزمخشري — المقدمة

(٢) الفصل للزمخشري — المقدمة

ونلاحظ أن العصر السلجوقي كان عصر سيادة العلم للمدن الفارسية مثل مرو ، وبلخ ، ونيسابور وبضعف السلجوقيين قوت الدولة الخوارزمية ، وانتقلت عواصم الثقافة العربية الإسلامية من مدن إيران إلى « جرجانية » خوارزم وراج فيها سوق العلم ونبغ فيها الكثير من العلماء والأدباء والشعراء

وفي جرجانية خوارزم ولد ونشأ ومات الامام الزمخشري وقد استمد من علمائها أصول اللغة العربية .

وقد ظل اللغة العربية في الشام ومصر والحجاز ، والعراق ، والبيئات القريبة من جزيرة العرب السيادة في هذه الأقاليم ، واحتفى بها العلماء والأدباء والشعراء، والمفكرون، وألفوا فيها نفائس الكتب وأثمن مصادر الدراسات الإسلامية والعربية .

وقد ظهر في عصر الزمخشري كثير من كتب اللغة والأدب والمعاجم ومن أشهر العلماء آنذاك التبريزي (م ٤٢١ - ٥٠٢ هـ) والجواليقي ، والحريزي وأبي الشجري . وكمال الدين الانباري (م ٤٤٩ - ٥٧٧ هـ) ، ومن معاصريه كذلك تاج الدين محمود بن أبي المعالي بن الحسن الخراساني^(١) اللغوي المتوفى نحو ٥٨١ هـ وكان بارعا في اللغة والأدب ، وله : « الفرائد » و « الشعر الرائق » وكان واحد بنيسابور علما وفضلا وأدبا وله

(١) نسبة إلى خراسان بضم الخاء مدينة بين الري وسمنان ، ٢ ج : ٤٠٤ أسماء

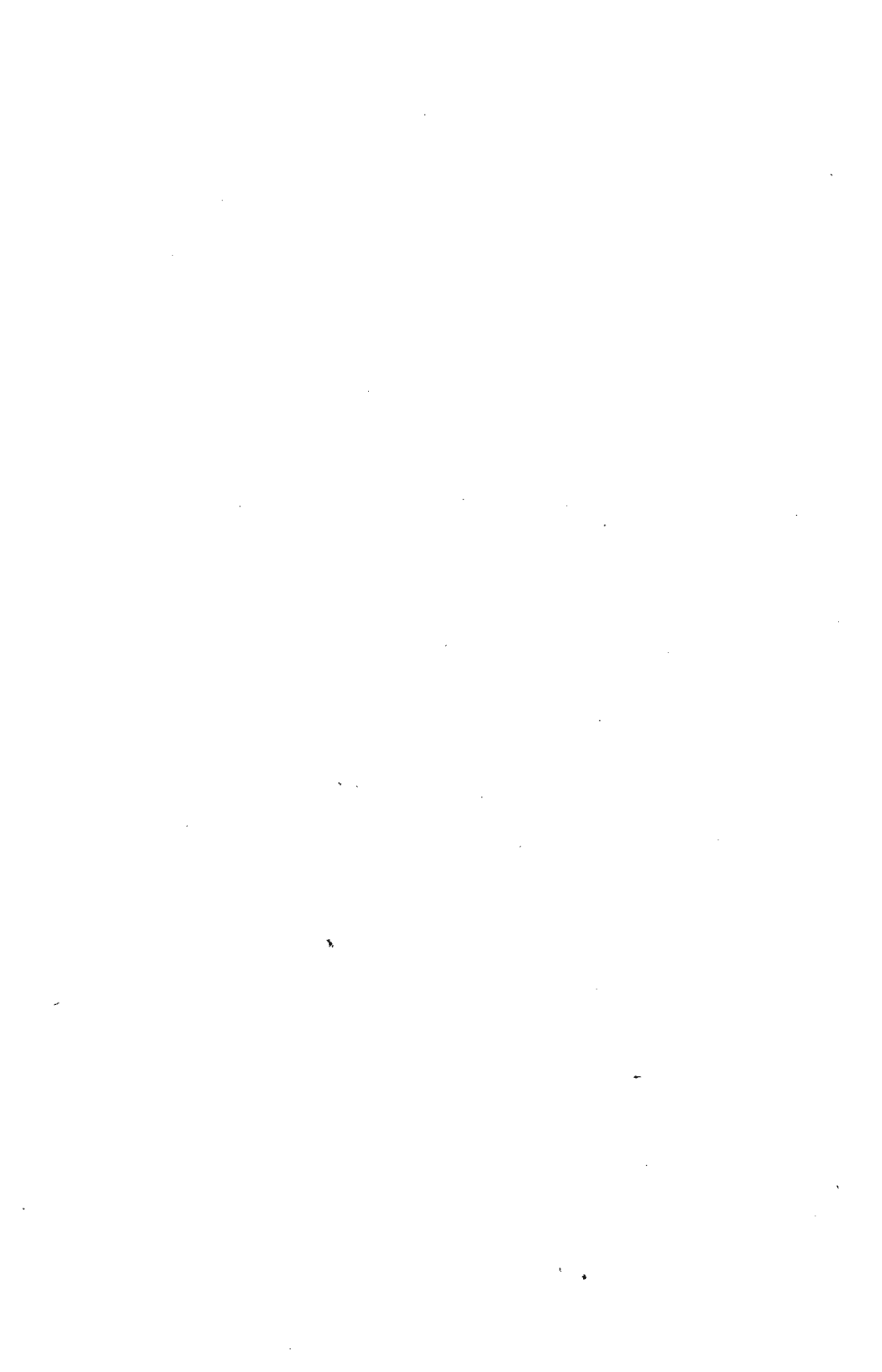
مؤلفات منها « المحيط بملفات القرآن » و « ضالة الأديب بين الصحاح والتهديب »
و « ينابيع اللغة .. وسواها (١) » .

وبعد ، فهذه صورة مفصلة للغة العربية في عصر الزمخشري ، تهدينا
إلى البيئة اللغوية والأدبية التي عاش في خلالها هذا الامام الكبير الخالد .

(١) ١ : ٤١٥ ، ٢ : ١٠٨ ، ٣ : ٢٧١ ، ٤ : ١٠١ ، ٥ : ١٥٢ معجم الادباء لياقوت طبعة

مرجليوت ، ٣٩ بغية الوعاة للسيوطي .

الباب الثاني



الفصل الأول

حياة الزمخشري

البيئة التي نشأ فيها وعاش الزمخشري

— ١ —

والقد نشأ وعاش الامام الزمخشري في خوارزم ، وخوارزم هي — كما يرى كثير من الباحثين^(١) — كانت منذ قديم ذات أهمية في تقدم الحضارة في آسيا الوسطى ، وقد جعل « البيروني » تاريخ قيام أقدم مدنية في خوارزم عام ١٢٩٢ ق. م. ويشير البيروني إلى أن قتيبة بن مسلم في فتحه لهذه الأقاليم قد قضى على مظاهر الحضارة القديمة الثقافية لخوارزم ، فأباد كتابها وقتل هرايرتها « الكهان » وأحرق الكتب والمؤلفات الخوارزمية ، وبذكر كذلك البيروني أن خوارزم حتى القرن الثامن الميلادي ، قد ازدهرت فيها الثقافة الإيرانية ، ويقول أن : « أهل خوارزم . . كانوا غصنا من دوحة الفرس »^(٢) .

ويشير الجغرافيون والرحالة العرب ، إلى خصب اقليم خوارزم ، فيقول القدس : « هي كورة جليلة واسعة كثيرة المدن عمدة العمارة ، لا تنقطع منها البساتين والمنازل ، كثيرة المعاصر والمزارع والشجر والخيرات ، مفيدة لأهل العجارات »^(٣) .

ويقول في معجم البلدان^(٤) « كنت قد زرت خوارزم عام ٦١٦ هـ فما رأيت ولاية قط أعمر منها ، فانها ، على ما هي عليه من رداءة أرضها وكونها سبعة كثيرة النور - متصلة العمارة مقاربة القرى كثيرة القصور

(١) دائرة المعارف الاسلامية . مادة خوارزم .

(٢) الاثارة الباقية ، للبيروني ص ٣٦ إلى ٤٨ ط أوروبا .

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - للقدس ص ٢٨٤ ط أوروبا .

(٤) معجم البلدان - لياقوت - ج ٣/٤٧ ط السادة القاهرة .

في صحاريها ، قلما يقع نظرك في رساتيقها على موضع لا عمارة فيه ، هذا مع كثرة الشجر بها والغالب عليه شجر التوت والخلاف ^(١) لاحتياجهم اليه لعمائرهم وطعم دود الابرسم ولا فرق بين المار في رساتيقها كلها والمار في أسواقها ، وما ظننت أن في الدنيا بقعة سمعتها سعة خوارزم ، مع أنهم قد مروا على ضيق العيش والقناعة ، بالشئ اليسير ، وأكثروا ضياع خوارزم مدن ذات أسواق وخيرات ودكاكين وفي النادر أن تكون قرية لا سوق فيها ، مع أمن شامل وطمانينة تامة ، الشتاء عندهم شديد جداً بحيث أنى رأيت جيحون نهرهم وعرضه ميل وهو جامد والقوافل والعجل الموقرة ذاهبة وآية عليه ، ومن أهل خوارزم أغنياء مترفون . . ويصفهم ياقوت أيضاً بالافتقار وبعدهم عن النظافة ، ويصف أجسامهم بالطول والفضامة ، وعرض الرأس وسعة الجبهة .

ويذكر أن بلاد خوارزم واسعة وأهلها علماء وفقهاء ، أذكىاء والذين ينسبون إليها من الأعلام لا يحصون ، وأهلها سنيون ^(٢) .

وينقل الزمخشري في كتابه « ربيع الابرار » ^(٣) عن أبي سمعة الكاتب عن خوارزم أنها نفر من نفور الاسلام الذي ينشأ عليه أبناؤها وأنه يكتنفها أهل الشرك والوثنية من جميع حدودها وتطيف بها قبائل الترك . ومن ثم تكثر الحروب والخصومات بين الترك وبين شعب خوارزم وكثيراً ما يكون للخوارزميين النصر في عامة الأوقات .

ويصف ابن بطوطة أهل خوارزم ، بأنهم أهل دين وتقوى ويذكر

(١) هو شجر الصفصاف .

(٢) معجم البلدان لياقوت - ج ٣ : ٤٧٥ ط السعادة القاهرة .

(٣) ربيع الابرار - الزمخشري - الباب التاسع - مخطوط دار الكتب .

أن لهم عادة جميلة في الصلاة ، ليست لغيرهم وهي أن المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم ، على دور جيران مسجده (١) .

ويذكر المقدسي أنهم أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وأدب (٢) ويشير الزمخشري في كتابه « ربيع الأبرار » إلى أن مذهب المعتزلة كان ذا نفع في خوارزم ، ويمده رأس فضائلها (٣) ، ويشير المقدسي في أحسن التقاسيم (٤) إلى أن أهل خوارزم في الفقه بالازمون مذهب الإمام أبي حنيفة ...

وسكان إقليم خوارزم ، كانوا في الأغلب مزيجاً من العرب والفرس والترك ، ولشكثرة حروبهم شيدوا القلاع والشكنات العسكرية ، داخل المدن وكان كثير من سلاطين خوارزم يعرفون مع الخوارزمية التركية ، وبعضهم كان يعرف العربية والفارسية (٥) .

وكانت صلة السلاطين بخلافة بغداد ، صلة مودة وطاعة احقراما لعنصر الدين ورغبة في تحقيق أطماعهم السياسية ، وقد ساءت هذه العلاقات في عهد السلطان علاء الدين خوارزمشاه (م ٥٨٦ - ٥٩٦ هـ) الذي اعتنق المذهب الشيعي وعمل على إزالة الخلافة العباسية من بغداد ، وإحلال الخلافة العلوية مكانها ، ومن ثم جمع رجال الدين في بلده في جمع عام وانتزع منهم إقراراً بشرعية عزل الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، لأنه ليس أهلاً

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٣ : ص ٤٥ .

(٢) أحسن التقاسيم - المقدسي - ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ ط أوروبا .

(٣) ربيع الأبرار للزمخشري ... الباب التاسع ... مخطوط دار الكتب .

(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم المقدسي ... ٣٢٢ ط أوروبا .

(٥) سير جلال الدين المنكبرتي - للنسوي - ص ٥٠ ط القاهرة .

للمخلاة ، وقد أوعز علاء الدين إلى الفدائيين الاسماعيليين الخوارزميين بقتله وقطع اسمه من الخطبة وانتخب شخصية علوية من « ترمذ » اسمه « علاء الملك » وخطب باسمه على المنابر ، وصك الصكوك باسمه (١) ولعل غزو علاء الدين لبغداد عام ٥٩٦ هـ كان لنفس الغرض (٢) .

وقد اقتبس الخوارزميون النظام الادارى ونظام الحكم فى بلادهم من السلاجقة وتسموا باسم السلاطين وكان لهم دواوين : المالية ، والجيش ، وكان من الوظائف الكبيرة عندهم : « مشرف المماليك » ويتولى النظر فى أمور الرقيق ، و « الطست دار » وهو الأمين على الملابس والنظافة و « بيت الركاب » وهو موضع خيول السلطان ، ووظيفة « مقدم الجاوشية » وهو أقرب إلى رئيس الحرس الخاص ، ومن الوظائف فى قصور السلاطين أيضا « السليدار » أى محافظ الأسلحة ، وكان نظام الحسبة معروفا عندهم وفق الشريعة الاسلامية وكانت قصورهم مثالا للترف (٣) .

ونفهم التقسيم الادارى لخوارزم ، مما ذكره المؤرخون من أن علاء الدين خوارزمشاه قسم دولته بين أولاده الأربعة وفق التقسيم الآتى :

١ - الركن الشرقى من الدولة الخوارزمية - حيث مدينة - غزنة - باميان - الواقعة فى أعالى جيحون . وبلاد حوض نهر السند ، وكان من نصيب جلال الدين المنكبرى .

(١) تاريخ الدولة الخوارزمية والمنول - حافظ أحمد حدى ص ٣٨ ط القاهرة .

(٢) الكامل لابن الاثير ١٢ ج : ص ٧٣ .

(٣) سيرة جلال الدين المنكبرى - للنسوى ص ١٣٣ ، ١٣ ، ٢٣ ، ١٩٢ ، ٢٤٧ .

- ٢ — الأقاليم الشمالية الخوارزمية : وتشمل : خوارزم ، وخراسان ، ومازندران ، وكان من نصيب قطب الدين ازلاغشاه .
- ٣ — الأقاليم الجنوبية للدولة الخوارزمية وتشمل : كرمان ، ومكران وكانت من نصيب غياث الدين شيرشاه .
- ٤ — الأقاليم العربية للدولة الخوارزمية وتشمل : العراق العجمي وكانت من نصيب ركن الدين غورشاه ^(١) .

— ٥ —

أما زرخشر التي ولد ونشأ فيها الزرخشري فهي قرية صغيرة في نواحي خوارزم ، ذكرها الزرخشري فقال : أما المولد فقريبة من قرى خوارزم مجهولة يقال لها زرخشر ^(٢) .

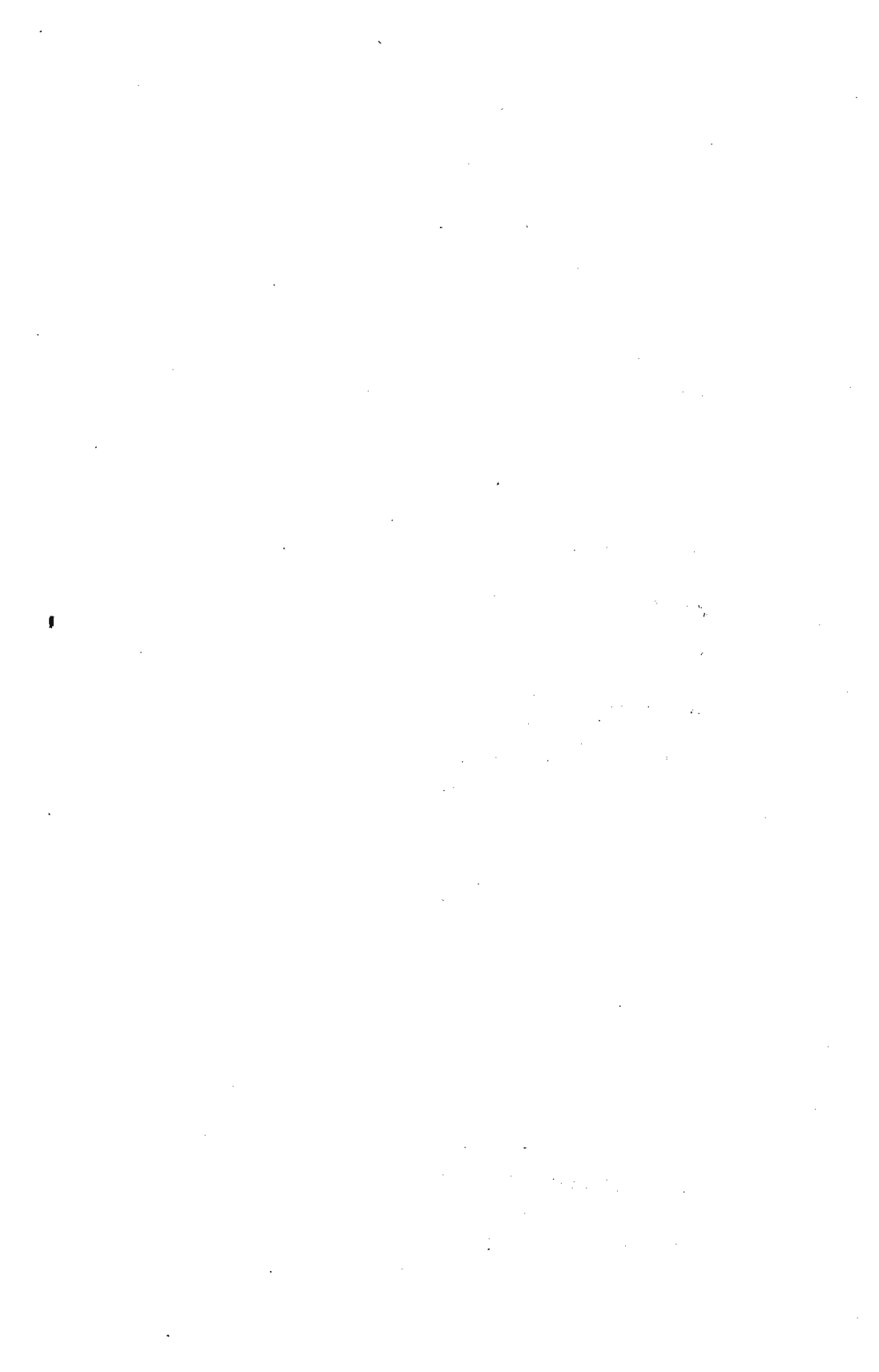
ولا نعرف لزرخشر شأننا في التاريخ . وهي كما يحدثنا الجغرافيون تقع على أربعة أميال من خوارزم فهي ضاحية من ضواحيها ^(٣) وقد زارها ابن بطوطة الرحالة وكانت حينذاك عامرة ^(٤) .

(١) تمة المختصر في أخبار البشر — لابن الوردي ٢ ج / ص ١٥٤ .

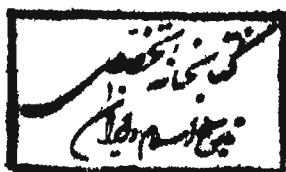
(٢) معجم البلدان لياقوت ٤ ج : ص ٤٠٠ ط السادة ووفيات الاعيان لابن خلكان ج ٢ ومعجم الادباء — لياقوت ١٩ ج — ص ١٢٦ ط الرفاعي .

(٣) أحسن التقاسيم — للمقدسي ص ٢٨٤ ط ليدن .

(٤) رحلة ابن بطوطة ص ٢٩٨ ط المعارف .



الفصل الثاني
ميلاد الزمخشري ونشأته





أسرة الزمخشري :

كانت أسرة الزمخشري ، أسرة مشهورة بالتقوى والصالح محافظة على أداء شعائر الدين ، وبذكرها الزمخشري نفسه في شعره ، فيقول في وصف الراح (١) :

هات التي شبت ظلماً بشمس الضحى

لو عارضتها لغطتها بأشراق

أستغفر الله أنى قد نسبت بها

ولم أكن لحيها بذواق

ولم يذقها أبى قبلا ولا أحد

من أسرتى واتفاق الناس مصداق

ويحدثنا الزمخشري عن والدته وحنانها وشفقتها حتى بالطيور وأنها

نهرته وهو طفل حين رأته يجر رجل عصفورة من عشاها ، ليأكل بها وقد

ازداد ، ألمها حين رأته يقطع رجل العصفورة ، فدعت عليه بأن يقطع الله

رجله (٢) .

أما والده الشيخ عمر بن محمد بن أحمد الزمخشري فلا نعرف عنه

كثيراً ، ولم يعطنا الزمخشري نفسه معلومات كثيرة عنه .

إلا ما ذكره من أن مؤيد الملك (م ٤٩٤ هـ) سجنه وربما كان ذلك

(١) مخطوط ديوان الزمخشري ورقمه ٨٥

(٢) وفيات الأعيان - لابن خلكان ٢ ج : ص ١٠ ، مفتاح السعادة بطاش كبرى

زاده ٣ ج : ٤٣٣ .

لأسباب سياسية ، ومؤيد الملك هذا يصفه ابن الأثير « بأنه كان سيء السيرة »^(١) ، يظن أنه مات في سجنه ، وكان من أهل الفضل والعلم وكان كذلك عالم زمني ، ويصف الزمخشري علمه وتقواه وورعه وقليل حظه من حطام الدنيا في مراثيه له ، نعى بها أباه فيقول :^(٢)
 فقدته فاضلا فاضت مآثره

العلم والأدب المآثور والورع
 أخا طباع مصفاة مناسبة
 ماء السحابة ما في بعضها طبع
 وذا حقائق لا في لحظة طلب
 لغير رشد ولا في لفظه قذع
 لم يأل ما عاش جدا في تقاه يرى
 أن الحريص على دنياه منخدر
 صام النهار وقام الليل وهو شج
 من خشية الله كأبى اللون ممقع
 من المروءة في علياء متسع
 صدرا وان لم يسكن في المال متسع
 قريب عهد بوخط الشيب عارضه

أثر الشباب ووجف الليل متبع
 ولا شك أن الزمخشري تعلم أول ما تعلم في الثقافة الإسلامية على والده وأنه ورث علمه وفضاء وأخذ عنه شمائله وآدابه .

(١) تاريخ الكامل لابن الأثير ١٠ ج ص ١٠٥ .

(٢) مخطوط ديوان الزمخشري ورقة ٧٢ .

ويظهر أن والده مات وهو بعميد عنه لأن الزمخشري رحل من قريته إلى المدينة لطلب العلم والوالد يتألم بألم الفراق ولذعته ولكنه تحمل ذلك كله رغبة في تهذيب ابنه وتعليمه ، فان الزمخشري يقول من القصيدة السابقة نفسها (١) :

وان ممـا قرانى حمرة وأسى

وضافنى الكرب من جراه والوجع

ان عاقبى شحط دار عن تفقده

حتى مضى وهو من ذكراى ملتذع

يا حسرتا أننى لم أرو غلته

وغلنى بزمان فوهه بمجموع

ثم يعدثنا عن جماعة من أسرته وأقاربه تخطفهم الموت واحدا بعد آخر:

ما للفوائب لا ينفك ديدنهـا

غنى وهجيرها قهرى وإذلالى

أودت بيمدى وما أبقت أخى وطوت

عمى وصادت بأسباب الردى خالى (٢)

ويرثى خالا آخر بقوله :

يا خير خالين لى بـعد فقد كما

من لوعة وأسى فى شر حالين

وإن فرقة خال واحد حطمت

ظهرى فكيف إذا فارقت خالين (٣)

(١) مخطوط ديوان الزمخشري ورقة ٧٢ .

(٢) مخطوط ديوان الزمخشري ورقة ١٠٠ .

(٣) مخطوط ديوان الزمخشري ورقة ١١٤ .

ونحن لا نجد من المراجع ما يميننا على تحقيق نسب أسرته ولا نعرف هل هي عربية أو فارسية .
والعموض الذى أحاط بأسرة الزمخشري هو عينه الذى يحيط بنشأته العلمية ...

— ٢ —

مولد الزمخشري :

ولد الامام جابر الله الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن أحمد في زمخشري في شهر رجب عام ٤٦٧ هـ - ١٠٧٥ م (١) .
نشأة الزمخشري :

ولد ونشأ الزمخشري في قرية الصغيرة « زمخشري » ولا شك أنه بدأ يتعلم مبادئ القراءة والكتابة ويحفظ القرآن الكريم في قرية وهو بين والديه ، وعندما وصل إلى سن التعليم أصابه داء أقعده عن ممارسة الحياة كما كان يتمنى هو ، ويتمنى له أبوه ، فأصبح زمنا مبتلى وكان يعاني أشد الآلام من ذلك لأن الداء أقعده عن بغيته وآماله ، كان أبوه عالم بقرينه ومن ثم كان لا يصح أن يصبح ابنه « وهو العالم الصالح » جاهلا بأمور الدين ، وشاء له الله أن يسلمه أبوه إلى خياط ليعلمه ، ولكن الطفل الصغير كان أوسع أفقا فلم تطمئن نفسه إلى هذه الصنعة الصغيرة ، ولم يطق أبوه أن تقع عينه عليه وهو يعمل في الخياطة ، وحطم الولد القيد وأخذ يفكر في المستقبل العظيم الذى ينتظره . وأخذ يطلب من أبيه الذى يفهم ابنه ويلمس شعوره أن يرسله إلى البلاد لكي يحقق آماله ، ولكن الأب لم يطق فراق

(١) راجع بغية الوعاة للسيوطي ص ٣٨٨ ، تزهة الالباء للابنباري ٤٦٩ ، معجم الادباء - ربحانة الادب ، كشف الظنون - أنباء الرواة للقفطي ، وفيات الاعيان - ابن خلكان ٢ ح : ١١٠ .

ابنه وخروجه من القرية ، وألح الابن عليه أن يأخذه إلى المدينة ويتركه فيها هو وشأنه وأخذ يقول له « احملني إلى البلد واطركني فيها » فأخذ الأب يعد ابنه للسفر ووصى عليه معارفه وأسلمه إلى الحياة ليلقى فيها ما قدر له ^(١) ، وروى ابن خلصكان (انه لما بلغ سن الطلب رحل إلى بخارى لطلب العلم) ^(٢) وبخارى منذ العهد الساماني كما يصفها الثعالبي « كانت في الدولة السامانية مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء الدهر » ^(٣) .

* * *

ونعرف كذلك عن طفولة الزمخشري أن رجله قد قطعت وهو صغير ولا نعرف سبباً لقطع رجل هذا الطفل الصغير الفاشيء ، وقد رويت لذلك أسباب مختلفة ، قيل أنه كان اسبب البرد ، وقيل بسبب جرح أصابه في رجله ، ويقال أنه سقط عن دابته ، أو عن السطح في صغره فأصيب بجروح أدت إلى قطعها ^(٤) ، وربما كان هذا هو السببان الذي حبسه عن الانطلاق وراء بقيقته ، وهو فتى أخضر المود ، وهناك حديث آخر مرمع الفقيه الدامغانى ^(٥) عندما سأل الزمخشري عن سبب قطع رجله فأجابه بأنه سقط من الدابة فقطعت رجله بسبب دعاء والدته عليه ، ويقول ابن خلصكان « انه كان

(١) الجواهر المضيئة — لابی الوفاء القرشى ٢ ج : ص ١٦١ والعقد الثمين للفاسى ورقة ٣٠ مخطوط دار الكتب .

(٢) وفيات الاعيان — أبى خلصكان — ج ٢ : ١٠٧ .

(٣) بتيمة للدهر للثعالبي — ج ٤ : ١٠١ .

(٤) وفيات الاعيان — أبى خلصكان ٢ / ٥١٠ مجمع الادباء ج ١٩ بنية الدعاة

للسيوطى .

(٥) وفيها الاعيان ٢ / ٥١٠ مفتاح المعادة بطاش كبرى زاده ٤٣٣ / ١

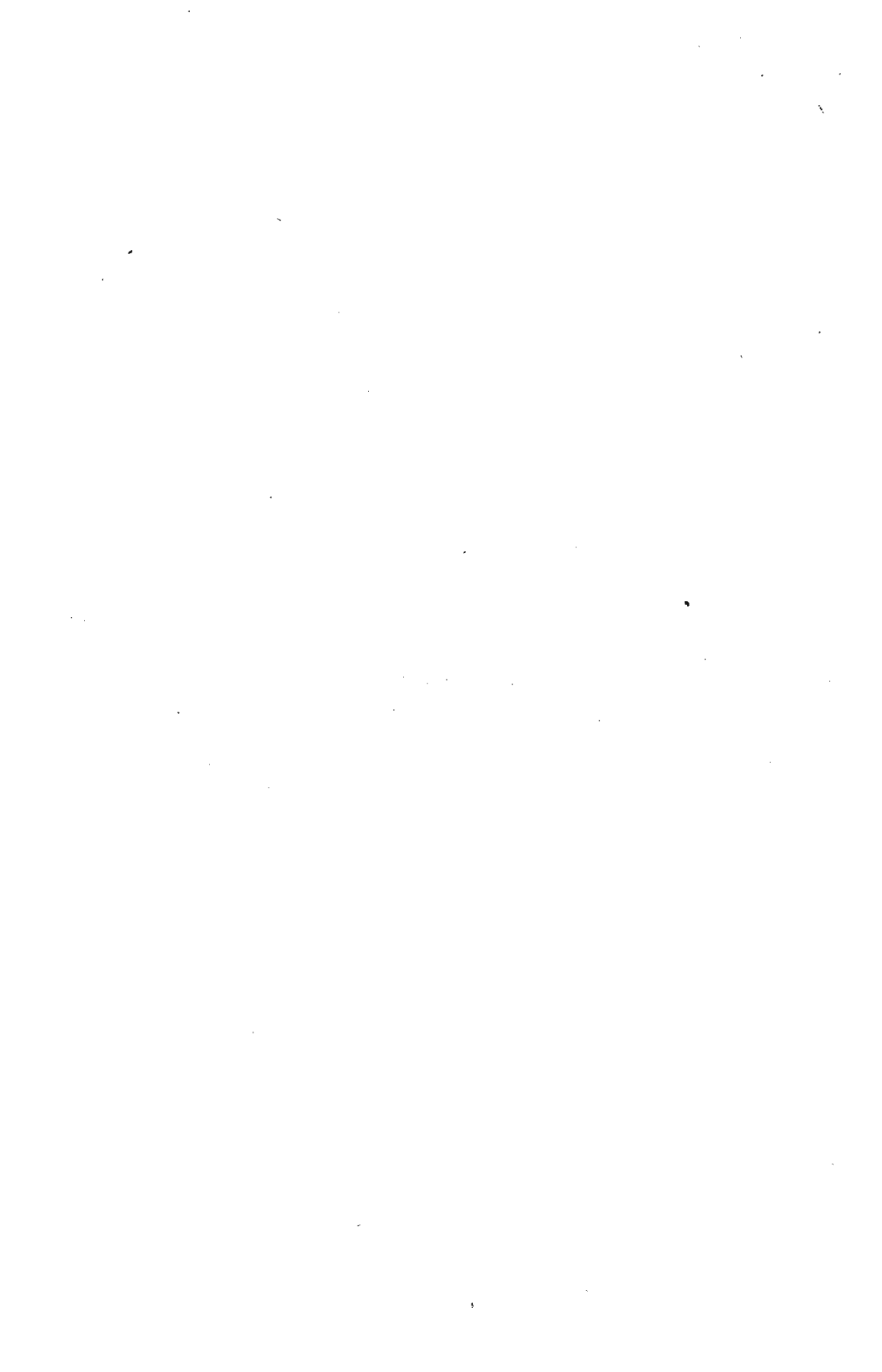
يستصحب معه شهادة أناس كثيرين ممن اطلعوا على حقيقة الحال خوفا من أن يظن من لم يعلم حقيقة الحال أنها قطعت لريبة ^(١) .

وانى لأعجب كيف ذكر بن خلكان هذا الكلام ؟ دون أن يذكر لنا ما هى الريبة التى كان يمكن أن توجه اليه ؟ واعةقد أن مجال الشك واسع أمام هذا الكلام ؟ ما الريبة التى كانت تقبه نحو الزمخشري ، وهل كان الزمخشري مريبا أو متهما فى كلامه إلى حد يحمله على التعلق بأذبال شهادة خلق كثيرين ليشهدوا له ؟ وهل كانت توقيعات الناس بشهادتهم تدفع عنه تهمة شائعة أو ريبة محتملة ؟ وهل وصل مطاف القصاص به إلى قطع رجله ؟ دون أن يعرج على يده اليمنى ثم اليسرى ؟

هذه الشكوك مع ما نعرفه عن الزمخشري تجعلنا نشك فى قيمة هذا الكلام ، وتدفعنا إلى أن لا نتخرج من انكار هذا الحادث .

الفصل الثالث

حياته العلمية وأساتذته



قضى الزمخشري حياته الأولى في زمخشر حيث تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وتلقى قليلا من الثقافة الإسلامية على يد والده .

وبالحاح من الطفل الصغير على والده ذهب به إلى المدينة «خوارزم» أو «بخارى» ليقضى فيها فترة من فترات حياته المرهقة المسكودة وهو طفل ناشئ بكافح من أجل تزويد نفسه بالثقافة الإسلامية الواسعة ومن أجل مستقبله الذي كان يتمناه أن يكون مستقبلا حافلا عظيما مثل : مستقبل العلماء الأفاضل الذين طالما سمع بهم وقرأ لهم ..

وفي خوارزم أقبل على حلقات العلم وشيوخ الدين وعلى منابع الثقافة مجدا في التحصيل مكبا على الحفظ والقراءة مقبلا على ما رأى بثاقب فصره وبعميد نظره ، أنه أجدى له في دينه ودنياه .

ويبدو أن الفتى الزمخشري غاش في كنف أصدقاء والده في خوارزم - في رأى - أو بخارى - في رأى آخر - في رعايتهم وكان والده مشجعا ومؤازرا له^(١) .

وفي هذه المدينة قضى الشباب الفتى من عمره زمنا غير قصير نهل فيه من منابع الثقافة ما استطاع من علوم عصره على أيدي جلة من الشيوخ . وبعد قليل كان قد ألم بكثير من أصول الفقه والحديث ، والتفسير ،

(١) الجواهر المضيئة - لابی الوفاء القرشي ١٦١/٢ - المقد الثمين - لفاسي ورقة

والتوحيد ، والمنطق ، والفلسفة وشتى علوم الدين والعربية وأصبح يشار إليه بالبيان من بين لداته وأنرا به .

ولكن الفقى الشاب على الرغم من فقره وعاهته أبى إلا أن يسير فى تحصيل الثقافة على المنهج الذى كان يسير عليه غيره من الشباب الطامعين والعلماء المحصلين ، فأخذ ينتقل بين الامصار والأقطار طالبا للعلم ويتحمل أعباء السفر بين بلد إلى بلد ، ثم قلة الزاد وأخطار الطريق ، فتردد على نيسابور ، ومكث فيها زمنا وقابل فى هذه المدينة ، الفقيه الدامغانى الذى سبق أن ذكرناه^(١) ، ثم ذهب إلى بخارى وخراسان^(٢) وفى أهل خراسان يقول^(٣) :

شهدت من أهل خراسان ما

ليس يوازى بعض مشهوده
وقد مدح بخراسان ، جماعة من أصحاب الدولة والنفوذ منهم ، مجير الدولة أبو الفتح على بن الحسين الاردستانى نائب تاج الدولة فى ديوان الطغراء والانشاء فى عهد السلطان أبى الفتح ملكناه^(٤) وكذلك مدح فيها ، مؤيد الملك عميد الله النظام ابن نظام الملك الذى تولى ديوان الإنشاء أيام أبى الفتح ملكناه^(٥) . ثم رحل الى اصفهان مقر السلطان السلجوقى

(١) بنية الوعاة - للسيونى / ٣٨٨ ط الاولى

(٢) معجم الادباء لياقوت : ١٩ ج : ١٥٦ ط رفاعى - وفيات الاعيان - ابن

خلكان - ٢ / ١٠

(٣) ديوان الزمخشري ورقة : ٤١ مخطوط بدار الكتب

(٤) تاريخ آل سلجوق ، للمماد - ص ٥٨ ديوان الزمخشري ورقم ٢٣ مخطوط

(٥) نفس المصادر السابقة

محمد بن أبي الفتح ملكشاه (م ٥٢١ هـ)^(١) ومدحه بقصائد بليغة ومما قال فيه^(٢) :

محمد بن أبي الفتح الذي تركت
أوصافه لـكنة في كل منطق
ابن السلاطين من أبناء سلجوق
وابن الغطارف منهم والغرائيق
لله من عادل من حق سيرته
ونصرة الحق أن يدعى بفاروق
مستوجب من جموع الشرك مبغضة

محبب في بني الإسلام مرموق
ومن المدن التي زارها - مرو - وقد لقي فيها الامام السمعاني^(٣)
وطاف بكثير من مدن خوارزم وخراسان - محصلا للعلم ومجالسا
للعلماء ومناظرا لآقرانه ، ونستطيع أن نحدد تاريخ هذه الفترة من حياته ،
وهي الفترة العلمية الأولى التي عاشها الزمخشري بكل مواهبه وقواه وآماله
ما بين عام أربع مائة وتسعة وسبعين إلى أربع مائة واثنتين وتسعين أى منذ
إن كان في العاشرة إلى أن بلغ الخامسة والعشرين من عمره .

وفي هذه الفترة ونحو عام ٤٨٨ وهو في الحادية والعشرين من عمره
توفي والده الذي طالما شمله بعطفه ورعايته ، وقد وشى الوشاة بوالده

(١) تاريخ الكامل لابن الاثير . ج : ١٨٤ ، ١٨٥

(٢) ديوان الزمخشري ورقة ٨٦ . وقد مرت في فصل الحياة السياسية .

(٣) الانساب للسمعاني ص ٢٧٧ .

إلى كافي الكفاة مؤيد الملك الذي كان يتولى رياسة دوواين السلاجقة
(وتوفي عام ٥٤٩٤) وأدى ذلك إلى حيث مكث فيه بضع سنين وقد
استعطف الشاب مؤيد الملك بقصائد كثيرة ليطلق سراح والده ويعيده إلى
وظيفته حفظاً لأسرته وأطفاله البائسين ومن هذه القصائد قصيدته التي يقول
الزمخشري فيها (١) :

آ كفى الكفاة مؤيد الملك

ارحم أبى لشبابه ولفضله
خضع الزمان لعزه وجلاله

ارحم اسيرا لورآه من العدى
وارحمه للضعفاء من أطفاله

ماأطول الليل الذى يفتيه فى
اقسامهم قلبا لرق لحاله

سهد وأطول منه ايل عياله

وأخذ الشاب كذلك ينظم قصائد كثيرة فى شكوى الزمان
وصروف الأيام، ويبدو من قصائده هذه ، القلق والحيرة والاضطراب
النفسى الذى كان من أقوى أسبابه فقره وانقطاع المعونة .

وبعد قليل مات والده فى السجن ولاشك أن ذلك كان مصدر حزن
عميق لابن الشاب وللأسرة المنكوبة وقد رثاه الزمخشري فبكاه أحر
بكاء وقد أشرنا آنفا إلى نبذ من مرثيته فيه (٢) .

(١) ديوان الزمخشري ورقة / ٩٧

(٢) ديوان الزمخشري ورقة ٩٧

ونحن لانعرف شيئا كثيرا عن أساتذة الزمخشري في هذه الفترة ، ومع ذلك قد نستطيع أن نرسم صورة واضحة بقدر الامكان ووفق ماتهدينا إليه المراجع لشيوخه في حياته العلمية الأولى وفي عهد شبابه .

ولقد كان القسط الأوفر من مواهب الزمخشري وملايكاته ، وشهرته العلمية ، وتفوقه في علوم الدين راجعا إلى شيوخه ، ورجال العلم ، والأدب الذين تخرج الزمخشري على أيديهم فأن علم الأسقاذ وإخلاصه ونبل التلميذ وتلفه على العلم ، جديران بأن يهيئا الجو المساعد لنضوج مواهب الزمخشري وملايكاته .

لم يستقر الزمخشري كما نعرف طول حياته في بلدة معينة ولم يقتنع بشيوخها وعلمائها ، بل كان يجوب البلاد والأقطار ليرى رجالات العلم ويجلس بين أيديهم في خضوع وخشوع وصبر وإيمان ، حتى يرتوى من منابع علمهم ، ثم يذهب إلى بلدة أخرى وهكذا ومما يدل على تفانيه في طلب العلم ونشوقه إليه ، أنه لم يقف عن طلب العلم يوما من الأيام بل كان حتى في شيخوخته واستاذيقه لا يرى أية غضاضة في أن يتعلم مثلا على ابن وهاس ويتبادل هو وإياه العلوم ، أو على أبي منصور نصر في مصر^(١) فان الزمخشري كان يأخذ منه علم الأدب وهو يأخذ من الزمخشري التفسير .

(١) تاريخ ابن خلكان - ١٠٧/٢ وطبقات الحنفية القاسم بن قاطوبلوغا ص ٥٣ ط أوروبا .

ومن شيوخ الزمخشري واساتذته :

١ — محمود بن جرير الضبي الاصفهاني (أبو مضر) (م ٥٠٧ هـ)
أخذ الزمخشري عنه الأدب ، وعلم الأعراب ، وعلم الكلام والتوحيد ،
وتأثر بمذهبه الاعتزالي ، ومذهب بمذهبه ، وكان يلقب بفريد العصر وكان
صاحباً لنظام الملك الطوسي وقد تخرج على يده كثير من العلماء والفعول
وادخل مذهب المعتزلة في خوارزم ، وكان يقيم في خوارزم وتوفي « بمرسو »
— عام (٥٠٧ هـ) وقد رثاه الزمخشري بقوله :

وقائلة ماهذه الدرر التي

تساقطها عيناك سمطين سمطين

فقلت هو الدر الذي قد حشا به

أبو مضر أذن تساقط من عيني^(١)

٢ — الشيخ أبو علي الضرير وكان عالماً ومتبحراً في فنون الأدب
والنحو وعلوم الأعراب وأخذ الزمخشري منه علوم الأدب^(٢) في خوارزم .
٣ — الشيخ السديد الخياط أخذ عنه الفقه^(٣) .

٤ — أبو السعد المحسن بن محمد بن كرامة الجشمي البيهقي —
(٤١٣ — ٤٦٤ هـ) . وكان معتزلياً زيدياً وقال القاضي الحافظ : هو
شيخ الإمام الزمخشري وله تفسير كبير يميز عن سائر التفاسير بالترتيب
والتنسيق ويعرف باسم « القهذيب » وقد قيل أن تفسير السكشاف من

(١) مجمع الادباء — لياقوت — ١٩ ج / ١٢٤ = بنية الوعاة ص ٣٨٦ نسخة صوان
الحكمة ١٣٥ ط أوروبا .

(٢) طبقات الحنفية لفاطم بن قطلوبغا ط أوروبا ص ٥٣

(٣) فتاح السعادة — لبطاش كبرى زاده ج ١ / ٣٣٣

هذا التفسير بزيادة تعقيد^(١).

٥ — ركن الدين محمد الأصولي ، وقد أخذ الزمخشري عنه علم الأصول وأخذ هو عن الزمخشري التفسير^(٢).

ويذكر بعض التراجم ، مثل ، ياقوت في معجم الأدباء والسيوطي في البنية ، وصاحب مفتاح السعادة أن الزمخشري تعلم على يد الشيخ الحسن بن مظفر النيسابوري الضرير وهذا سهو واضح ، فقد توفي الحسن عام ٤٤٢ هـ بينها ولد الزمخشري عام ٤٦٧ هـ^(٣).

ومهما كان ، فقد كان لهذه الفترة الحافلة من حياة الزمخشري أثر كبير في مستقبله وتفكيره ومواهبه^(٤).

١ — في هذه الفترة نضج عقله واستحكمت ملكاته وقويت ملكاته ووضحت شخصيته .

٢ — وفي هذه الفترة كذلك حصل الكثير من علوم الإسلام والعربية وطارت شهرته فيها وتصدر حلقات التدريس لأفراد الطلاب والمتعلمين .

٣ — وفي هذه الفترة كذلك اتصل بالكثير من العلماء والأدباء وذوى الفضل وجاب الأمصار في خوارزم وخراسان ومرو وبخارى وأصفهان يجلس في حلقات علمائها وأدبائها مستفيدا ومناقشا وموجها .

(١) الفصд الحسن طبقات الزيدية الكبرى

(٢) الفوائد البهية لعبد الحى اللكنوى ص ٢٣٢

(٣) معجم الادباء لياقوت ١٦٢/٩ مفتاح السعادة ٤٣١/١ بنية الرعاة للسيوطي .

(٤) معجم الادباء لياقوت ١٩٢/٩ مفتاح السعادة ٤٣١/١ بنية الرعاة للسيوطي .

٤ - وكذلك نبغ في الأدب نثره وشعره وعرف بالشعر ونظم
الكثير من القصائد في وصف حياته وبؤسها وفي شكوى الزمان وصروفه
وفي مدح اساتذته ومن اتصل بهم من قريب ، وقد سبق أن أعطينا صورا
من شعره في هذا المجال ، ومنه مراثيته لوالده .

٥ - ولا شك أن الزمخشري بدأ التأليف في هذه الفترة ولا نعرف
ببعض الكتب التي ألفها آنذاك .

الفصل الرابع

رجولته و كهولته

وقفنا بالزمخشري عند المرحلة الأولى من حياته حيث اكتملت مواهبه وتألفت شهرته ، وذاع صيته ، في أندية الأدباء والعلماء .
وبدأ الزمخشري من ذلك الحين يدخل في طور جديد من أطوار حياته الحافلة المديدة ، هو طور الرجولة الذى يتسم بأنه طور الصلات الاجتماعية والاتصال بمختلف طبقات المجتمع في حياة هذا الرجل الكبير ، فقد أخذ الامام الزمخشري ، يقد إلى الأمراء والوزراء ، وكبار رجالات الدولة آخذاً منهم ومعطياً إياهم ، يأخذ منهم الصلات والهبات ويعطيهم الفوائد والقلائد ، وكان يعطى أكثر مما يأخذ ، وقد أشار إلى هذا المعنى في شعره حيث يقول^(١) :

إن قيل لى ما أكثر المدح الذى
تعنى بها فجواب ذلك القائل
ما الشأن فى مدح أقول كثيرة
الشأن فى منح أنال قلائل

وترى ديوان الزمخشري مملوا بالمدح والثناء لأصحاب النفوذ والسلطان كالسلاجقة والخوارزمية ، ووزرائهم وولاتهم وقضائهم ، وقد سبق أن ذكرنا طائفة من الملوك والوزراء الذين اتصل بهم الزمخشري ومدحهم .
وفى هذا العاور من حياته أكثر من الرحلة والانتقال يدفعه إلى ذلك

رغبته في الاستفادة والإفادة ولقاء العلماء ، ومن لقيهم وأخذ منهم في هذه الفترة :

- ١ — أبو بكر بن طلحة بن عبد الله اليا برى الأندلسي (م ٥١٨هـ)^(١) ، يقول أبو حيان : « أن الزمخشري رحل من خوارزم إلى مكة قبل عام ٥٢٠هـ ، لقراءة كتاب سيبويه والرد على ابن حزم على رجل من أصحابنا من الإندلس وكان مجاورا بها عالما بالكتاب وغيره^(٢) » .
- ٢ — أبو منصور بن الجواليقي : الملقب بشيخ الإسلام يروي ، القفطي عن الكندي تلميذ الجواليقي « قدم علينا بغداد سنة ثلاث وثلاثين وخمسائة رأيت عند شيخنا أبي منصور ابن الجواليقي مرتين قارئاً عليه بعض كتب اللغة من فوائدها ومستعجزاتها لأنه لم يكن على ما عنده من العلم لقاء ولا رواية » وكان الجواليقي أماما في فنون الأدب ودرس في مدرسة النظامية بعد الخطيب القبري ، واختص بإمامة المفتي المقوف عام (٥٢٩ — ٥٥٥ هـ) وله تصانيف عديدة^(٣) .
- ٣ — أبو الحسن علي بن موسى بن حمزة بن وهاس بن أبي الطيب العلوي (م ٥٢٦ هـ) كان رجلا عالما فاضلا وكان من أهل مكة وأمرائها .
- ٤ — أبو نعيم الإصفياني ، أخذ الزمخشري عنه الأدب^(٤) .

(١) بنية الوعاة — للسيوطي — ٢٨٤

(٢) أزهار الرياض — للقاضي عياض ج ٣ ص ٧٧ ، طبقات المفسرين السيوطي ص ٤٩ ط أوروبا .

(٣) أنباء الرواة — للقفطي — ج ٣ / ٢٧٠ — معجم الأدباء ١٩/١٢٧ . بنية الوعاة ٤٠٩ نزهة الألباء — للاباري / ٣٢٠ ، وفيات الأعيان — ابن خلكان — ج ١ ص ٢٧٩ ط أوروبا .

(٤) أزهار الرياض — للقاضي عياض — ج ٣ : ٢١٩ معجم الأدباء ج ١٤ / ٨٦ .

وهذا الذى ذكرناه من شيوخه هم ما عدا الذين سمع منهم واستجازهم وقد سمع من أبى سعد الشافى وأبى سعد الخطاب نصر بن الطير (المطر) فى بغداد ، وغيرهما من الشيوخ^(١) .

كما تقلد عليه فى هذه الفترة كثيرون من الطلاب الذين أصبحوا فيما بعد أئمة الأدب واللغة وعلوم الدين ، وقد سمع عنه الحديث واستجازوه عدد كبير يذكر لنا السمعاني أنه . روى عن الزمخشري أبو الحسن إسماعيل بن عبد الله الطوبلى ، بطبرستان ، وعبد الرحيم بن البراز ، بابل ، وأبو عمر عامر بن الحسن السمار بزمخشرو وأبو سعد أحمد بن محمود الشاشى بسمرقند وأبو طاهر سمان عبد الملك الفقيه بخوارزم^(٢) .

وكان آخر الرواة عنه : أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمن الشعرى - (م : ٦١ هـ) وأجاز لأبى طاهر بركات بن إبراهيم الخشوعى ، والحافظ الطاهر بن محمد السافى^(٣) . وطلب منه الاجازة الأديب رشيد الدين الوطواط (م ٥٧٨ هـ) وجماعة سواهم^(٤) . وتقلد على يديه محمد بن أبى القاسم بايجوك أبو الفضل البقالى الخوارزمى وجلس بعده مكانه^(٥) ويعقوب بن على بن محمد بن جعفر أبو يوسف البلخى ، ثم الجندلى أحد أئمة النحوى

(١) مفتاح السعادة - بطاش كبرى زاده ١ / ٤٣٣ - معجم الادباء ١١ / ١٢٨

بنية - ٣٨٨ ط مصر شذرات الذهب لابن العماد ٤ / ١٢١ .

(٢) الانساب للسمعاني ص ٢٧٧ .

(٣) العقد الثمين - لفاسى - ج ٤ : ص ٣١ ، وتاريخ ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٢

ط ٥ مصر

(٤) رسائل الوطواط ط ص ٢٨ ط المعارف

(٥) معجم الادباء - ياقوت ج ١٩ : ص ٥

الأدب^(١) وأخذ العلم عنه : على بن محمد بن علي بن أحمد بن مروان
القمراني الخوارزمي أبو الحسن الأديب الملقب بحجة الأفاضل^(٢) وقرأ
عليه الموثق بن أحمد بن أبي سعيد إسحاق أبو المؤيد المعروف بأخطب
خوارزم^(٣) وكان ضليعا في الأدب وشاعرا فاضلا .

والامام أبو بكر الأزدي القرطبي نزيل الوصل وشيخهم —
(م ٥٦٧ هـ)^(٤) .

— ٣ —

وفي هذه الفترة رحل إلى مصر لطلب العلم^(٥) وكانت آنذاك في
حكم الفاطميين العلويين ، عامرة بمحلقات العلم والمدارس ، آهلة بالعلماء
والأدباء والشعراء ، زاخرة بنفائس المخطوطات وكتب الإسلام ولقى فيها
كثيرا من العلماء .

وكان الزمخشري لا يدخل بلدا إلا ويجتمع علماءها عليه ، يأخذون
عنه ويقبسون من نوره وسقفيدون من علمه^(٦) ويقول ابن خلكان :
« وكان أمام عصره غير مدافع تشد إليه الرجال في فنونه^(٧) .
ورحل إلى مكة المكرمة ، نحو عام (٥٠٢ هـ)

(١) معجم الأدباء ج ٢٠ : ص ٥٥

(٢) معجم الأدباء ج ١٥ : ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥

(٣) بنية الوعاة ص ٢٠١

(٤) مرآة الجنان — عفيف الدين اليمنى — ج ٣ ص ٣٨٣

(٥) طبقات الحنفية — لقاسم بن قطلوبغا ص ٥٣ ط ليدن

(٦) أنباء الرواة — للقفطي ٢٦٦/٣ ط دار الكتب

(٧) وفيات الاعيان لابن خلكان .

وأقام فيها مجاوراً بيت الله الحرام ، ولذلك لقب بجار الله ، ومن أجل ذلك يقول في ديوانه :

أنا الجار جار الله مكة مركزى ومضرب أوتادى وممقد اطنابى^(١)
ويصف الزمخشري نفسه حين الهجرة إلى مكة والعوامل التي اكتنفته وهو سائر إليها في إحدى قصائده فيقول^(٢) :

سيرى تماضر حيث شئت وحدنى

أنى إلى بطحاء مكة ———

حتى أنيخ وبين أطمارى فتى

للكمة البيت الحرام مجاور

معمود بالركن يدعو ربه

يشكو جرأثر بعدهن جرأثر

يشكو جرأثر لا يكأثرها الحمى

لكنها مثل الجبال كبائر

والله أكبر رحمة والله أكبر —

ثر نعمة وهو الكريم القادر

وأحق ما يشكو ابن آدم ذنبه

وأحق من يشكو إليه الغافر

فمسى الميمك بفضلله وبطولله

يكسو لباس البر من هو فاجر

(١) ديوان الزمخشري ورقة : ٦ مخطوط بدار الكتب رقم ١٠٢٤٢

(٢) ديوان الزمخشري ورقة ٤٣ .

يامن يسير في البلاد منقباً
أنى إلى البلد الحرام مسافراً
إن هاجر الإنسان عن أوطانه
فالله أولى من إليه بهاجر
وتجارة الأبرار تلك ومن يبيع
بالدين ديناه فنعم العاجر
تالله ما البيع الربيع سوى الذى
عقد التقي وكل بيع خاسر
خربت هذا العمر غير بقية
فلعلنى لك باقية عامر
وعهدنى فى كل شرا ولا
فلعلنى فى بعض خير آخر
فى طاعة الجبار آ بذل طاقتى
فلعلنى فيها اكسرى جابر
سأروح بين وفود مكة واحدا
حتى إذا صدروا فما أنا صادر
بفناء بيت الله أضرب قبتي
حتى يحل بى الضريح القابر
لقى العصا بين الخطيم وزمزم
لا يطيبنى أخوة وعشائر
ضييفا لمولى لا يخل بضيفه
ويبذل أقصى ماتمنى الزائر

حسبي جوار الله حسبي وحده
عن كل مفخرة يمد الفاخر
ساقيم ثم وثم تدفن أعظمي
ولسوف يبعثنى هناك الحاشر

وقد اتصل في مكة بالشریف الحسنى العلوى ، على بن حمزة بن وهاس
(م ٥٢٦ هـ) ، تقريبا ، وتمتع بمظنه وعطف امراء الأسرة الحسينية الحاكمة
وقد اهدى إلى هذا الأمير العلوى أكثر من مؤلف ، وفي بيت الله الحرام
ألف كتابيه : في النحو : « المفرد والمؤلف » و « محاحات ومقتم مهمام
أرباب الحاجات في الاحاجى والأغلوظات » واهداهما لأهل مكة حيث
يقول في مقدمة المفرد والمؤلف : « عملته الذوى السابقة والكرام من ساكنى
المحرم ^(١) » .

وفي أثناء إقامته بالحجاز زار اليمن ، ومدنها ، وبما زاره من المدن ،
همدان — حيث مدح ، هناك آل زرير ، وفي ذلك يقول ^(٢) :

كم قلت فى خوارزم عند ترحلى

لركائى : سبرى إلى همدانا

لو لم أقول سبرى إلى همدان —

همدت بنا فى سيرها همدانا

ولمى الكرام بنى زرير لم نزل

تجفو بفات غرير الأوطانا

(١) المقدم الثمين — للفاسى ج ٣ : مخطوط دار الكتب العربية ، ومفتاح السعادة ج

١ ص ٤٣٣ .

(٢) ديوان الزمخشري ورقه ١١١ .

وبنو زير ماتزر ثيابهم
الا على الهضبات في نهلاتنا

— ٣ —

وقد امتدت هذه الفترة في حياة الزمخشري نحو عشرين عاما ، إذ بدأت وهو في الخامسة والعشرين من عمره عام ٤٩٢ هـ وانتهت وهو في الخامسة والأربعين من حياته عام ٥١٢ هـ ، وفي هذه المرحلة عاش عيشة استقرار ورخاء بمكة ، وإن كان لم ينس وطنه الأول « خوارزم » ويبدو لنا من شعره أنه تزوج^(١) وأنه لم يكن راضيا بحياته الزوجية ولا موقفا فيها وقد ترك ذلك في نفسه آلاما وهموما جساما ، حتى ليرى أن الذي يتزوج لا الذي يموت — يستحق الرثاء والبكاء ، حيث يقول^(٢) :

تزوجت لم أعلم واخطأت لم أصب

فاليقنى قد مت قبل التزوج

فوالله ما أبكى على ساكنى الثرى

ولكننى أبكى على المتزوج

وأغلب الظن أنه أنهى حياته الزوجية دون أن يعقب أولادا من

زواجه ومن ثم عاش وحيدا فريدا حيث يقول :

في قصيدة له :

هناك تركت النسل واخترت سيرة

مسيحية أحسن بذلك مذهبا^(٣)

(١) أغلب الظن أنه تزوج في هذه الفترة لأنها كانت فترة الاستقرار والثراء في حياته

(٢) روضات الجنات ص ٣٣٣ ط إيران

(٣) نفس المصدر ورقة ١٨

وهو أيضا القائل « لا تخطب المرأة لحسنها ولكن لحصنها فان اجتمع
الحسن والجمال فذاك هو الكمال وأكمل من ذلك أن تعيش حصورا وأن
عمرت حصورا»^(١) وفي هذا يقول أيضا :

يموه قومي بالتنصح لومهم
وأن عناء لومهم والتنصح
يلومني أني نأيت بجاني
عن النيل الوى عنه رأسى واجمع^(٢)

(١) المقالة السابعة والتسعون من أطواق الذهب من ١٠٧ مطبعة السعادة

(٢) ديوان الزمخشري ورقة ٢٠١ .

الفصل الخامس
مرحلة العزلة
في
حياة الزمخشري ووفاته

تبدأ هذه المرحلة من حياة الزمخشري عام ٥١٢ هـ وهو في الخامسة والأربعين من عمره حيث كان ما زال يقيم في مكة ، وتنتهى عام ٥٣٨ هـ حيث توفي وهو في الحادية والسبعين من سنى حياته الطويلة .

وتنسم هذه المرحلة بأنها كانت مرحلة الكهولة والعزلة في حياته . وقد حببت له العزلة بسبب رؤيا رآها وهو في أعقاب مرض أنهكه في رجب (عام ٥١٢ هـ) وهو العام الذى سماه « العام المنفرة » ^(١) فانهقطع عن المجتمع الذى كان يعيش فيه وآثر العزلة ، ورغب فى الوحدة ، وأقام بمكة منفرداً بنفسه ، بعيداً عن الخاصة والعامة .

وقد ألف فى هذه الفترة من عزلته ، مقاماته الخمسين (عام ٥١٢ هـ) وشرع فى تأليف المفصل (عام ٥١٣ هـ) وفرغ منه (عام ٥١٥ هـ) ^(٢) وألف الفائق وفرغ منه عام (٥١٦ هـ) ^(٣) .

وفى نحو عام ٥١٦ هـ عاوده الحنين إلى وطنه وملعب طفولته ، ومسرح شبابه ، خوارزم ، فعزم على التوجه نحوها ، وسافر فعلا إليها وفى وصف سفرته هذه يقول من شعره ^(٤) :

وفى نفس شبهه اللهب تصعددت

به زفرة كالفار ذا كيسة الجر

(١) مقدمة مقامات الزمخشري .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ : ص ١٠٧ ، وأنظر المفصل .

(٣) كشف الظنون ص ١٢١٣ ط أوروبا .

(٤) ديوان الزمخشري ورقة ٢١ .

يذيب مضاف الشؤن بحره

فتجري شآيب الشؤن على نجرى

بـكاه على أيام مكة أن أبى

اليمـا حنين النيب فافـدة البكر

تذكرت أيامى بهـا فكـأننى

قد اختلفت زرق الأسنة فى صدرى

أبيت على الصخر المبارك با كهـا

كما كانت الخنساء تبكى على صخر

وحين تخطينـا البـناقب وارتمت

بنا الميس تهوى فى مسالكها الفقر

وشط بأصحابى عن الابطح السرى

ولط الجبـال الشمخرات بالستر

وقلت إلى أين الخطيم وزمزم

ومالى محجوزا عن الركن والحجر

صفرت وراء النور صفرة مفلس

رأى يده صفرا من البيض والصففر

وقلت لقلبي قدـد مـلـكتك مرة

فما أنت إلا طائر طار عن وكر

وقد أقام بخوارزم قريبا من عامين ، وقد ابتسم له الحظ فى خوارزم

إذ قابله ملكها ، محمد بن انوشتكين خوارزمشاه (م ٥٢١ هـ)^(١) بالترحاب

(١) تاريخ الكامل لابن الأثير ج ١٠ : ص ٩٢ ، ٩٣ .

والتقدير وقربه اليه ، ومنحه عطفه ، ونال حظوة كبيرة ، وقد مدح الزمخشري فيه رعايته للعلم والأدب ، حيث يقول من شعره ^(١) :

وقد خدمت بشيئين استوى بهما

أمر الملوك ودان السيف والقلم

هذا السكتب الأبادى واصل حذب

وذا السكتب الأهادى صارم خذم

وفى هذه المدة أرسل اليه ابن وهاس يطلب عودته إلى مكة ، وكان يحدث نفسه كما يقول الزمخشري فى مقدمة الكشف: « مع تراحم ما هو فيه من المشادة بقطع الفجافى وطى المهامة ، والإفادة علينا نحو خوارزم ، ليتوصل إلى اصابة هذا الفرض » ^(٢) .

وما لبث أن رجع إلى مكة المكرمة مرة أخرى قبل عام (٥٢٠ هـ) ^(٣) أو على الأصح نحو (عام ٥١٨ هـ) حيث لقي بها عبد الله اليابرى (المتوفى ٥١٨ هـ) وقرأ عليه كتاب سيبويه ^(٤) ولا ننسى أنه فى أثناء عودته اليها مر بالشام ومدح تاج الملك صاحب دمشق (م ٥٢٦ هـ) ^(٥) ، ولما توفى تاج الملك وتولى بعده ابنه شمس الملك بعث اليه بهصيدة تهنئة من مكة ^(٦) . وفى مكة المكرمة طاب له المقام ، حيث عاش موضع عطف ، ابن وهاس

(١) ديوان الزمخشري ورقة ١٥٧ .

(٢) مقدمة الكشف ج ١٨ ط الحلبي ١٩٤٨ .

(٣) أزهار الرياض - لقاضى عياض ج ٣ : ٧٧ طبقات المفسرين للسيوطى ص ٤٩ .

(٤) الرجم السابق ونفس الصفحات والمجلد ، وطبقات المفسرين للسيوطى والبنية ٤٩ .

(٥) الكامل لابن الأثير ج ١٠ : ص ٢٤٢ .

(٦) نفس الرجم ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ديوان الزمخشري ورقة ٣٨ .

ورعايقه ، وقد لقي في رحابها الأمن والطمانينة ولقي منه ، أهل مكة ، عالما جليلا ، واماما فذا ، كثير الفوائد ، فأحبهم وأحبوه ، وفي هذه الفترة ألف أكثر كتبه — وكانت أغلب تصانيفه بين زمزم والمقام ^(١) .

وقد ألفى هذه الفترة « أطواق الذهب » « النصائح الصغار » « الشافي العي » و « نوابغ السكك » و « المستقصى في أمثال العرب » . ويبدو ان الزمخشري جمع شعره (ديوان الأدب) بإشارة من ابن وهاس . كما يظهر ذلك من مقدمة الديوان حيث يقول : « ولولا ذلك وأمرك مرسوم آخذ على بوجوب امتثاله واحتذائه مثاله للقيت مني حين اقترحت على جمعي نفاسات قريحتي وطلبت إلى الاسجاج سيجتي ركفا عن الاجابة مزورا وجلدا » ^(٢) .

وفي أرض الحجاز ، زار كل بقعة وشاهد كل أثر اسلامي ويقول في مادة ت - ز - ب - من أساس البلاغة (ووطئت كل تربة في أرض العرب) وعاش يلقي العلماء ويساجل الأدباء ، ويزور أعلام العالم الاسلامي في موسم الحج ويعترف اليهم ، ويلازم بيت الله الحرام ، ويقف إلى المدينة زائرا .

وفي مطلع (عام ٥٢٦ هـ) بدأ يؤلف في بيت الله الحرام تفسيره العظيم الكشاف وانتهى منه في أواخر (عام ٥٢٨ هـ) وقد نوه في مقدمته بالشريف علي بن حمزة بن أبي وهاس العلوي ، الذي صنف الكشاف ^(٣)

(١) مفتاح السعادة - لطاش كبرى زاده ج ١ : ص ٤٣٣ .

(٢) مقدمة ديوان الزمخشري مخطوط دار الكتب .

(٣) العقد الثمين ج ٣ : مخطوط دار الكتب ، مفتاح السعادة ج ١ / ٤٣٣ ، ج ١ / ١١٨ .

لأجله وكان الزمخشري آنذاك يسير في العشرة الأخيرة من سنى حياته كما يقول في مقدمة الكشف^(١) وقد سماها « دقاقة الرقاب »^(٢) .

وبعد ذلك ألف « ربيع الأبرار » ثم « أساس البلاغة » ثم « أعجب العجب في شرح لامية العرب » .

وطالت اقامته بمكة في المرة الثانية فامتدت قريبا من الأربع عشرة سنة إذ يقول في ديوانه قبل سفره منها^(٣) :

فجاءوزت ربى وهو خير مجـاور

لدى بيته البيت المحرم عاكفا

أقمت بإذن الله خمسا كواملا

وصادفت سبيعا بالمعرف واقفا

وتم لى الكشف ثم ببلدة

بها هبط التنزيل للحق كاشفا

وحينما قدم بغداد زاره الشريف أبو السعادات هبة الله بن الشجرى—

(٥٤٢ هـ) مهنتا بقدمه فلما جلس اليه أنشده ابن الشجرى متمثلا :

كانت مسائله الركبان تخبرنى

عن احمد بن داود أطيب الخير^(٤)

(١) الكشف ج ١/ ١٨ .

(٢) تسكنى بها العرب عن العشرة السبعين من العدد ورقة ٦ من القسم الثانى من كتاب ما يعول عليه في المضاف والمضاف اليه ، محمد أمين المحبى مخطوط دار الكتب العربية ٤٧٥٤ أدب .

(٣) ديوان الزمخشري .

(٤) هو على بن هبة الله بن الشجرى العلوى كان امام عصره فى اللغة والنحو وقرأ على التبريزى وابن طباطبا وله مصنفات جليلة ، بغية الوعاة للسيوطى ص ٤٠٨ ، ٢٥٧ .

حتى القيننا فلا والله ما سمعت

أذننى بأحسن عما قد رأى بصرى^(١)

— ٢ —

ولا ندرى متى فارق الزمخشري مكة إلى بلاده خوارزم للمرة الأخيرة
ولسكننا نعرف أنه تردد على بغداد مرتين آخرها (عام ٥٣٣ هـ)^(٢) وقد
يكون أنهى إقامته في هذا العام ، ومنها سافر إلى بلاده - حيث مر ببغداد
في سفره .

وعاد الزمخشري إلى وطنه شيخا كهلا : بقمده المرض والشيخوخة
وقد أصبح بعد رجوعه ، فخر خوارزم ومرجع العلماء في كل فرع ومشكلة ،
وطارت شهرته في كل أرجاء العالم الاسلامي .

وظل كذلك حتى توفاه الله عام ٥٣٨ هـ - ١١٤٤ م حيث دفن
« بيجرانيه » خوارزم^(٣) .

(٥) والمحمفوظ : جعفر من خلدج .

(٢) أنباء الرواة - للقطبي - ٢٧٠/٣ ط دار الكتب .

(٣) بنيه الوعاة للسيوطي ص ٣٨٨ - نزهة الالباء - للانباري ، ٤٦٩ معجم ما استعجم -
للبيكري ج ٢ ، ريعانة الأدب للتبريزي ط طهران .

المباب الثالث

الفصل الثالث
آثار الزمخشري

الفصل الاول : آثار الزمخشري :

لم تصلنا جميع آثار الزمخشري ومؤلفاته ، ولكن من حسن الحظ ، أنه قد حفظ مقدار لا بأس به ، من كتبه ، الخالدة في مختلف مكتبات العالم ، وقد طبع بعض هذه الكتب ، ونشر هنا إلى جميع تأليفه ، وإلى المخطوط منها والمطبوع ... وهذا بيان بتأليفه :

١ — الكشف عن حقيقة التنزيل في التفسير ، وقد طبع مرارا في مصر والهند ، في مجلدات مختلفة وسأخصص له بحثا مستقلا .

٢ — القسطاس في العروض : وهو مخطوط في برلين وليدن ودار الكتب المصرية .

٣ — كتاب الامكنة والجمال والمياه : مرتب على حروف المعجم ، ويبتدىء بباب ما في أدلة الهمزة ، وهذا الكتاب في الغالب يقتصر على معالم الحجاز ، والبلاد العربية ، من الشامات وغيرها ، وكثيرا ما يعتمد على أقوال الشريف العلوي بن وهاس ، وطبع في ليدن عام ١٨٥٥ م ، مع مقدمة أو ملاحظات ، وفهارس باللغة اللاتينية « لاميوده جواف » وطبع أيضا في النجف والعراق ، بالمطبعة الحيدرية عام ١٩١٧ م .

٤ — الفائق في غريب الحديث : منه نسخ في أياصوفيا و - كوبرلي - وفي جامع ومكتبة دمشق — وقد طبع مرارا في مصر في عدة مجلدات ، يقول الزمخشري في خاتمة الكتاب : وتها انتهاؤه في أوائل شهر ربيع الآخر الواقع سنة ست عشرة وخمسمائة وسأخصص له بحثا مستقلا .

٥ — تعليم المبتدىء وأشارد المهتدى — وتوجد منه نسخة خطية

بدار الكتب المصرية ، بقسم الفهارس الفارسية تحت رقم س — ٤٢٥٤ وهو كتاب صغير الحجم — مكتوب على ورق عادى ، بحجم الربع ، يقول الزمخشري فى مقدمته : « الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله الطاهرين أجمعين » قال مؤلف ، هذا الكتاب : المنطق المستعمل ، الذى ينطالق به ، السن المبتدئين ، فافهمه وأعمل به واحفظه تنفصح به إن شاء الله تعالى ثم يشرع فى الكتاب ويذكر جملا مفردة عربية ، وتحته ترجمتها باللغة الفارسية ، والجل التى يكتبها ليس لها لون أدبى وإعماهى جملة سهلة وبسيطة ، مما يكتبه الناشئون فى مراحل التعليم الأولى .

٦ - الفصل فى النحو — وقد نقلت نصوصا من مقدمته فيما سبق - هذه المقدمة التى يبدى فيها تحمسا شديدا بالنسبة إلى اللغة العربية ويشن الهجوم على أعدائها — وبقيم بحته النحو فيه على عمد ثلاثة : الاسم ، والفعل ، والحرف وله طبعات وشروح كثيرة وأشهرها شرح ابن يعين فى عشرة أجزاء ، ومن طبعاته طبعة الاسقانة عام ١٢٩٨ م ومنه نسخ خطية فى المكتبات الكبرى ، فقد شرع فى تأليفه فى عاشر رمضان عام ٥١٣ هـ وانتهى منه ، فى شهر محرم عام ٥١٥ هـ .

٧ — المستقصى فى أمثال العرب : وهو معجم للأمثال العربية منه نسخة فى دار الكتب المصرية تقع فى ١٧٨ صفحة وفى مكتبات أوروبا ، والزمخشري ببسط أسلوبه فى مقدمة هذا الكتاب حيث يقول : والحمد لله على ما أثلج به صدورنا ، من برد اليقين وكساه اعطافنا من تشرىف الاسلام وأثبت عليه أقدامنا من صراطه المستقيم ، والصلاة على مصطفىاه

من خلقه محمد وعترته الأبرار... ، ثم يقول : وقد تصدبت للانصباب إلى هذا المضمار ، تصدى القاصد بذرعه ، والرابع على ظلمه ، فتدبرت شعب الفن الذى أنا كائن بصدده ، وقائم بازائه فصادت الشعبة التى هى أمثال العرب ، خليقة بالميل ، فى صفوا الاعتناء بها ، والسكوح فى تقويم عنادها ، لما أنست من تناهى فاقة الأفاضل . إلى استكشاف غوامضها والغوص فى مشكلاتها ، ولاسيما من انتدب منهم لتدريس قوانين العربية ، واقراء الكتب الكبار ، فقيدت من أوابدها ما أعرض واقتضت من شواردها ما أكتب ، ثم ارتبطتها فى قرن ترتيب حروف المعجم . . . وذلك أنى بوبتها فاوردت ما فى أوله الهمزة ثم قضيت على أثره بما فى أوله الباب ، وهلم جرا إلى منتهى أبواب الكتاب ، وفصلت كل باب ، فقدمت فى باب الهمزايه ، ثم مع الباب ، وقد استمررت على مراعاة هذا النمط فى أوساط الكلام أو آخرها وحتى تساوت صدور الأمثال ، وجاءت شرعا لا يدل بعضها على البعض وعدلت بالنظر على اعجازه فقدمت الاحق ، فالأحق ، وكل كلمة وجدتها متكررة ، سطرتها كرة واحدة ، ثم لم اعرض لها فى سائر مواقعها إلى أن انتهيت إلى أخقها التى تظأ عقبها ، إلا إذا استكره ذلك وغمض ، وقد عنيت بإيراد قصصها وذكر النكت والروايات فيها ، والكشف عن معانيها ، والأنباء على مضاربها والتقاط أبواب الشواهد لها على أنى اشترطت تحرى الاختصار ، وتجريد الألفاظ عن الفضلات ، التى يستغنى عنها فى حط اللثام ، وعن وجهة الممى ، ولارتفاع الكتاب محيطا بهذه النعوت كلها ، سميقة (المستقصى فى أمثال العرب) وبجتمل أن يكون تاريخ تأليف هذا الكتاب قبل عام ٥١٨ هـ وهو عام وفاة الميدانى . . . حيث يذكر المترجمون - (أن الزمخشري ألف هذا الكتاب بعد ما أطلع

على كتاب « الأمثال للميداني » وقصد بذلك منافسته للميداني ويذكر أيضا أن الزمخشري عندما أطلع على كتاب الميداني أضاف إلى اسمه - نونا وصار باللغة الفارسية نميداني - أى لاتعرف شيئاً . .

٨ - رسالة في نص العشرة - وأخرى في كلمة الشهادة - في برلين .

٩ - أطواق الذهب : وهو فصول قصار على نهج كتابة المقامات ومن الراجح أن يكون هو نفس كتاب « النصائح الصغار » والنصائح الكبار تكون هي مقاماته . . . وتوجد منه نسخ خطية - في برلين - والمتحف البريطاني وقد ترجم إلى اللغة الألمانية وطبع مع الأصل في فيينا عام ١٨٢٥ م وفي استعجارت ١٨٦٣ م وقد ترجم إلى اللغة الفرنسية وطبع في باريس عام ١٨٧٦ م وطبع وحده بمصر مرارا وشرحه الأشعري .

يدور أطواق هذا الكتاب حول معاتبة النفس حيث استخدم فيها المحسنات البديعية ، وألوان الجناس ، والطباق المختلفة من تامة وناقصة ، والسجع ويراعى فيها مخارج الحروف بين الكلمات وكان تأليف هذا الكتاب في عام ٥١٢ هـ .

١٠ - مقامات الزمخشري وكلها تدور على الوعظ والارشاد ، وليس فيها راو ، ولا بطل ، بل يبدوها بخطاب نفسه ، وماتزال يذكر ويعظ رادعا نفسه عن الشهوات مؤكداً أن تسلك السبيل السوي الذي يؤدي بها إلى الفوز بنعيم الله ورضوانه ، وقد تأثر ولاشك ، في أسلوبه فيها ، بمقامات الحريري ، التي كان يقول فيها :

اقسم بالله وآياته

ومشعر الحج وميقاته

أن الحريري حرى بسان

نكتب بالقبر مقاماته

وقد جعلها خمسين مقامة ، وأنفها عام ٥١٢ هـ أى قبل الفائق .

١١ — نوابغ الكلم : فى اللغة طبع فى عصر عام ١٢٨٧ هـ وله شروح عديدة ، وطبع أيضا فى باريس مع ترجمة فرنسية عام ١٨٧٦ م وينقل منه فى تفسيره الكشف وربيع الأبرار ... يقول فى مقدمته : اللهم إن ما منحتنى به من النعم والسوابغ الهام هذه الكلم النوابغ ، ناطقة بكل زاجرة كأنى القن بها صيحة لقمان ، وأصف بها حكمة سليمان ، ولكن ثم آذان عن استماع الحق مبدودة ثم يقول : فصل : السنة منهاجى ، ومنها أجى ، عيني تقر بكم عند تقر بكم ، حبذا الواثق إذا رعد ، والصادق إذا وعد ، السوقية كالكلاب السلوقية ، رب زعيات ، سمين عزمات ، سحابة وقفت تعلمه ، ووكفت تحله ، الأب أعرف وأشرف والأم أرام أراف ...

١٢ — القصيدة البموضيعة - وأخرى فى مسائل الغزالي - فى برلين .

١٣ — الأنموذج فى النحو : وهو مختصر المفصل وعليه شروح كثيرة وقد طبع فى إيران طبعات عديدة .

١٤ — شافى العى فى شرح كلام الامام الشافعى . يشير إلى هذا الكتاب فى تفسيره الكشف^(١) .

١٥ — المعاجاة فى الاحاجى والاغلوظات : ورد هكذا اسمه فى

بعض النسخ وفي دار الكتب المصرية نسخة مخطوطة برقم (٢٨ أدب) — بعنوان كتاب الحاجاه بالمسائل النحوية لجار الله الزمخشري ومعه كتاب المسائل الخلافية لأبي البقاء المكي « يقول في مقدمة الكتاب : ثمان مسائل نحوية مسوقة في مسالك الحاجاه في سلوك المعايير لا تشمل منها مسألة ألا سقطت على أملاحة من الأملح العلمية وأفكوهة من الأفاكية الحكمية » .

١٦ — أساس البلاغة : في اللغة : طبع مرارا وسأخصص له بحثا مستقلا وقد ألفه بعد الكشف .

١٧ — مقدمة الأدب : معجم عربي فارسي ، طبع في ليبسك عام ١٨٤٣ وهو أهم معجم مزدوج يشتمل على كثير من جل اللغة العربية وترجمتها باللغة الفارسية وقد عثر على نسخة منه بالفارسية عام ١٩٤٨ م . ولكن المعجم الذي طبع في ليبسك ١٨٤٣ ليس معه الترجمة الخوارزمية ، والمرجح أن الفارسية لم تكن للمؤلف ، لأن الذي كتبه الزمخشري كان باللغة الخوارزمية ، وهذا المؤلف يعتبر أهم معجم مزدوج ، إذ ، حتى الآن لم يعثر على معجم خوارزمي عربي إلا هذا المعجم^(١) . وهناك رأي بأن الزمخشري ألف كتابه بثلاث لغات : اللغة الفارسية والتركية والخوارزمية ، وقد طبعت النسخة الفارسية عام ١٨٤٢ وطبعت الخوارزمية أخيراً في تركيا وأما النسخة الخوارزمية لم يعثر عليها حتى الآن . ويقول الزمخشري في مقدمة الكتاب : الحمد لله الذي فضل على جميع اللسان العرب كما فضل الكتاب المنزل به على سائر الكتب وجلالة هذا اللسان وجعل الله

(١) مجلة كلية الآداب : جامعة طهران عدد عام ١٣٨٦ مهريه ومجلة مهر —

من الآثار المتبقية للخوارزمية .

له من نباهة الشأن ، وأن الحاجة إليه سائحة في الملة الإسلامية في أنواع علومها ، وفنون آدابها ، كان — المتعاطون لاتقائه والتبحر فيه معدودين في علماء هذه الأمة ، مذكورين في طبقات الأئمة ، ومن صنع الله تعالى لهذه الطبقة ، أن الملوك لم تضطر سحابهم ، ولا فاقت اعطياتهم ومواهبهم على أحد فيضها على هؤلاء ، من أدبائهم وخطبائهم ومرسلينهم وشعرائهم ، ولم يخل بعد انقضاء دولة الأعراب . عصرا من الأعصار من ملك فاضل جواد يرغب فيهم ويصطنعهم ويكفلهم ويكفيهم ، ويقمص لصناعتهم ، ويحرص على تنقيح بضاعتهم والذي اصطفاه الله في زماننا لنصرة الأدب وقذف في قلبه الرغبة في كلام العرب الأمير الأجل الأسفهم سالار بهاء الدين علاء الدولة أو المظفر أنسر بن خوارزمشاه وقد رسم لي أمره العالي — زيد علوا — بتحرير نسخة من كتاب مقدمة الأدب لخزانة كتبه المعمورة ، ففعلت على رسمه وجعلت الكتاب مرسوما باسمه ثم شرح منهجه في الكتاب مقسما إياه إل فصول وأبواب

١٨ — أعجب العجب في شرح لامية العرب : وهو مطبوع ، يقول في مقدمته : سبحانك اللهم وبحمدك معرب الافهام ، بتقيد الافهام هذه نكتة قدفتها خطوط اخواطرى وفائدة جردتها نواظر نواظرى ، وسبك لم ينسج على منواله ، فيقال قد سبق إليه ، وزر كش قد نظم بين اليواقيت فكل عالم يعرج عليه ، وغاص لها الخاطر في بحر الأفكار . فاستخرج وردها وتام الناظر في فكر الأفكار ، فاستحضر صورها من كل غريبة ، كل حديد النظر عن تقريرها ، ومل مزيد الفكر من تدبرها ، تعبت فيه قريحة القرائح ، وتاهت في ميادينة قانصة السوانح ، وقد اتحفت بها الخزانة السعيدة والحضرة الغربية وخطابى لمن نشأ غى علم الاعراب ، وحقق

في ميادين أفكاره بالمعجب فيه والاطراب ، وسرد علمي المعاني والبيان
وعرف التحقيق فيهما والبيان وطالح أساس البلاغة وعرف براعة البراعة
... الخ .

١٩ — ديوان الزمخشري : يوجد منه نسخ خطية ومصورة في ١١٩
لوحة بخط جيد بدار الكتب المصرية ومكتبة الاسكندرية وهو مرتب على
الحروف الابجدية : بفتح الديوان بقوله : قال : عبد الله الفقير إليه محمود
بن عمر الزمخشري رحمة الله عليه أبدا ، يحمد الله على هدايته ، لاقوم
السبل ، واثني بالصلاة على خاتم الأنبياء والرسل ، فان الذكر مضار لحد
الله فيه قدمة الجلي ، والصلاة على مطفاه محمد قدوة المصلي ... اتخذهما
ذريعتي إلى من لأشيم إلا مخايل جوده ، ولاسيم ألا في خائل محموده ،
ولاقتدح الا بزناد فضله ، التي لاتصلد ، ولاستجدي الأمن الأفقر إليه ،
هو الأغنى ولامن الملقى بين يديه هو الحظار الاسنى وأياه أسأل تحت
سجوف الظلام وإليه أجأ في ساعات النيام ، أن يمهني شعار التوبة
النصوح ...

وما أجل الضنع فيه أناختي

بـ مكة مرضيا مرارا وموردا

ولولا ابن وهاس وسابغ فضله

رعت هشيما واسققت مصردا

٢٠ — ربيع الابرار : في الادب والمحاضرات يقول في مقدمته :

عبد الله الفقير إليه محمود بن عمر الزمخشري ، ... هذا كتاب قصدت
به أجام خواطر الناظرين في الكشف عن حقائق التنزيل وتريح قلوبهم
المتعبة باجالة الفكر ، في استخراج ودائع علمه وخباياه ، والقنفيس عن

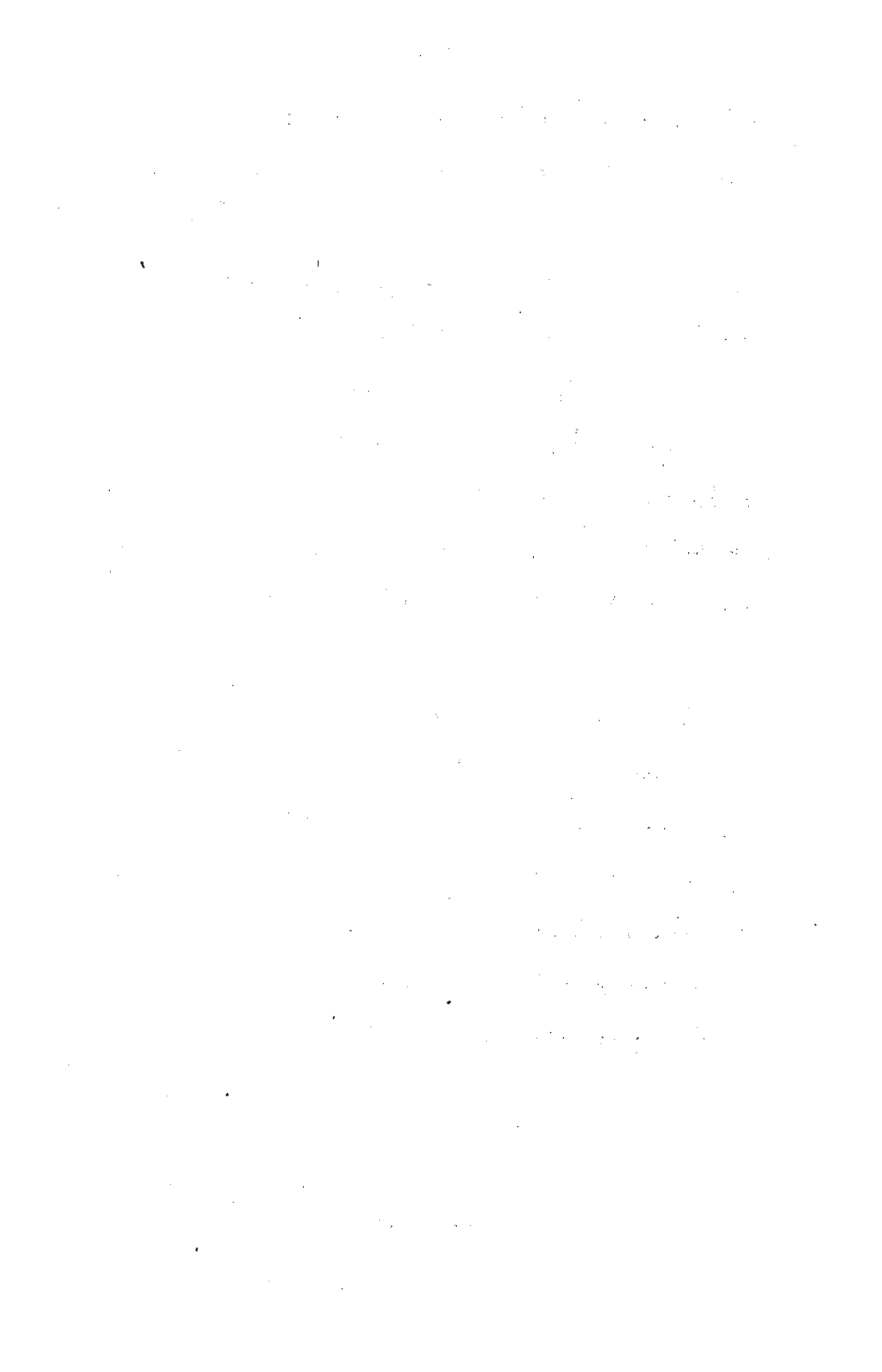
اذا هانهم المكدودة باستيضاح غوامضه ، وخفاياه ، وأن تكون مطالعته
ترفيها لمن مل ، فيه فأخرجته لهم روضة مزهرة وحديقة مثمرة ، من أنس به
سلى عن كل أنيس .

أن أردت السمر فياله من سمر ، وأن طلبت الخبر قد سقطت على
الخبير ، وأن بغيت العظات المبكية ففيه ما يشرق بالدمع اجفانك أو
الملح المضحكة ففيه ما تنفر بمضاحك أسنانك الخ .

ويوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية
تحت رقم ١٥٥ أدب وقد خصه محي الدين محمد بن الخطيب قاسم (عام
٩٤٠ هـ) وسماه « روض الأخبار المنتخب من ربيع الأبرار » لخصه آخر
وسماه « أنوار الربيع » و ترجمه إلى اللغة التركية عاشق جلبي وقدمه إلى
السلطان سليم العثماني .

هذا القدر الذي ذكرته من آثار الزمخشري ليس هو كل ما جاء في
المعاجم ، وكشف الظنون ، بل أن هناك آثارا تنسب إليه ويصل عددها
إلى خمسين مصنفا ذكرها ياقوت وابن خلكان وحاجي خليفة وغيرهم ،
ولسكنني لم أقصد استيعاب كل ما نسب إليه بل ذكرت المتيقن أنه من
تأليفه والموجود الآن في مكتبات العالم ، والتي أجمع عليها جميع أصحاب
التراجم دون أن اهتم بذكر ما نسب البعض إليه ولم يجمع العلماء عليه أو
لم تكن موجودة ، كرسالة الأشرار ، وعقل الكل ، وروح المسائل ،
ودبوان التمثيل ، ورسالة المسامة ، وغيرها^(١) ..

(١) معجم الادباء - لدياقوت ج ١٩ : ص ١٣٣ ، ١٥٣ .



الفصل الثاني

ثقافته

كان الزمخشري حجة في علوم الدين والعربية ، ملما بمذاهب الكلام وفلسفة الفلاسفة ، وقضايا المنطقيين ، مع إلمامه بأصول الشريعة وفروعها ومع احاطته العامة بأسرار العربية ودقائقها ونبوغه في شتى علومها ، من بلاغة ونحو ، وصرف ، وأدب ، ومظهر هذه الثقافة الواسعة يبدو جلياً في مؤلفاته المختلفة المنوعة ، التي جمعت بين علوم الدين وعلوم اللغة والأدب . ولا شك أن هذه الثقافة كان مردها ، إلى ميوله ومواهبه وبيئته العلمية التي قيل فيها : قلما وجد فقيه أو لغوي لم يتخرج على أستاذ خوارزمي . وإلى شيوخه ، ومطالعته ورحلاته ، وتجاربه وإلى مجاورته في مكة زمنا غير قصير ، حيث الأبنسة فصيحة ، والملايكات قوية ، والمواهب سليمة ، ومكة قلب الحجاز موطن العربية وعلومها ، وعلى الرغم من أصله الأعجمي ، ومن البيئات التي درج عليها وعاش فيها وهي بيئات غير عربية فقد كان الزمخشري حجة في اللغة والأدب في عصره غير مدافع .

وكل هذا كان كفله ، بأن ينشأ الفتى الزمخشري نشأة عربية وأن نجعله عربى الروح ، والثقافة على الرغم من أصله وجنسيته فإذا كان أعجمي الأصل ، فقد كان عربى الغفـكـير ، والثقافة ، والأسلوب ، ولقد تغلغلـت العربية في أعماق نفسه ، درست جذورها في جوارحه ، وحنائيه . يقول القفطى في كتابه أنباء الرواة : « أقام الزمخشري برهة من الزمان بالحجاز حيث هبت على كلامه رياح البادية وورد مناهل العرب العاربة » .

وأظهر دليل على ذلك آثاره ومؤلفاته حيث لا نرى فيها مؤلفا بغير العربية ، إلا النزر واليسير ، كمقدمة الأدب .

ومهما كانت أصول ثقافة الزمخشري واللغات التي يعرفها فقد كانت ثقافته العامة ، عربية خالصة ، من جميع نواحيها الفكرية واللغوية .

ولا شك أن الزمخشري بحكم نشأته كان يعرف اللغة الخوارزمية والتركية ، وقد ألف كتابه « مقدمة الأدب » باللغتين الخوارزمية والعربية ثم ترجم الكتاب فيما بعد إلى اللغة الفارسية وبذلك كان لهذا الكتاب ، أهمية كبيرة من حيث أنه مصدر من المصادر الوثيقة للغة الخوارزمية . وكذلك لا شك في أن الزمخشري كان يعرف كذلك اللغة الفارسية ويقننها ويقرأ الكتب المدونة بها ويلم بالثقافة الفارسية وكان في إمكانه أن يصنف بها وان لم يفعل ذلك إذ اتجه بكل طاقاته إلى اللغة العربية وثقافتها ، حتى صار علما مفردا فيها ، ولقد قال بعض الشعراء فيه :

لا تعجبوا لابن بكشاف إذا برزت

منه الفرائب في لامية العرب

بل كونه أعجمي الأصل منطبعاً

يعلم اللغة الفصحى للعرب

وبدلنا على مدى امترازه باللغة العربية ودفاعه عنها ، واستخفافه بالشعوبية ، وغيرهم من الذين يفكرون في تقليل شأنها ، ما كتبه في مقدمة كتابه « الفصل في النحو » إذ يقول : « الله احد على أن جعلني من علماء العربية ، وجعلني على الغضب للعرب والعصبية ، وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز ، وأنضوي إلى لقيف الشعوبية وأنجاز وعصمني من مذهبهم الذي لم يجد عليهم ، إلا الرشق بأسنة اللاعنين والمشق بأسنة الطاعنين . . ثم يقول : ولعل الذين يفضون من العربية ويضعون من

مقدارها ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها حيث لم يحمل خيرة
رسله وخيرة كتبه ، في عجم خلقه ، ولكن في عربه لا يبعدون عن الشعوبية ،
مناذرة المحق الأبلج وزيفا عن سواء المنهج ، والذي يقضى منه العجب حال
هؤلاء ، في قلة انصافهم وفرط جورهم واعتسافهم ، وذلك أنهم لا يجدون
علما من العلوم الاسلامية فقهها ، وكلامها ، وعلى تفسيرها ، وأخبارها ، الا
وافقاره إلى العربية بين لا بدفع ، ومكشوف لا يتقنع ، ويرون الكلام في
معظم أبواب أصول اللغة ، ومسائلها مبينا على علم الاعراب ، والتفاسير
مشحونة بالروايات ، عن سيبويه ، والأخفش ، والكسائي ، والفراء ،
 وغيرهم من النحويين ، البصريين والكوفيين ، والاستظهار في مآخذ
النصوص بأقوالهم ، والتثبت بأهداب فسرهم وتأويلهم ، وبهذا اللسان
مناقلتهم في العلم ومحاورتهم وتدريسهم ، ومناظرتهم ... الخ .

ومن هذه الكلمة ، نفهم مدى حب الزمخشري للعربية ، ومباهاته
بها ومفاخرته بأنه من أنصارها وكراميته للشعوبية ورميه اياهم بالانحراف
عن الطريق المستقيم ، وقد رد فيها الزمخشري ، على الذين كانوا يريدون
في عصره الاستغناء عن العربية بلغاتهم القومية ، ومرجع ذلك إلى أن
العربية لغة الثقافة الاسلامية ، ولغة القرآن ، ولا غنى عنها في شتى علوم
الاسلام ، ومعارفه التي دوت بها ، وخاصة في الفقه ، والأصول ، —
 والتفسير ، إذ لا بد للمفسر من استعمال العربية ، والاستفادة بدلالة ألفاظه ،
 وكذلك أصول الفقه لأنه يقوم على معرفة الكتاب والسنة ، ولا يعرف
معناها إلا بمعرفة اللغة العربية ، ولذلك جعلت العربية واتقانها شرطا في
صححة الاجتهاد ، ويعمل الزمخشري حقد الشعوبية على العرب والعربية —
 على هدى ادراكه لحقائق ذلك العصر — وان النبي والكتاب لم يكونا

من أممهم ولسانهم ويدل هذا النص ، على أن الاصطدام كان ما يزال موجودا بين الشعوبية وأنصار العربية أى بين العنصر العربى وسائر العناصر الأعجمية - وان اللغة العربية كانت اللغة الرسمية ، للدويلات المستقلة ، فى أقاليم العالم الاسلامى ، وخاصة فى أقاليم شرقى بغداد . وايران . وخوارزم وكانت كذلك لغة سجلات القضاء ولغة التدريس والعلم .

ومع تخصص الزمخشري فى الثقافة العربية فقد كان يعرف علوما أخرى ، كعلم الجغرافيا ، والجبال والأنهار وأصول المدن وقد صنف تصنيفا يدل على سعة اطلاعه ، وطول باعه فى هذا الفن سبق أن أشرنا اليه فى ذكر آثاره وهو كتابه فى « الأمكنة والجبال والمياه » .

— ٣ —

ويصف الباحثون « الزمخشري » بأمام عصره فى اللغة ^(١) وقد حاز قصب السبق ، فى البلاغة والبيان والنحو واللغة وعلوم القرآن ، وتأليفه تشهد له بطول الباع وغزارة المادة ، ومتانة الأسلوب ، وقوة التفكير والمنطق ، والحظ الكثير من العلم والعقل الجدد المطاع على شتات الفوائد والمعارف يقول القفطى :

« كان رحمه الله يضرب به المثل فى علم الأدب والنحو واللغة ، لقى الأفاضل والأكابر ، وصنف التصانيف ، فى التفسير ، وغريب الحديث والنحو وغير ذلك ودخل خراسان وورد العراق ، وما دخل بلدا إلا واجتمعوا عليه وتعلموا له واستفادوا منه ، وكان علامة الأدب ونسابه

(١) مفتاح السعادة - إبطاش كبرى زاده ج ١ ص ٤٣٢ ط السعادة وفيات الاعيان - لابن خلکان - ج ٢ ص ٥٠٩ دائرة المعارف الاسلامية بمعجم الادباء - لياقوت ، نزهة الالباء - للابارى - بقية الوعاة للسيوطى .

العرب ، أقام بخوارزم ، تضرب اليه أكباد الابل . وتعط بفقائه رجال الرجال وتعدي باسمه مطايا الامال ثم خرج منها إلى الحج وأقام برهة من الزمان في الحجاز حتي هبت على كلامه رياح البادية وورد مناهل العرب العاربة ... وكان الزمخشري أعلم فضلاء العجم بالعربية في زمانه وأكثرهم أنسا واطلاها على كتبها ، وبه ختم فضلاؤهم . وهكذا يذكروه صاحب الوشاح أستاذ الدنيا فخر خوارزم جار الله أبو القاسم محمود الزمخشري . من أكابر الأمة ، وقد ألفت اليه أطراف الأزمة ، واتفقت على اطرائه الألسنة ، وتشرفت بمكانه وزمانه الأمكنة والأزمنة ، ولم يتمكن في دهره واحد من جلال وذائل النظم والنثر ، وصقال صوارم الأدب والشعر ، إلا بالاهتداء بنجم فضله ، والافتداح بزند عقله ، ومن طار بقوادم الانصاف وخوافيه ، علم ان جواهر الكلام في زماننا هذا من نثار فيه ^(١) .

ولقد اتى الزمخشري في عصره تقدير الملوك والأمراء والعلماء وأئني عليه الناس ثناء كبيرا ، ^(٢) ، كتب اليه الأمير شبل الدولة أبو الهيجاء مقبل بن عطية البكري « ختن نظام الملك الحسن بن اسحق » أبياتا يمدحه فيها ومنها :

هـــــــــــــــــــــ	أدب	فاضل	
		مثل	الدراري
			درره
		فاضل	
زمخشري			
		أنجبـــــــــــــــــه	زمخشريه

(١) أنباء الرواة - للفتى ج ٣ : ص ٢٦٦ وما بعده ط دار الكتب المصرية .

(٢) معجم الادباء لياقوت ١٩ ج/١٢٨ ، نزهة الالباء للانباري ص ٤٨٠ .

كالبحران لم أره

فقد أتاني خبره

وهكذا يكتب إليه منتخب الدولة أبو جعفر محمد أحد امراء السلطان
سنجر رسالة ، وقصيدة يثنى عليه على بن وهلس^(١) ويقول السمعاني : كان
يضرب به المثل في علم الأدب والنحو^(٢) ويقول ابن خلكان : وكان أمام
عصره غير مدافع تشد إليه الرحال في فنونه^(٣) ، ويقول : الانباري : كان
نحويا فاضلا^(٤) ويحكي ابن الانباري رأى ابن الشجري اللغوي في الزمخشري
فيقول : « وقدم إلى بغداد للحج فجاءه شيخنا الشريف ابن الشجري مهنثا
له بقدمه فلما جالسه أنشده الشريف :

كانت مسألة الركبان تخبرني

عن أحمد بن داود أطيب الخبر

حتى التقينا فلا والله ما سمعت

أذني بأحسن مما قد رأى بصرى

ويقول عنه ياقوت : كان أماما في التفسير والنحو واللغة والأدب
واسع العلم كبير الفضل متفطنا في علوم شتى^(٥) . ويقول الزمخشري عن
نفسه : وأنى في خوارزم كعبة الأدب^(٦) .

(١) أنباء الرواة - ج ٣ : ٢٧١ ط دار الكتب

(٢) الانساب للسمعاني ص ٢٧٧ ط ايدن .

(٣) وفيات الاعيان لابن خلكان . ج ٢ ص ١٠٧ .

(٤) نزهة الألباء - الانباري ج ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١

(٥) معجم الادباء لياقوت ص ١٩ ص ١٢٦

(٦) ديوان الزمخشري ورقة ٨ .

ولمى جانب تضلع الزمخشري في علوم اللغة والأدب كان على حظ كبير ، من الاطلاع على الفقه وأصوله ، وكان يوصف بالفقيه الحجة وقد ألف في هذين العلمين مؤلفات ، وعندما يتحدث الزمخشري في تفسيره الكشف عن مسائل فقهية راه يعالجها بمهارة ، وطول باع ، وسعة اطلاع على آراء الفقهاء ويتبع الاجتهاد في الرأي والاتباع غالبا للمذهب الحنفية^(١) إذ كان حنفى المذهب ، وقد ذكره الشيخ محي الدين والشيخ محمد الدين وقاسم بن قطلوبغا في طبقات الحنفية^(٢) .

وبحسب الزمخشري نفسه في شعره — ثقافته التي تفوق فيها يقول^(٣) :

ترانى فى علم المنزل عالمًا

وما أنا فى علم الأحاديث راسمًا

فلا سنة البيضاء فى مناهج

ويبغى ككتاب الله منى المعارف

وما أنا من علم الديانات عاظمًا

بأحسن حلّى لم يزل لى شائفًا

فكم قد حوت يمنأى منه دفاتر

وكم قد وعّت إذنأى منه وظائف

(١) انظر مثلا صورة الطلاق والحج من تفسير الكشف .

(٢) طبقات قاسم بن قطلوبغا ص ٣٠ — وفيات الاعيان ، معجم الأدباء لياقوت

وطبقات الحنفية ، وبنية الوعاة للسيوطى ،

(٣) ديوان الزمخشري ٧٨ ورقة .

وماللغات العرب مثلى مقوم

أبى كل ندب متقن أن يخالفنا

وبى يستقيث النجوى من أن يسوسه

نهى لم يجد الذائقون حصائفا

فقل أين خلى سيبويه كتابه

يقل حجر جار الله مأوى خالفنا

وما فى رواة السكتب راوية له

سوى واحد فانظر فلست مصارفا

وعلمنا المعانى والبيان كلاهما

أزف إلى الخطاب منه وصائفا

وعلم القوافى والآعاربض شاهد

بفسحة خطوى فيه إذ كنت زاحفا

أقرت بى الآداب أصلا لها ومن

رأى مشرفيات ججدن المشادفا

وديوان منظومى يريك بدائفا

وديوان منثورى يريك طرائفا

شخصية الزمخشري



وهب الزمخشري نفسه ، للثقافة والإفادة والتأليف وعاش راهبا في
محراب العلم ، منقطعا عن الحياة بمهامه العقلية ومشاغله الفكرية .
كان معروفا بمحبة الذكاء ، وقوة المعارضة ، وبلاغة اللهجة ، وحسن
المنطق ، والقدرة في الجدل والحجاج والمناظرة .

ولم يلمه من حياته العلمية هذه شيء من زوج وولد وسواهما ، فقد
رأينا أنه تزوج ولم يوفق في زواجه ، فطلق زوجته دون أن ينجب أبناء
وعاش وحيدا فريدا ، يؤثر أن لا يكون له نسل كما فعل أبو العلاء وغيره من
قبل ، ويشرح الزمخشري ، فلسفته في ذلك في أبيات من شعره فيقول :

تصنعت أولاد الرجال فلم أكد

أصادف من لا يفضح الأم والأبا

رأيت أبا يشقى لتربية ابنه

ويسمى لكى يدهى مكبا ومنجبا

أراد به النشاء الاغر فما درى

أيوليه حجرا أم يعلبه منكبا

أخو شقوة مازال مركب طفله

فأصبح ذاك الطفل للناس مركبا

لذاك تركت الفسل واخترت سيرة

مسيحية أحسن بذلك مذهبا (١)

وقد أهرض عن لذاته في البنين والأسرة ، بذاته في العلم والقائيف
يقول في شعره :

وحسبي تصانيفي وحسبي رواياتها

بنين بهم سيقت إلى مطالبي^(١)

وكان من البديهي أن ينصح أهله بالزواج ، وأن يلوموه على مذهبه
في الوحدة ، واسكنه عزف عن رأيهم ، وأصر على التمسك بفلسفته ويقول
في ذلك من شعره^(٢) .

يموه قومي بالتنصح لومهم

وأن عناء لومهم بالتنصح

يلومونني أني نأيت يجاني

عن النسل الوى عنه رأسى وأجمع

— ٢ —

وكان الزمخشري ، حاد الطبع ، جريئاً فيما يعتقد أنه الحق ، صريحاً
أبعد حدود الصراحة ولم يكن من عاداته ، أن يجارى أو يدارى ،
ولم يكن ممن يحبس عواطفه ، ويقيد انفعالاته ، حتى لا يشعر بها أحد .
أطلع مرة على كتاب « الأمثال » للميداني فما لبث أن أخذ القلم
وزاد نونا على « ميداني » فصارت الكلمة بالفارسية « نميداني » أى
لا يعرف مؤلفه شيئاً^(٣) وهذا دليل على حدة الانفعال والمزاج العصبى ، وقد
يكون لمرضه ، واعتداده بنفسه أثر في ذلك .

(١) ديوان الزمخشري ورقة ٩

(٢) نفس المصدر ورقة ٢٦

(٣) أنباء الرواة - لقفطى ٢٣١ ، معجم الادباء بفيه الرعاية روضات الجنات .

وكان الزمخشري شديد الاعتداد برأيه والنفقة بنفسه والصلابة فيما يذهب إليه ، من فكرة ، كان يزور بيت شريف مكة ، فاذا ما استأذن قال : معرفا بنفسه ، أنا الشيخ المعتزلى : ثم يردف ذلك بقوله : من يبرز لى ، من يبرز لى^(١) ، وكان إذا زار صاحباً يقول : لمن يستأذن له : قل اسئلك أبو القاسم بالباب^(٢) :

ولكنه كان إلى جانب ذلك متواضعا شديد التواضع جم الأدب يقول فى رسالته التى بعث بها إلى الحافظ السلفى : « ولا يفرنكم قول فلان فى ، فان ذلك اغترار منهم بالظاهر الموه وجهل بالباطل المشوه ، ولعل الذين غرهم منى مارأوا من حسن النصيح للمسلمين ، فجالت فى فى عيونهم وغلطوا فى ونسبوني إلى ما لست منه فى قبيل ولا دبير^(٣) .

وكثيرا ما كان يرجع للحق إذا تبين أنه الصواب فيقول : رشيد الدين الوطوط عن الزمخشري : « وقد جرى بينى وبينه ، فى حياته وأوقات راحته مما يتعلق بفنون الأدب وأقسام علوم العرب ، مسائل أكثر من أن يحصى عددها ، أو يستقصى أمدها ، رجع فيها إلى كلامى ونزل على قضيتى وأحكامى ، فالسميد من إذا سمع الحق ، سكنت شقاشق لجأه ، وسكنت صواعق حجاجه ثم يقول : « وإنما ذكرت هذا القدر اليسير ليعلم فتیان هذه الخلطة ، أن هذا الامام كان صبوراً على مرارة الحق ، وحرارة الصدق ، مع أنه رب هذه البضائع وصاحب هذه الوقائم فهو مع الحق ولو على نفسه^(٤) .

(١) طبقات المفسرين للسيوطى ص ٤١ ط ليدن .

(٢) معجم الادباء لياقوت ١٩ ج ٠

(٣) وفيات الاعيان لأبن خلكان ج ١٠٨ ، المقدم الثمين للفاسى / ٣٠

(٤) رسائل البلقاء لكرديلى — ص ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ط ١٣١٥

وكان مع تلك الصفات ، شديد الوفاء ، يعترف بفضل من أسدى إليه
يدا ، وظل يذكر طول حياته بالخير والتقدير ، ابن وهاس حيث يقول
فيه (١) :

وما أجل الصنع فيه أناختي

يمكة مرضيا مرادا وموردا

ولولا ابن وهاس وسابغ فضله

رعيت هشيما واستعيت مصردا

— ٢ —

وكان على حظ كبير من الفضل والعدين ، والبعد عن الشبهات
والاحتياطي الدين ، حتى لقد كان يحتاط كثيرا في الفتيا والإجازة ويتهرب
غالبا من إجازة أحد مالم يطمئن إليه ، اطمئنانا كاملا في دينه وعلمه
ودليل ذلك حكاية مع الحافظ السلفي وعدم استجوابه عندما استجابه
القاضي عياض ، حتى أنه كتب في رد الزمخشري : الحمد لله الذي لم
يجعل على يدا المبتدع أو فاسق (٢) .

وقد اضطرت ظروف الحياة إلى أن يتصل بالملوك والأمراء مادحا
ومستعجلا بشعره ، كما يصنع علماء عصره ليضمنوا لنفسهم وسائل الحياة
ولينجسوا من الوشايات وأثرها ومجنها البغيضة التي تعترض لها من قبل
والد الزمخشري ، ومع ذلك فطالما ، كان يضمن مدائح الملوك أن يوفقهم
الله ، لازالة الظلم والجور وأن يعم البلاد على أيديهم العدل والرفاهية (٣) .

(١) ديوان الزمخشري ورقة ١٠ ومقدمة الديوان .

(٢) أزهار الرياض - للقاضي عياض ج ٣ : ٢٨٣ .

(٣) راجع مثلا ديوان الزمخشري ورقة ١٦ .

ولما بدأ حياة العزلة عام ١٢ هـ أخذ على نفسه الميثاق لله ، إن من الله عليه بالشفاء « أن لا يبطأ بأخمصه عقبة السلطان ولا واصل بخدمة السلطان أذيله ، وأن يربأ بنفسه ولسانه عن قرض الشعر فيهم ورفع العقيرة في المدح بين أيديهم وأن يعف عن ارتزاق أعطياتهم ، وافقراض صلاتهم مرسومها وإدراارا وتسويفا ونحو ، ويجد في اسقاط اسمه من الديوان ومحوه ، وأن يعنف نفسه حتى تنق . ما استطعت في ذلك فيما خلالها في سنى جاهليتها ، وتغنم بقرصيتها وطمرتها ، وأن يعصم بحبل التوكل ويقمسك ، يقبئل إلى ربه ، ويتنسك ويجعل مسكنه لنفسه مخيسا ويتخذها مخيسا ولا يريم عن قراره مالم يضطره أمر خير لا يجد الصالح بدا من توليه بمحظورة ، وأن لا يدرس من العلوم التي هو بصددتها إلا ما هو مهيب بدارسة إلى الهدى رادع عن مشايمة الهوى ، ومجد عليه في علوم القراءات ، والحديث وأبواب الشرع ، من عرف منه أنه يقصد بارتياده وجه الله تعالى ويرمى به الغرض الراجح في الدين ضاربا صفحا عن يطلبه ليتخذ أهبة للمباهاة وآلة المنافسة ^(١) .

ومن أجل ذلك ، وجدنا روحه العاصفة القوية واضحة في « أطواق الذهب » وفي « مقاباة » بما اشتملا عليه من تحطيم لسورة النفس ، وثورة على المجتمع في عصره بما اشتمل عليه من فساد ورذائل وعلى الحكام الجائرين والموك الظالمين .

وقد كانت عزلة الزمخشري وحياته الروحية في جوار بيت الله الحرام منذ عام ٥١٢ هـ مما أكسبه ، فناء في الله وإيثارا للحق ، وزهدا في الدنيا ولوما للنفس وتطلعا إلى مثل الحياة الروحية الكريمة ، ومن ثم عاش الزمخشري متصوفا ورعا زاهدا قائما عزوفا عن الأهواء والشهوات ، ومع ذلك فقد كان يحارب بدع المتصوفين ، وحقاقت الجاهلين ممن يدعون التصوف ويلبسون الحق بالباطل فرمام بالكذب والخداع والجهل ووصفهم بأعداء العلم والدين ، وسمى مجالس ذكرهم بالمراقص ، واتهمهم بشتى النقائص ، ففى تفسير قوله تعالى « فاتبعونى يحببكم الله » ^(١) يقول الزمخشري ^(٢) : « فاذا رأيت من يذكركم محبة الله ، ويصفق بيديه مع ذكره ويطرب وينعر ويصفق ، فلا تشك فى أنه لا يعرف ما الله ولا يدرى ما محبة الله ، وما تصفيقه ونعمرته ، وصعفته إلا لأنه تصور فى نفسه الخبيثة ، صورة مستمالة معشقة فسامها الله بجهله ودعارته ، ثم صفق وطرب ونعر ، وصعق عن تصورهما ، وربما رأيت المنى قد ملاء ازار ذلك الحب عند صعفته ، وحقى العامة حوالبه قد ملثوا رداءهم بالدموع لما رققهم من حاله » ...

وهكذا نراه يذكركم الزمخشري بعبارات الشين والتقريع فى مناسبة أخرى حيث يقول : « اما يعقده أجهل الناس واعداهم للعلم وأمقتهم للشرع .

وأسوأهم طريقة ، وان كانت طريقتهم عند أمثالهم من الجهلة والسفهاء

(١) سورة آل عمران آية ٣١ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣١٩ .

شيئا ، وهم الفرقة المتفعلة المتفعلة من الصوف وما يدينون به من المحبة والعشق والغنى على كراسيهم خربها الله وفي مراقصهم عظمها الله بآيات الغزل المقولة في المردان ، الذين يسمونهم شهداء وصعقاتهم التي أين عنها صعقة موسى (١)

- ٥ -

هل كان الزمخشري شيعيا ؟

هذا السؤال يحول بخاطرنا عندما نعلم في القراءة في آثار الزمخشري ككتابه ربيع الأبرار ، ولكن قبل أن نجيب على هذا السؤال نتساءل أولا : من عسى أن يكون الشيعي الذي تقصد أن يكون الزمخشري من جماعته ؟ يمكن أن نحدد لهذه الكلمة معنيين أحدهما : المعنى العام ، وهو حب أهل البيت وتكريمهم ، لأنهم أهل البيت ولا يزيد شيئا ، والمعنى الثاني : هو المعنى الخاص : الذي يزيد على ذلك أحقيتهم بالخلافة بنصوص تروى ، فلو أريد بتشيع الزمخشري المعنى العام ، فلسنا بحاجة إلى نفي أو اثبات لأن اثباته شيء مسلم ، ولكن الذي نقصده ، هو المعنى الخاص . ومن ثم يلزمنا أن ندرس كل ما يعيننا على الإجابة عن هذا السؤال وإذا رجعنا إلى تفسيره الكشف نجد أن الكثير مما يرجح كفة الاعتقاد بتشيعه ومن ذلك مثلا نرى . أن في بعض النسخ المطبوعة من الكشف ، تراه يعقب بقوله : « عليه السلام » بعد ذكر « على بن أبي طالب » وهذا مما تعارف عليه الشيعة في تصانيفهم ، وثانيا تراه كثيرا ما يشيد بذكر فضائل أهل البيت وخاصة بالامام على ، فمثلا عند تفسير آية المبالهه ، يأتي بعدديث الكساء ويعقب عليه بقوله : « وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أهل

الكساء عليهم السلام^(١) « وقوله في شعره :

كثر الشك والخلاف وكل

يدعى الفوز بالصراط السوى

فأعصامى بلا اله سواه

ثم حبي لأحمد وعلى

فاز كلب بحب أصحاب كهف

كيف أشقى بحب آل علي^(٢)

ونرى أمثال ذلك مبهثا في تفسيره وشعره ، ولكن هل هذا يمكن أن يثبت لنا انه كان شيعيا بالمعنى الذى نريده ؟ طبعاً لا ... وسبب ذلك واضح ، أما كلمة « عليه السلام » فمن قال أنها مختصة بالشيعية ولم يستعملها غيرهم ، وهل إذا تعارف عليها الشيعة يستلزم عدم استعمالها عند غيرهم ؟ وإذا كان قد استعملها هل تدل على تشيعه حقاً ؟؟ على انه ربما تكون من تصرف النساخ ، حيث اننا نرى كثيراً منهم يضعون الكلمات ويحذفونها طبق أهوائهم ، وعلى فرض ذلك ، فلا يمنع أن يكون كل ذلك مجازاة لشعور ابن وهاس العلوى : أمير مكة : على أن هذه الآراء توافق ميول الزيدية ، ولا سيما إذا قلنا ان أكثر المعتزلة حينذاك كانوا يميلون اليها وان الزمخشري كما ذكر سابقاً تقلد على امام من أئمة الزيدية هو الامام الحاكم الجشمى .

وقد حاولت بعض المراجع الشيعية أن تنسب هذا الرجل اليهم ، وجاءت بقرات من كتابه ربيع البرار من أمثال الأخبار والأحاديث

(١) تفسير الكشاف ج ٩ ص ٣٢٧ .

(٢) معجم الادباء لياقوت - ج ١٩ ص ١٢٩ .

المروية في فضل علي وأهل البيت وذم معاوية^(١) ورجع صاحب (روضات الجنات) إلى نص آخر، في الباب الثاني والخمسين: باب العدل والانصاف من كتاب «ربيع الابرار»: والذي يقرأ صيغة هذا النص والتعليق عليه، لا يخالجه أدنى شك، بأنه صدر عن رجل متشيع أمامي واليك نص الكلام:

• «قال عليه السلام — علي بن أبي طالب — لعامله:

انطلق على دعوى الله وحده، لا شريك له، ولا ترد عن مسأله وتجتازون عليهم ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله ... إلى آخر الخطبة» فيعلق المؤلف على هذا بقوله: قلت: «أنظر إلى هذا البون البائن والتفاوت المتباين، فإن فيه عبرة لمعتبر ودليلا لمتفكر هذا أمير المؤمنين وسيد المسلمين، ووصى رسول رب العالمين بأمر في الصدقة بهذه الأوامر — ويكلها إلى رب المال، من غير اجبار ولا اكراه ولا استخلاف على صحة دعواه، وهذا أبو بكر رضى الله عنه، قاتل على منعها وسفك الدماء، وسبى النساء، واسترق الذرية، وسبى مانعها مرتدين، افاتباع أمير المؤمنين وسيد الوصيين وابن عم رسول رب العالمين، ومن تثبت عصمته ووجبت على الأمة طاعته، ونص رسول الله على امامته أولى أم اتباع من جوز على نفسه الخطأ ... الخ^(٢)

وعندما نقرأ هذا النص الصريح لا يخالجننا أدنى شك، في أن كاتبه كان شيعيا ومتمصبا ولكن علينا أن ندرس هذا النص لنرى مدى قيمته وصلاحيته من حيث الصحة والفساد.

(١) روضات الجنات — محمد باقر الخوسارى — ص ٧٢١ ط طهران.

(٢) ربيع الابرار — للزمخشري — الباب الثاني والخمسين مخطوط بدار الكتب المصرية

فنقول :

أولا : يستبعد جدا أنه ألبس على الزمخشري الظروف التي أحاطت
بأبي بكر وعلى حتى يأتي ويقارن هذا بذاك ، وهل الزمخشري كان يجهل
التاريخ إلى هذا المدى ؟؟

ثانيا : إذا أمعنا في كتاب « ربيع الابرار » وتفحصنا أسلوبه ،
لا نجد مثل هذا الأسلوب من الكلام في أى موضع من مواضع الكتاب
مع أن المناسبات كانت كثيرة لكي يكرر الزمخشري مثل ذلك بنصه أو
بأسلوب آخر في ثنايا فصول كتابه .

ثالثا : ومن الناحية الشكلية فهذا التعليق المذكور نقل من نسخة خطية
بدار الكتب رقم ١٥٥ مجهولة التاريخ والناسخ ولا نجد هذا التعليق في
نسخة رقم ٥١١٢ وبالمقارنة بين النسختين لا نجد حذفاً من الكتاب ،
ولكن أمامنا المجال لنشك في أن في الكتاب زيادة حدثت وان الناسخ
كان شيعيا وبتأثير نزعة زاد هذا الكلام عليه ، فاذا ما رأينا هذه الظاهرة
في بعض آثاره فهي ليست حجة على تشييعه ، بل انها دليل على انه كان
رجلا محايدا ومن كل ما ذكرناه من آراء وحجج يقين لنا ضعف ما
يذهب اليه البعض من نسبة الزمخشري إلى الشيعة ، خاصة وان مدينة
خوارزم كانت سنية وكان أهلها كذلك ، يغلب عليهم هذه النزعة السنية .

الفصل الرابع
اعتزاله وأثره في تفكيره

أخذ الزمخشري نزعة الاعتزال من أستاذه محمود بن جرير الضبي
الاصفهاني (م ٥٠٧ هـ بمرو) ^(١) وقد قدم خوارزم وكان أول من نشر
بها مذهب المعتزلة ، حتى غلبت هذه النزعة عليها فصار الزمخشري بعدها ،
من رأس فضائل خوارزم ^(٢) ، وكان الضبي ، كثير الايادى على الزمخشري
في أيام محنته حتى ، ليقول جار الله في بعض قصائده يمدح نظام الملك
الطوسي (٤٨٥ هـ) :

إليك نظام الملك شكواى فاستمع
إلى بث مجذوذ المعاش ضحكها
طريح خطوب كل يوم تفويه
باينقها تنحى عليه بيركها
ولو لم يل الضبي عنى مراكها

لغالت يد البلوى اديى بعركها ^(٣)
وكذلك تأثر الزمخشري أيضا باستاذه الثانى الحاكم العلامة أبوسعبد
المحسن الجشمى الزيدى المعتزلى ومن ثم نرى فى تفسيره الكشاف وفى
كتابه ربيع الابرار كثيرا من مذاهب وآراء المعتزلة .

(١) يقول السيوطى فى بغية الوعاة ص ٣٨٧ ط أولى : كان الضبي وحيد دهره
وفريد عصره فى اللغة والنحو والطب وكان يضرب به الامثال فى فنون الفضائل وتخرج
على يده جماعة من علماء اللغة والنحو وهو الذى أدخل لى خوارزم مذهب الاعتزال
ونشره بها .

(٢) ربيع الابرار لازمخشري .

(٣) ديوان الزمخشري ورقة ٩١ .

وقد دافع الزمخشري عن عقيدته الاعتزالية دفاع المؤمن بها في كثير من كتبه ، وخاصة الكشف وكان يجاهر بقوله : أنا الشيخ المعتزلي من يبرز لي ، من يبرز لي ، وقد عاش معتمدا باعتزاليته منافعا عنها بكل قواه ، لا يدع فرصة تمر دون أن ينال مغمزا من خصومه ، يهاجمهم بأعنف القول ويسمهم : بالمشبهة - والمجبرة - والحشوية^(١) وأمثال ذلك^(٢) وربما تعدى ذلك إلى الرمي بالخروج عن الاسلام فيقول : أن من ذهب إلى تشبيهه أو ما يؤدى إليه كاجازة الرؤية أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور لم يكن على دين الله الذي هو الاسلام^(٣) ، وهذا مع علمنا بأنه يسمى المعتزلة بعلماء العدل والتوحيد .

وكان خصوم المعتزلة يشنون الحملات على الزمخشري كلما سنحت لهم فرصة ، كما فعل ابن المنير الاسكندراني في تعليقاته على الكشف ، وبيان المواضع الاعتزالية^(٤) فيه وقد هجا الشعراء من خصوم المعتزلة الزمخشري في قصائد ومن ذلك :

وجاعة كفروا برؤية ربهم
هذا ووعد الله ما أن يخلفه
وتلقبوا عداية قلنا أجل
عدلوا ربهم فحسبهم سفه

(١) تفسير الكشف ص ١٣٥ ج ٢

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٩٤ : ١ / ٣١٥

(٣) تفسير الكشف ج ١ ص ٣١٥ ، ٣١٤

(٤) تفسير الكشف تعليقات ابن المنير الاسكندراني ج ٢ ص ٨٤ ، ٨٧

وقال أبو على السكوتى الأصولى :
نطق الكتّاب وانت تفتق بالهوى

فهوى الهوى بك فى المهاوى المتلفة
وقال القاضى أبو عبد الله محمد بن محمد بن على القونسى :
وأتى الأخير الغمر من إتباعهم
يبغى الحجاج معرضا بالبلـكفة
أعنى الخوارزمى والصلف الذى
لم يتأد من جهله بالمعرفة
بل تاه فى نيمد الجهالة معرضا

كحجار وحش فى مهامه^(١) متلفة
ومن هاجموا الزمخشرى القاضى عياض صاحب أزهار الرياض عند
ذكر الحافظ السلفى، إذ يتطرق للزمخشرى والمعتزلة فيقول « وإنما أوردت
ذلك من رسالة الحافظ للزمخشرى مع ما فى بعضه من الغلو وعدم التأدب
من الشرع فى بعض الألفاظ، كى تعلم فضل أهل السنة حيث انتصروا على
هؤلاء بالدليل والبرهان وحطموا رأسهم ورأس شيعتهم بالحجارة^(٢)
والنالكى فى تعلقاته على الكشف لا يسهه أن ينسكز فضل الزمخشرى فى
ابداعة، وإظهاره اعجاز القرآن فيعبر عنه بقوله : « هذا من محاسن
نكته الدالة على أن كان مليا بالخذاقة فى علم البيان^(٣) » وخصوم
الزمخشرى مع ذلك، لم ينسكروا تبخره فى كنوز البلاغة القرآنية

(١) أزهار الرياض - للقاضى عياض - ج ٢ : ص ٢٨٣ ، ٢٩٤

(٢) نفس المصدر

(٣) تفسير الكشف - تعليقات ابن النير - ج ١ : ص ١١٢

فقرى يحيى بن منصور التونسي يشبهه في حين أنه معجب به في قوله :
عجبا لحبر في البلاغة ذائق
على الفصاحة فرده ومؤلفه
جمع المعاني والبيان مكشفا
أمرار قرآن بأكل معرفة
وأضله الله العظيم فزاع عن
سنن الصواب وحاده عنه وحرفه^(١)

ويأتى آخر فيعجب بنفسيره واعجازه ويعترف بأنه أول تفسير يبين
بلاغة القرآن فيرى لزاما على من يريد أن يظفر باعجاز القرآن أن يقرأ
هذا التفسير ولكن بشيء من الحذر والاحتياط كي لا يتأثر بما جاء فيه
من البدع فتفسد عقائده ، فيشترط عليه أولا أن تكون عقائده ثابتة
وثانيا أن يكون له حظ كثير من هذا الفن^(٢) .

— ٢ —

والمعزلة من أهم الفرق الدينية الإسلامية وكانت لها فلسفة واضحة
وتفكير خاص وتنسب في نشأتها إلى واصل بن عطاء أحد تلامهذ الحسن
البصرى ، إذ ناقش أستاذه يوما في مسألة المنزلة بين المنزلين — فيما إذا
اخطأ العبد بارتكاب الكبيرة هل يمكن أن يقال عنه أنه مؤمن أولا ؟
فقال أستاذه اعتزلنا واصل — إذ كان واصل يعتقد بأنه ليس ذلك

(١) ازدهار الرياض - للقاضي عياض - ج ٣ : ص ٢٩٠

(٢) تاريخ ابن خلكان ج ١ : ص ٤٨٦ ط بولاق

الرجل بكافر ولا مؤمن وهو معنى المنزلة بين المنزلتين^(١) ثم أطلق على تابعي وأصل المعتزلة^(٢) وهم أول ما نشئوا من القدرية — التي كانت لا تقول بالقدر خيره وشره وباختيار العبد في أفعاله ليعاقب عليها ويثاب ، ثم عندما ظهر واصل وعمرو بن عبيد من تلامذة الحسن البصري وسما مجال القدرية ، ونقلها إلى مرحلة جديدة فأسس مذهب الاعتزال المعروف الذى ، تلتقى حول أصوله المعتزلة بجميع فرقها .
وأصول مذهب الاعتزال هي^(٣) :

١ — القول بالتوحيد : وفسروه تفسيراً خاصاً من حيث الصفات الثبوتية والسلبية في ذاته ، وأن صفاته عين ذاته وأنه لا يرى بالأبصار لاني الدنيا ولا في الآخرة^(٤) .

٢ — القول بالعدل : وأن الله لا يظلم أحداً ، ولا يفعل القبيح ، وقالوا بخلاف ما قاله الأشاعرة ، فانهم لما نفوا الحسن والقبح العقليين ، قالوا : ليس الحسن إلا ما حسنه الشرع ، وليس القبيح إلا ما قبحه الشرع وأن الله لو أدخل المطيع النار ، والعامى الجنة لم يرتكب فعلاً قبيحاً .
لأنه لا يسأل عما يفعل ولكن المعتزلة الذين سمو أنفسهم « العدلية » ادعوا أن الحكم الفيصل في تلك النظريات هو العقل مستقلاً ، ولا سبيل لحكم الشرع والعقل يستقل بحسن بعض الأفعال كالصدق ، وقبح الآخر كالكذب ، وبحكم بأن القبيح محال على الله لأنه حكيم وفعل القبيح مناف

(١) النية والامل في شرح الملل والنحل — لاحمد بن يحيى المرتضى ص ٦

(٢) الانتصار — لابن الخطا ص ١٢٦ — الملل والنحل — لشهرستانى

(٣) النية والامل — للمرتضى ص ٦

(٤) نفس المصدر السابق

للحكمة ، وأنه لا يهين أسباب الظلم ، فجعل المباد أحرارا ، في أفعالهم إذ أنها منسوبة إليهم^(١) .

٣ — الوعد والوعيد أى أن الله صادق في وعده ووعيده لا مبدل لكلماته — فلا يغفر الكبيرة الا بعد التوبة .

٤ — المنزلة بين المنزلتين : وقد أشرنا إليه سابقا^(٢) .

٥ — الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

هذه أصول أجمعت عليها المعتزلة واعتنقوها كبدأ أساسى لمذهبهم ، حتى أن الخياط يقول فى كتابه « الانتصار » : « وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة ، التوحيد والعدل ، الوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين . والأمر بالمعروف فهو معقلى^(٣) » . ولقد ذكر المرتضى ما اجمعت عليه المعتزلة بقوله^(٤) « اجمعت المعتزلة على أن للعالم محدثا قديما قادرا عالما ، حيا ، لالمان ، ليس بجسم ، ولا عرض ولا جوهر ، غنيا واحدا ، لا يدرك بحاسة ، عدلا حكيما ، لا يفعل القبيح ، ولا يريد كلف ، تعريضا للثواب ، وممكن من الفعل وازاح العلة ، ولا بد من الجزاء ، وذهبت المعتزلة أيضا إلى وجوب البعثة حيث حسنت ، ولا بد للرسول من شرع جديد أو إحياء مندرس ، أو فائدة لم تحصل من غيره ، وأن آخر الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم — والقرآن معجزة له : وأن الإيمان قول ومعرفة وعمل واجمعوا على تولى الصحابة ، واختلفوا فى

(١) النية والامل ٦ ، الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٣٢ رسائل الجاحظ ص ١٥ ، ٩٧

(٢) تفسير الكشاف ج ١ / ص ٢٠٧

(٣) الانتصار لابن الخياط — ص ١٢٦ تحقيق الدكتور نبيرج ط دار الكتب

عام ١٩٢٥ .

(٤) النية والامل فى شرح الملل والنحل — لاحمد بن يحيى المرتضى ص ٦ .

عثمان (١).

وقد تأثر المعتزلة في أفكارهم بآراء الجهمية ، وكانت طريقا إلى فتح باب التأويل ، وسلوك المجاز في مسائل التوحيد وتفسير القرآن ولقد كان هذا الباب مقفلا قبلها لا يطرقة أحد ولا يخطر له ، ثم درج المعتزلة على أثر الجهمية (٢).

وكانوا يحاولون بهذه الفلسفة الجديدة تأويل آيات الصفات والتنزيه البحث الخالص ، وذاتية الصفات لله تعالى وخلق القرآن ، ونفى الجهة عن الباري (٣) فكانت هذه الأفكار بمنزلة اعتراض العقل على الأحكام والمقررات المحدودة الضيقة النطاق ، فانهم من هذه الناحية يعتبرون ، من دعاة التحرر العقلي والروحي في الأمة الإسلامية ، فبينما كانت الأفكار حول أفعال البشر تدور في إطار ضيق ، حطموا هذا القيد ، وقالوا بحرية الانسان في أفعاله ، ونفوا الظلم عن الله .

ويرى المستشرق ادوارد ج براون — أن العراق كان مولد ومرتم هذه الفرق (٤) — ولكن يخالفه في ذلك « المستشرق فون كريمر » حيث يرى أن نشأتهم كانت في دمشق وتأثروا بآراء المتألميين البيزنطيين وخاصة يحيى الدمشقي (٥) ويعتقد « فون كريمر » أن فكرة حرية الإرادة التي قال بها معبد الجهنى (م ٨٠ هـ ٦٩٩ م) الذي قتل بأمر عبد الملك الأموي ٦٥ —

(١) النية والأمل في شرح الملل والنحل — لأحمد بن يحيى المرتضى ص ٦

(٢) تاريخ الجهمية والمعتزلة — للقاسم الدمشقي — ص ١٤ ط المنار

(٣) تاريخ الجهمية — للقاسم الدمشقي — ص ٩٤ ط المنار

(٤) تاريخ الأدب الإيراني لادوارد ج براون . ص ٤١٣ ط طهران

(٥) نفس المرجع السابق

٨٦٠ / ٦٨٥ — ٧٠٥ م) أو الحجاج بن يوسف — قد أذاعها في دمشق^(١) — ويقول العوفي : « أن هشام بن عبد الملك أمر بقتل « غيلان القدرى » في دمشق ، بحريجة نشر فكرة التفويض وحرية الإرادة^(٢) .

لقد كانت المعتزلة في ابتداء أمرها طائفة دينية لاشأن لها بالسياسة مع عكس ما كانت عليه الخوارج والشيعة والمرجئة ، إلا أنها لم تلبث أن خاضت غمارها فتكلمت في الإمامة وشروطها وذهبت إلى أن الأمة هي التي تختار الإمام سواء كان قرشياً أو غيره من أهل ملة الإسلام وأهل العدالة والإيمان وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك وأن الله لم ينص على رجل بعينه وقد ذهب إلى هذا المذهب المعتزلة بأسرها وجماعة من الزيدية والخوارج والاباضية إلا النجدات من فرق الخوارج .

قال جولد تسهر — عن علاقة الشيعة بالمعتزلة مما هو جدير بالملاحظة أن طوائف الشيعة برغم تشعبها قد سادت فيها مبادئ المعتزلة في كثير من المسائل ولا سيما ما لم يتأثر منها بعمقيدة الإمام أو المهدي ، فقد استطاع فقهاء الشيعة وعلماء التوحيد منهم أن يستفيدوا من أفكار المعتزلة ويستخدموها لدعم عقائدهم الخاصة وهذا يدل على أن الشيعة آثروا أن يسموا أنفسهم أهل العدل ويظهر التشابه بين المعتزلة والشيعة فيما يدعيه من أن هؤلاء أن علياً والأئمة من آل بيته هم أول من قالوا بحرية الإرادة وأن المعتزلة لم يزيدوا شيئاً أكثر من شرحهم ، وهكذا تأثر الشيعة والمعتزلة بعضهم ببعض في عقيدتهم القائلة أن الإمام المنتظر سوف يظهر ويملا الأرض قسطاً وعدلاً وهذا هو ما تقوله للزيدية أيضاً وقد نسبت

(١) تاريخ ادب إيران — لادوارد براون. ج ١ ، ٤١٤ ، ط طهران

(٢) جامع الحكايات — للعوفي — باب أحوال الخلفاء الامويين ط طهران

المعتزلة عقائدها إلى علي بن أبي طالب وأعوانه مؤسسى الاعتزال وعلم الكلام وذكروا الامام عليا في الطبقة الأولى من طبقاتهم وفي الطبقة الثانية الحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي^(١).

ولاشك أنه كانت عقيدة الاعتزال وعقيدة التشيع الكلامي تسير، حينذاك في أكثر الأحيان في مجال واحد، وأما مسألة التأثير والتأثر التي أشار إليها — جولدزميز — يمكن أن تكون من قبيل تأثير العلقان بعمل واحد ومشابه ولا تكون هناك تأثير وتأثر، وإن كان هناك نقاط يختلفون بعضهم مع بعض، فنرى المعتزلة تقول: « بالتفويض والاشاعة بالجبر والشيعة تقول بأنه لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين^(٢) ». وقد رأينا المعتزلة تصل إلى ذروتها في عصر المأمون^(٣) ووقعت الخلافة تحت نفوذهم وسلطانهم الفكري، حتى أن المأمون (١٩٨ — ٢١٨ — ٨١٣ م) أرغم العلماء بأن يساندوا ويؤيدوا فكرة خلق القرآن. وقد كتب إلى اسحق بن إبراهيم يقول: أن أي واحد من العلماء لا يؤيد هذا الرأي يمتدب وقد ذاق العذاب والحبس والتفكيك أربعة وعشرون من أبرز العلماء منهم أحمد بن حنبل (م ٢٤١ هـ) فصدقوا وأيدوا الرأي إلا ابن حنبل ويحدثنا الطبري وأبو الفداء بأن المأمون أمر عامله ببغداد وهو حين ذلك اسحق بن إبراهيم أن يمتحن القضاء والعلماء والشهود وكانوا يرغمون

(١) تاريخ الاسلام السياسي والدين والعرف الاجتماعي للدكتور حسن إبراهيم حسن

ص ٤١٨ ج ١ .

(٢) الباب الحادي عشر للعلامة الحلي — العراق، عقائد الصدوق ط طهران .

(٣) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٠٩٩ .

على القول بعدم روية الله في القيامة^(١).

ومع ذلك كله لا يسعنا إلا أن نطاطىء رؤوسنا لهؤلاء — المعتزلة
اجلالا واكبارا لخدمات كبرى أسدوها للفكر العربى والثقافة الإسلامية
إذ وسعوا افقها وخدموا بآرائهم مجتمعها لأن الجمود الفكرى وعدم
الانتقال من دائرة الألفاظ كان معناه تضيق نطاق الدين وجعله جامدا
غير مؤثرا فى الحياة حسب مصالح الزمان والمكان، وطبعها هذا مما لا يتفق
مع سماحة الدين وكانت من آراء المعتزلة حربا لاهوادة فيها على
أفكار التجسيم والحلول وغيرها وقد صقلت آراء المعتزلة الأفكار
الإسلامية وهذبته، واعطتها روحا جديدا إذ اعطوا العقل مكانه ممتازة
وجعلوه نبراسا لهداية البشر ومصباحا فى ظلام الطريق وفيصلا فى كل شىء،
وقد استخدموا العقل فى إستدلالاتهم وآرائهم الفلسفية والكلامية،
وكان الهدف الأسمى لذلك تنزيه البارى عن الشبهات وعملا لا يليق به تعالى
ولحاجة المعتزلة للجدل احيوا المنطق اليونانى، واستخدموا قضاياء وحججه
فى الدفاع عن آرائهم وتأثرت بتلك الطريقة العلوم الإسلامية يل تأثر بها
كذلك، الأدب شعره ونثره على حد سواء.

وقد اختلف المستشرقان « فون كريمر » وزميله « اشتاينر » فى مدى
تأثر المعتزلة بالأفكار الخارجية التى وفدت إلى العقل الإسلامى من الكتب
الترجمة عن اليونان فذهب « اشتاينر » إلى أن المعتزلة فى مراحلها الأولية
كانت مستقلة وبعيدة عن أى تأثير خارجى . ولكنهم استمدوا قدرتهم
العقلية بعد عصر الترجمة — عهد المنصور والمأمون — من كتب الطبيعة

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ - ٤ ص ١٥٢٣ - تاريخ أبى الفداء - ج ٢ - ص ٣٠.

على - ط الأولى تبين، كذب المفترى لابن عساكر ص ١١٦، وراجع ظهر الاسلام ج ٤
وضعى الاسلام ج ٢ - لاجد أمين - ط ٥٥ - ١٩٥٧ .

والفلسفة اليونانية ، واستخرجوا منها أفكاراً^(١) اعتزالية ويقول زميله « فون كيرير » أن أفكارهم كانت واقعة تحت نفوذ أفكار المسيحية البيزنطية في دمشق^(٢) .

والذى يمكننا أن نذهب إليه في هذا الصدد هو أنه بلا شك وبعد ترجمة الثقافات الأجنبية قد قرأ المعتزلة الكتب المترجمة وخاصة المنطق والفلسفة والطبيعة واستفادوا منها ، لأن هذا النحو من التفكير والاستدلال المنطقي الدقيق الواسع ، والبحث عن العرض والجوهر والمادة وسواها لم يكن مألوفاً في صدر الإسلام . فطمع المعتزلة أقوالهم وأفكارهم بما استفادوا من الثقافات الأجنبية واستخرجوا عنها أفكاراً إسلامية جديدة ، ولإن لبست ثوب المنطق اليوناني^(٣) .

— ٣ —

هذا هو مذهب الاعتزال وأصوله الذى استبحال أيضا إلى فرق عديدة من مثل النظامية والجاحظية : وغيرها وقد اسقم صدى الاعتزال قويا مرددا بعد ما بلغه من سلطان ونفوذ في عهد المأمون ولقد حاربت الهيئات الإسلامية الاعتزال بعد عصر المأمون ، ومع ذلك ظل المعتزلة على رأيهم من المجاهرة برأيهم والدفاع عنه ، وكان ظهور الزمخشري في القرنين

(١) تاريخ الاداب لايراني - لادوار براون - ج ٢٥ ط طهران

(٢) الترجمة السابق من ٤٩٣ ، ٤٠٨ .

(٣) راجع عقائد المعتزلة وأصولها في مقالات الاسلاميين للامام الاشعري ج ٢ ص ٢١٠

وما بعدها الطبعة الأولى .

والخامس السادس الهجرى من أقوى الأسباب فى عودة الاعتزال إلى الحياة العقلية الإسلامية من جديد مرة أخرى .

ويدافع الزمخشري عن أصول الاعتزال فى كتبه وتفسيره خاصة -
هذه الأصول التى سبق أن عرضنا لها وأشرنا إليها .

وقد يقف الزمخشري فى بعض الأحيان ، موقفا وسطا بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، وهذا من النادر ومن مثل ذلك ، ما كتبه فى تفسير الآية الكريمة « أن تعذبهم فإنهم عبادك وأن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ^(١) » حيث يقول : « فإن قلت . المغفرة لا تكون للكفار فكيف قال « وإن تغفر لهم » قلت : ما قال أنك تغفر لهم ولكنه بنى الكلام على إن غفرت ، فقال أن عذبهم عدت لأنهم احقوا بالعذاب وإن غفرت لهم مم كفرهم ، ولم تقم فى المغفرة وجه حكمة لأن المغفرة حسنة ، لكل مجرم فى المعقول ، بل حتى لو كان المجرم أعظم جرما ، كان العفو عنه أحسن ويعلق على هذا ابن الاسكندراني فيقول : تذبذب الزمخشري فى هذا الموضع ، فلا إلى أهل السنة ولا إلى القدرية « المعتزلة » ويفيض فى شرح ذلك ويبان أن العفو عن المجرم ، لا يأتلف لقواعد السنة ، ولا يأتلف أيضا كما يقول : بنزعات القدرية ^(٢)

لقد كان الاعتزال ذا أثر كبير فى تفكير الزمخشري وآرائه فهو

(١) سورة المائدة آية ١١٨ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ : ص ٤٩٣ : ط الحلبي .

قد ألزم نفسه من جهة السير على منهج المعتزلة العقائدى ، وهو من جهة أخرى قد دون أصول الاعتزال فى مؤلفاته وخاصة تفسيره ، وهو من جهة ثالثة : قد جعل هدفه الدفاع عن نزعة الاعتزال وتأييد آراء المعتزلة فى أكثر من مؤلف من مؤلفاته .

وسوف نعرض لأثر الاعتزال الفكرى فى تفسيره ، عند حديثنا فى الكشف فى القسم الثانى من الرسالة .

* * *

القسم الثاني

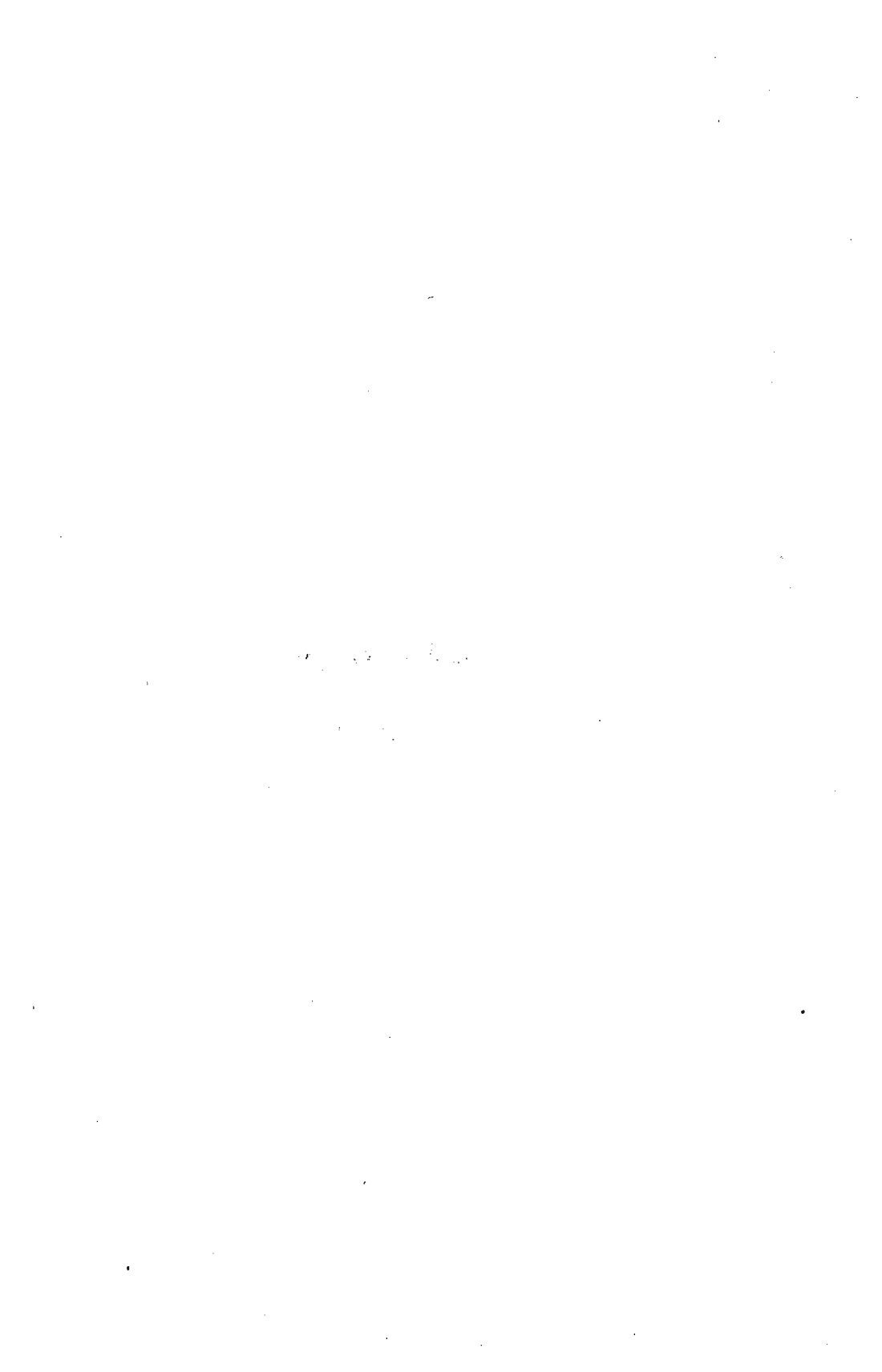
فكرة الزمخشري اللغوي والأديب

الباب الأول

الفصل الأول

مواهبه في اللغة

وعلمها



ذاعت شهرة الزمخشري في اللغة وعلومها ، وكان إماما فيها ، وعلمها يحج إليه طلابها ، ومرجعا للباحثين والدارسين في شتى الفروع ، من متن اللغة ، والنحو ، والصرف ، والاشتقاق وعلم القراءات ، وسفصل الكلام على ذلك في هذا المجال .

الزمخشري اللغوي :

١ - أما جهوده في متن اللغة ، وتحقيق مفرداتها فيشهد به ما ألفه في ذلك ، من نقائس الآثار ، مثل : « الأساس » و « الفائق » وسواهما ، وسنخصص لدراسة هذا الجانب « الباب الثاني من القسم الثاني من البحث » . ولا شك أن نبوغ الزمخشري اللغوي كان مدينا لعوامل كثيرة ، في مقدمتها : تلمذته على أئمة اللغة العربية في خوارزم ، وبخارى ، وخراسان ، وفي مقدمتهم « أبو جرير الضبي الأصفهاني » و « أبو منصور الجواليقي » وسواهما ومنها ، كذلك : طموحه بأن يبلغ مبلغ أئمة اللغة الكبار الذين نبغوا فيها من علماء خوارزم وما جاورها من الأقطار ، كالجوهرى ، والميداني ، والأزهري وسواهم ..

وقد أخذ الزمخشري نفسه أول اقباله على اللغة العربية ، بقراءة كتب أئمة اللغة وأعلامها ، كالخليل وسيبويه ، وابن دريد ، وأبي على الفارسي ، والزجاج ، والرماني وسواهم .. حيث أكب على مطالعتها ، وتعمق في فهمها ، وأفاد منها ثقافته اللغوية الواسعة ، ورأى في الإمامة بذلك خير معين

له على ما يريد له نفسه ، من تفوق في فهم كلام العرب وبلاغتهم ، وفهم القرآن وأعجازه ، ثم نجد لرحلات الزمخشري ولقاءه العلماء وتلمذته عليهم في كل مكان ، ومناظرته للآدباء والشعراء ، وسماعه لمختلف اللهجات ، والبلاغات ، والفصاحات أثرا كبيرا في هذه الثقافة اللغوية الواسعة .

واقامة الزمخشري في مكة ، ورحلاته في أنحاء الجزيرة العربية ، وفي البادية ، والحضر ولقاؤه للاعراب ولرواة اللغة ، وسماعه اللهجات العربية في أنحاء الجزيرة العربية ^(١) شمالها وجنوبها ، كان له أثر ضخم في عظمة ثقافته اللغوية ، وامامته فيها . وكان الزمخشري على نهج اللغويين الأوائل يسمعون من العرب ويتأثرون بذلك في تفسيرهم لكلام الله ، ولقد رأيناه يطوف بأثناء أرض العرب ، وكان أيضا ذا حاسة لغوية دقيقة تفرق بين لفظة ولفظة وكلمة وكلمة ، وحرف وحرف .

٢ — والزمخشري يقف مع أئمة اللغة وفحولها في طبقة واحدة ، وشهرته اللغوية أكبر من أن تجحد ، وإذا ما ذكرنا الخليل ، وابن دريد ، والأزهري ، والجوهري ، وابن جني ، وسواهم من أئمة أعلام اللغة ،

(١) يقول في مادة (هـش الورق) : أن معناها خبطه ومعنى قوله تعالى « وأهش بها على غنمي » أى اخبط على رؤوس غنمي ، وعن إسماعيل بن عباد : اكلت حقا وابن لبون وجذع وهشة تخب وسيلا دهم « سمعته من غير واحد من العرب » تفسير الكشاف ج ٢ : ص ٢٩٨ ط الحلبي ، ويقول في الكشاف ج ٢ : ص ١٢٨ « سمعت أهل السروات بمكة يقولون في دعائهم : يا سيدي ويا مولاي ، ويقول في الكشاف كذلك ج ١ : ص ٨٨ : « عن نافه وقاسم أنهما وقفوا على « لا ريب » من آية ٢ : سورة البقرة « ولا بد للواقف من أن ينوى خيرا ، ونظيره قوله تعالى : قالوا لا خير وقول العرب . لا بأس » وهذه كثيرة في لسان أهل الحجاز والتقدير لا ريب فيه ويقول الزمخشري في موضع آخر من الكشاف ج ٣/ص ٢٥٧ وانشدني بعض العرب .

فلا شك اننا نذكر معهم الزمخشري وجهوده اللغوية الكبيرة التي كانت أكبر خدمة لمتن اللغة العربية ومفرداتها .

ولقد خدم الزمخشري - وهو ممن ولدوا ونشأوا في بيئات غير عربية - اللغة العربية خدمات صادقة تذكر دائماً بالتقدير والاعجاب والاعتزاز من الباحثين ، والمنصفين على مرور الأيام .

٣ - وفي « الأساس » و « الفائق » جهود كبيرة كان للزمخشري الفضل في الظفر بها ، في سبيل خدمة لغة القرآن .

ولقد شهد للزمخشري ، بالقوى في المعجم اللغوي كتابه « الأساس »^(١) الذى يدل على ثقافة واسعة كان الزمخشري يميل اليها من عنفوان شبابه ، وكان يقبل عليها مقبلاً ومستفيداً وقارئاً ودارساً حتى نبغ فيها وتفوق في جوانبها تفوقاً قلما وجد لأحد من معاصريه . ومنهجه في تحقيق الأوضاع اللغوية في (الأساس) وغيره ان يذكر أولاً المعنى الحقيقي للكلمة الذى وضع له اللفظ أولاً ثم يذكر ما وضع له اللفظ ثانياً من معنى آخر يناسب الأول وهذا منهجه في تحقيق الأوضاع الأصلية ، وبيان مناسبات المعانى اللغوية ، بعضها مع بعض ، مع كون اللفظ حقيقة لغوية في كل منها .

والكشف له منزلة كبيرة عند علماء اللغة وعلماء التفسير ولقد كان مرجعاً المفسرين وبعراً يفرقون من منهل ، رجع اليه كثيرون منهم السيوطي ، وابن كثير في تفسيره ، والبيضاوي ، وأبو حيان ، وكذلك فعل المفسر الطبرسي الذى لخص الكشف وعلق عليه وتأثر ببعض آرائه وأفكاره ، وخاصة في تفسيره (مجمع البيان) وسنعرض لذلك بشيء من التفصيل عند

(١) اختصره ابن حجر في كتابه (غراس الأساس) ، وكذلك فعل النواوى (م ٩٣١) في كتابه (أحكام الأساس) .

ببحثنا عن الكشف ، ويجهد الزمخشري نفسه في (كشفه) في تعقب مفردات القرآن الكريم ، والحديث عنها حديثا واسعا ، وزنتها بأمثالها من المشتقات ، واستنباط معانيها ، بالرجوع كثيرا إلى مصادرهما وأصولهما اللغوية ونظائرها وأشباهاها في الاشتقاق .

وفي « أطواق الذهب » و « مقامات الزمخشري » تبنى المادة اللغوية ، فيها سهولة ، طيبة ، مفيدة للناشئين الذين يقبلون على دراسة لغات العرب ، فهم وان قصد بهما أولا الأسلوب والمعنى والموضوع إلا أنه لا شك أن تعليم المادة اللغوية ، وتسهيل تراكيب اللغة أمام الناشئين ان كان قصدا مقصودا للزمخشري منها كما كان يقصده كتأليف المقامات ، من أمثال البديع ، والحريري ومن لف لفهما .

٤ -- وأما رأى الزمخشري في اللغة هل هي اصطلاح أو توقيف ، فهو كراى المعتزلة اضراب الفارسي ، وابن جنى ، الذين يذهبون إلى انها اصطلاح ^(١) إذ ان ذلك مما يخدم رأى المعتزلة من ناحية وفى العدل والتوحيد أو حرية الارادة ، من ناحية أخرى ، إلى أن هذا الراى كذلك يخدم اللغة العربية من جانب — الاتساع اللغوى — إذ يحوز المعتزلة القلب ^(٢) . ويرون أن اللفظ المشترك — وهو الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة واحدة — ممكن الوقوع لجواز أن يقع من واضعين ، بأن يضع أحدهما لفظا لمعنى ثم يضعه الآخر لمعنى آخر . وبشتهر ذلك اللفظ بين الطائفتين فى افادة المعنيين ومن ذهب إلى ذلك ابن جنى المعزلى وأما أهل السنة ومنهم ابن فارس فيذهبون إلى أن اللغة توقيف .

(١) راجع المزمهر للسيوطى ج ١ : ص ٨ وما بعدها ط ١٩٥٨ ، الخصائص لابن جنى

ج ١ : ص ٤٧ ط ١٩٥٢ .

(٢) راجع المزمهر للسيوطى ج ١ : ص ٤٧٦ ط ١٩٥٩

ومن التوسع اللغوى الذى يذهب اليه المعتزلة اجازة الاستشهاد ، بشعر
المحدثين الذى يذهب اليه الزمخشري وغيره ^(١) ويقول السيوطى : « ووقع
فى كلام الزمخشري وغيره الاستشهاد بشعر أبى تمام وسواه من المحدثين ،
وقال اما ابن جنى فيذهب إلى ان الاستشهاد بشعر المولدين فى المعانى ،
كما يستشهد بشعر العرب فى الألفاظ ^(٢) .

ومن باب التوسع اللغوى تقسيم المعتزلة اللغة إلى حقيقة ومجاز ويضيف
الزمخشري فيجعل الكلام العربى قد يكون ، مبنياً على التحقيق وقد يكون
مبنياً على التخيل وذلك عند تفسيره للاية : إنا عرضنا الأمانة على السموات
والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ^(٣) . والمعتزلة يذهبون ان العبور فى
اللغة أكثر وأعم ، يقول : المرتضى ، وليس يجب أن تأخذ العرب بالتحقيق
فى كلامها فان تجوزها واستعارتها أكثر ^(٤) ، ويقول ابن جنى : واعلم ان
أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة ^(٥) .

وينفى « الاسفرايينى » رهو من الأشعرية ، المجاز فى لغة العرب ^(٦)
وينفى ذلك عنه امام الحرمين والغزالى ^(٧) ولهذه الأصول أثر كبير فى آراء
الزمخشري فى التوسع اللغوى ^(٨) ومن باب التوسع اللغوى أيضا ترى

(١) راجع الكشف ج ١ : ص ١٧٠ ط الحلبى .

(٢) الخصائص لابن جنى - ج ١ : ص ١٤ ط ١٩٥١ .

(٣) الكشف ج ٢ ص ٥٢ ، ٥٣ ط الحلبى .

(٤) امالى - السيد المرتضى - ج ٣ : ص ٢٦ .

(٥) الزهر - السيوطى - ج ١ : ص ٣٥٧ ط ١٩٥٨ .

(٦) الزهر - السيوطى - ج ١ ص ٣٦١ ط ٥٨ ،

(٧) المارجم السابق .

(٨) منهج الزمخشري فى التفسير - مصنفى الجوينى - ص ٢٤٢ .

المعتزلة ومنهم ابن جنى والزمنشري أن لغات العرب كلها حجة^(١) .
 ٥ — سيذهب العلماء إلى أنه لا يحتاج بكلام الموالدين والمتحدثين في
 اللغة العربية^(٢) ويخالفهم الزمنشري فيستثنى من ذلك أئمة اللغة العربية ،
 داعيا إلى جعل الوثوق بكلامهم كالوثوق برواياتهم وهو رأى له وزنه -
 وقيمته .

ويروى الزمنشري في تفسيره شعرا لحبيب بن اوس ويقول^(٣) :
 (وهو وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره في اللغة ، فهو من علماء العربية ،
 فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ، الا ترى إلى قول العلماء « الدليل عليه
 بيت الحاسة » فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته واتقانه^(٤) ويستشهد أيضا
 بشعر المعري^(٥) وبكلام أعرابي أمام الرشيد^(٦) وبشعر عضد الدولة الديلمي
 (فناخسرو)^(٧) — ويتخلى هذه القاعدة أحيانا فيستشهد بشعر الجن^(٨)
 وبغيره^(٩) ، ويستدل الزمنشري كثيرا بالقول المأثور وخاصة في تفسيره^(١٠) ،
 ويجعل للتوسع اللغوي مجالا كبيرا في اللغة وهو أهم من المجاز وكذلك
 المجاز بأقسامه .

-
- (١) راجع الكشف ج ١ ص ٧٧ ط الحلبي ، الخصائص لابن جنى ج ٢ : ص ١٠
 ط ٩٥٢ الزهر للسيوطي ج ١ : ص ٢٥٧ ط ٥٨ .
 (٢) الاقتراح للسيوطي ص ٣١ ط حيدر آباد ١٣٤٠ هـ .
 (٣) تفسير الكشف ج ١ : ص ١٧٠ ط الحلبي .
 (٤) تفسير الكشف ج ١ : ص ١٧٠ .
 (٥) تفسير الكشف ج ٢ : ص ٣٢٨ .
 (٦) تفسير الكشف ج ٣ : ص ١٨٣ .
 (٧) تفسير الكشف ج ٣ : ص ٢٦٥ .
 (٨) شواهد الكشف ص ٥٣ .
 (٩) يكثر الاستشهاد ويقول : « الحسن البصري » راجع مثلا تفسير الكشف ج ٢
 ص ٢٩٥ .
 (١٠) راجع الكشف ج ٣ : ص ١٧٦ .

الزمخشري النحوى :

(١) تفوق الزمخشري على علماء عصره فى أصول النحو وفروعه ، وطارت شهرته كامام من أئمة النحو والعربية فى عصره ، ورجع اليه المستفيدون والدارسون فى مسائلها .

والزمخشري الكثير من المؤلفات المشهورة فى النحو ، ومنها « المفصل » و « الإيموج » و « الحكاكة » وسواها مما سبق أن أشرنا اليها ، ولا تزال هذه الكتب مصادر مهمة فى بحوث النحو .

(ب) وقد درس الزمخشري النحو على فحول العلماء فى عصره وهاجر إلى بلاد كثيرة ، ليلقى بها علماء النحو وأئمة ، وفى رحلته إلى مكة قرأ « الكتاب لسيبويه » على عبد الله اليابرى ، وفى خوارزم تقلد على أبى مضر ، وفى بغداد حضر مجالس الجواليقى ، وسواهم من أئمة اللغة والنحو ، الذين أفاد منهم وتأثر بهم فى الكثير من آرائه النحوية واجتهاداته فى مختلف أبواب النحو ، الذى نبغ الزمخشري وظهرت عبقرية فيه ، حتى لقد أصبح مطمح أنظار العلماء فى هذا الميدان ، فأقبلوا عليه للاستفادة من محاضراته وحلقات دروسه . وأصبحت أراؤه فى النحو موضوع اهتمام العلماء والباحثين يقبلون على تفهمها ، لاهجين بالثناء عليه والقنوية به . وكانت كتبه تدرس فى مدارس النحو فى العالم الاسلامى القديم ، وبلغ من شهرتها وأهميتها ، فى هذا المضمار ان الملك عيسى الأيوبى خصص مائة دينار جائزة لمن يحفظ الفصل ^(١) وقد اهتم الشارحون بكتبه النحوية فشرحوها وعلقوا ^(٢) عليها ورجع العلماء إلى آرائه ، والذين كتبوا عن الزمخشري

يصفونه ، بأستاذ زمانه وأفضل أهل عصره في علوم اللغة ، ويصفونه بحودة الترجمة وحدة الذكاء ، وكان يضرب به المثل في النحو واللغة (١) .

وقد نوه « ابن يعيش » في شرحه على « المفصل » بهذا الكتاب فقال : « لما كان الكشف الموسوم بالمفصل من تأليف العلامة أبي القاسم الزمخشري رحمه الله جليلا قدره ، نابها ذكره ، قد جمعت أصول هذا العلم فصوله ، وأوجز لفظه ، فتمسر على الطالب تحصيله ... » استغرت الله في إهداء كتاب أشرح فيه مشكلة وأوضح مجمله واتبع كل حكم منه حججه وعالله (٢) .

(ج) ويؤكد الزمخشري في مقدمته لكتاب المفصل ان سائر العلوم الاسلامية ، من فقه ، وتوحيد ، وتفسير وغيرها ، مفقور إلى النحو ، في تفهمه ، والالمام به ، ويقول : ان معظم أبواب أصول الفقه ومسائله مبنية على علم الاعراب . وان التفاسير مشحونة بالروايات عن سيبويه ، والاختصاص والكسائي ، والفراء ، وغيرهم من البصريين والكوفيين .

وقد جعل الزمخشري النحو خادما لتفسير كلام الله ومبيننا لمعانيه ، وموضعا لأغراضه ، كما يراه هو وهذا مما يتضح بجلاء في كتابه « الكشف » فهو يرجع اعرابا على اعراب ، ويحمل الأسلوب على وجه دون وجه ، متى كان في ذلك ما يبين المعنى المقصود ، ويكشفه ويوضحه ، ويخضع كل ذلك لاثبات آرائه الاعتزالية ، كما سنوضح ذلك عند بحثنا عن تفسيره ، وهو لا يضيق ذرعا في تفسيره بالاجتهاد اللغوي ، فيبيح القياس ويجيز التأويل اللغوي والتضمن الذي أجازاه من سبقوه ، وقد يمر ببعض الوجوه النحوية

(١) انباء الرواة « للفتى » ج ٣ ص ٢٦٥ ط دار الكتب المصرية .

(٢) مقدمة المفصل « شرح ابن يعيش » .

التي بذكرها المفسرون في اعراب كلام الله ، مر الكرام مؤكدا أن صون القرآن عن مثل هذا التعمف واجب (١) :

وبذلك يجعل للنحو وظيفة معنوية هي الابانة عن معاني الكلام ووجوه فهمه .

ويضفي على النحو أهمية خاصة في تفهم القرآن وجوانب بلاغته حيث يقول في مقدمة تفسيره الكشف : « ان من يريد ان يخوض هذا الميدان - تفسير القرآن - يشترط عليه أولا أن يكون قد برع في علمي المعاني والبيان وأن يكون فارسا في علم الاعراب ويكون له حظ وافر منه ، مقدما في معرفة كتاب سيبويه على حملته (٢) .

(د) وللزمخشري كثير من الآراء والمذاهب في النحو سواء من ناحية أصوله أم فروعها ، وكتابه « المفصل » خير شاهد على ذلك بما حوى من آراء دقيقة ومسائل عويصة .

وهذه طائفة من آراء الزمخشري واجتهاده في النحو :

١ - يرى الكوفيون في (إذا - المفجأة) مثل : قوله تعالى : فاذا هي حية تسمى (٣) ، أنها حرف ، وكذلك ذهب الاخفش وابن مالك ، ويرى اللبرد ، والفارسي وابن جني وأبو بكر الخياط ، وابن عصفور أنها ظرف مكان ، ويميل الرياشي ، والزجاج ، والزمخشري وابن طاهر إلى أنها ظرف زمان (٤) .

٢ - الحق الزمخشري « بانما المكسورة » « إنما المفتوحة » فقال

(١) تفسير الكشف ج ٢ : ص ٥٩٨ « سورة الصافات آية ٥ » .

(٢) مقدمة تفسير الكشف .

(٣) في آية ٢٠ سورة طه .

(٤) هم الهوامم « السبوطي » ج ١ : ص ٢٠٧ .

انها تفيد الحصر ، لأنها فرعها ، وما ثبت للأصل ثبت الفرع وقد اجتمعا في قوله تعالى « إنما يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد » فالأولى لقصر الصفة على الموصوف ، والثانية بالعكس .

وقال أبو حيان : هذا الشيء انفرد به ، وقد وافق البيضاوى الزمخشري ، وكذلك القنوخى في « الأقصى القريب » ولم يتعرض لها سواهم ^(١) .

٣ — يجعل الزمخشري من أخوات « صار » الفعلين « غدا » و « راح » بمعنى « صار » أو بمعنى وقع فعله وقت الغد والرواح ، ويلحق بصار كذلك « قعد » وجعل منه الزمخشري قوله تعالى « فقع مذموما ^(٢) » .

٤ — يقول الزمخشري في سبب بناء « الآن » انه هو وقوعه في أول أحواله بالآلف واللام ، لأن حق الاسم في أول أحواله التجرد منها ، ثم يعرض تعريفه ، فيلحقه ، فلما وقع « الآن » في أول أحواله بالآلف واللام خالف الأسماء وأشبه الحروف . ويرده ابن مالك ، بأنوم بناء مثل (الجاء الغفير) و (اللات) ونحوهما ، مما وقع في أول أحواله بالآلف واللام ، وبأنه لو كانت مخالفة الاسم لسائر الأسماء موجبة لشبه الحرف واستحقاقه البناء لوجب بناء كل اسم خالف الأسماء بوزن أو غيره ، وهو باطل بإجماع وقال ابن مالك : إنما بنى (الآن) لشبه الحرف في ملازمة لفظ واحد ، لأنه لا يثنى ولا يجمع ولا يصغر ، بخلاف (حين) و (وقت) ، (زمان) ومدة قال أبو حيان وهو مزود بما رد به هو على الزمخشري ^(٣) .

(١) هم الهوامم للسيوطي ، ح ١ ص ١٤٤ .

(٢) من آية ٢٩ من سورة الاسراء ، راجع هم الهوامم ج ٢ ص ١١٢ .

(٣) راجع شرح المفصل لابن يعيش ح ٣ ص ١٠٣ ، همس الهوامم للسيوطي

٥ — يقسم الزمخشري الجملة إلى أربعة أضرب فعلية: واسمية، وشرطية، وظرفية، ويعلق ابن يعيش على هذا فيقول: ان هذه قسمة أبى على الفارسي، وهي قسمة لفظية وهي في الحقيقة ضربان، فعلية واسمية لأن الشرطية في التحقيق مركبة من جملتين فعليتين الشرط فعل وفاعل والجزاء فعل وفاعل والظرف في الحقيقة للخير الذي هو (استقر) وهو فعل وفاعل^(١).

٦ — يجيز النحويون وقوع (أن المفسرة) بعد لفظ القول ولم يقتصروا بها على ما في معناه، فيجوز على هذا القول وقوعها تفسيراً لفصل القول، وقد أبى الزمخشري (في الفصل) وقوعها إلا بعد فعل في معنى القول، قال: (واما أن المفسرة فلا تأتي إلا بعد فعل في معنى القول) وقد عرض في الكشف لذلك عند تفسيره لقوله تعالى (ان أعبدوا الله ربي وربكم)^(٢) حيث قال: يحمل فعل القول على معناه لأن معنى ما قلت لهم الا ما أمرتني به ما أمرتهم به (الا ما أمرتني به حتى يستقيم تفسيره بان اعبدوا الله ربي وربكم)^(٣).

٧ — لم يفرق الزمخشري في (الفصل) بين عطف البيان والبدل^(٤) اللهم إلا في مثل قول المرار الأسدي (انا ابن التارك البكري بشر) حيث خفض (بشر) عطف بيان على البكري ولو جعله بدلاً للزم تكرار العامل وإضافة اسم الفاعل المعروف بالألف واللام إلى العلم فلم يفصل بينهما إلا في هذا المثال، لأنه من حيث المعنى المعتمد في عطف البيان الأول، واما

(١) شرح الفصل لابن يعيش ح ١ ص ١٠٨

(٢) آية ١١٧ سورة المائدة

(٣) تفسير السكشاف ح ٣ ص ٤٦٢، شرح الفصل لابن يعيش ح ٨ ص ١٤١

(٤) شرح الفصل لابن يعيش ح ٣ ص ٧١

الثاني فالتوضيح ، والمعتمد في البذل الثاني ، وأما الأول فبساط لذكركه لاعلى أنه مطرح مهدر .

٨ — وليس هناك باب من أبواب النحو يخلو من رأى للزمخشري في تفصيل وجه على وجه أو في الذهاب إلى رأى يفرد به ، دون غيره من علماء النحو ويطول بنا المقام لو حاولنا استقصاء آرائه في شتى أبواب النحو بابا ، بابا ، والموازنة بينه وبين غيره من علماء النحو فيما ذهب إليه .

٩ — ولا شك أن الزمخشري كان بعد عصر مذاهب النحو ، من المذهب البصري والكوفي — والبغدادى والأندلس ، وكان كثيرا ما يرجع إلى آراء شتى من هذه المذاهب ، يأخذ منها ما يراه اوفق وأقرب إلى رأيه .

١٠ — وكان الزمخشري يؤمن بالقياس في النحو سالكا نهج سيبويه والقراء والفارسي والروماني وابن جني واتباعهم في هذه السبيل التي سار عليها أغلب المعتزلة ، الذين ذهبوا إلى جواز القياس في اللغة وفي علم النحو فوضعوا له أصولا تشبه أصول الفقه وتكلموا في الاجتهاد فيه كما تكلم الفقهاء (١) .

* * *

الزمخشري وعلم الاشتقاق :

١ — الاشتقاق : أخذ كلمة من كلمة أو أكثر ، مع تناسب بين المأخوذ والمأخوذ منه في اللفظ والمعنى وينقسم إلى صغير ، وكبير ، وأكبر .

(أ) فالاشتقاق الصغير : انتزاع كلمة من كلمة ، بتغيير في الصيغة مع

تشابه بينهما في المعنى ، واتفاق في الأحرف الأصلية وفي ترتيبها مثل : ضرب ويضرب واضرب وضارب ومضروب .

(ب) والكبير هو النزاع كلمة من كلمة بتغيير في ترتيب بعض أحرفها مع تشابه بينهما في المعنى واتفاق في الأحرف مثل : لكم ، وكلم وملك وكل ويسمى قلبا .

(ج) والأكبر أن يكون بين الكلمتين تناسب في المعنى واتفاق في الأحرف السابقة وتناسب في مخرج الأحرف المتغيرة ، مثل عنوان ، وعلوان ، ونهق ونعق ، . وفي كلام اللغويين ما يشير إلى عدم اشتراط تناسب المخرج كما يقتضيه في مثل هديل وهدير ، ومثل صرير وصريف .

(د) أما الاشتقاق الكبار فقد زاده بعضهم مريدا به ما يسمى بالذمت ، مثل شمسي : مشتقا من عبد شمس ^(١) .

ويعرف الزمخشري الاشتقاق بقوله : معنى الاشتقاق أن ينظم الصيغتين فصاعدا في معنى واحد ^(٢) ويعلق على ذلك السيد الجرجاني فيقول : لم يرد بما ذكره تعديد معنى الاشتقاق بل أراد أن الاشتراك في المعنى كاف في اثبات الاشتقاق .

٢ — وكان الزمخشري قد برع ونفع في علم الاشتقاق وفي الكشف و « الأساس » وغيرها ولوج للكثير من مباحثه ، وأهم مسائله ، وطبق ما سبق أن طبقه ابن جنى وأبو علي الفارسي وسواهما ، من فروعه على مفردات اللغة وألفاظها وقد سمع الزمخشري مسائل الاشتقاق من أساتذته

(١) الخصائص لابن جنى ج ١ : ص ١٤٤ ، مجلة المجمع القوي العربية ١/ ١٨٣ ،

الزهر للسيوطي ج : ص ٤٨٢ — ط ١٩٥٨ أصول النحو لسعيد الأفطاني ص ١٢١ .

(٢) تفسير الكشف ج ١ : ص ٣٣ ط الحلبي .

وقرأ ما كتبه العلماء في مثل الاصمعي (م ٢١٦ م) والاختش (م ٢٢١ م) والبرد (م ١٨٥ م) والزجاج (م ٣١١ م) وابن خالوية (م ٣٧٠ م) والرماني (م ٣٨٤ م) وابن جنى (م ٣٩٢ م) وسواهم .

٣ — وعلماء النحوي يختلفون في مصدر الاشتقاق فالبصريون يذهبون إلى أن المصدر أصل الفعل والكوفيون يرون أن المصدر مشتق من الفعل وفرع عليه ^(١) ، ويروي « ولفنسون » في كتابه تاريخ اللغات السامية ^(٢) أن المصدر أصل في الاشتقاق عند الآريين ومنهم الإيرانيون والفعل أصل الاشتقاق في اللغات السامية .

ومذهب الزمخشري في ذلك هو مذهب البصريين فيرى أن المصدر هو أصل الفعل ومشتق على معناه ولذلك قال في كتابه « الأموزج في المصدر » :
ويعمل عمل فعله أى الفعل المشتق منه ^(٣) .

ويقول الزمخشري في المفعول المطلق : هو المصدر لأن الفعل يصدر عنه ^(٤) . ويشرح ذلك ابن يعيش فيقول : اعلم أن الأفعال مشتقة من المصادر وذهب الكوفيون إلى أن الأفعال هي الأصل والمصادر مشتق منها ^(٥) .

٤ — والاشتقاق الصغير عند الزمخشري مسلم به كاشتقاق عالم ومعلوم من العلم مثلاً ، وفي الكشف يجعل الزمخشري اشتقاق القدير من التقدير

(١) راجع الانصاف لابن الأثيري — ج ١ : ص ١٤٤ وما بعدها .

(٢) تاريخ اللغات السامية ص ١٤ ط ١٩٢٩

(٣) راجع شرح الأموزج للاردبيلي في القسم الخامس عشر من الأسماء ص ٢٤٩ ط

طهران ضمن مجموعة

(٤) شرح الفصل لابن يعيش — ج ١ : ص ١٠٩

(٥) المرجع السابق ج ١ : ص ١١٠

لأنه يوقع فعله على مقدار قوته واسقاطه وما يميز عن العاجز ، ولعله لم يرد به الاشتقاق المعروف إنما أراد أن بين الحكمين مناسبة واتصالا فاذا اشتمل المزيد على معنى المجرد وزيادة جعل له أصلا : كالتقدير من التقدير والوجه من المواجهة ، فالمراد من الاشتقاق هنا الاشتقاق اللغوي ، بمعنى الأخذ ، لا الاشتقاق الاصطلاحي الذي نعني به الاشتقاق الصغير .

فالزمخشري يجعل المجرد مأخوذاً أحيانا من المزيد إذا كان المزيد أعرف بالمعنى المشترك ترجيحاً لجانب المعنى على جانب اللفظ ، ويرى الشهاب في حاشيته على البيضاوي : أن المراد جعل اللفظ مشتقاً من أشهر مواده لا من المزيد كما اصطلاح عليه علماء التصريف (١) وقد يحتمل أن يراد أن القدير والتقدير ، يتلاقيان في الاشتقاق من (ق ، د ، ر) لكنه عدل إلى لفظ (التقدير) لاشتهاره بالمعنى المقصود دون لفظ القدرة (٢) ، وهذا ترجيح جانب المعنى على جانب اللفظ . — أيضا من باب التوسع اللغوي ، ومن مثل ذلك ما يذهب إليه الزمخشري من أن أصل رعد ، الارتعاد ، وبذلك على أنه يرد المجرد إلى المزيد إذا كان المزيد أعرف بالمعنى الذي اعتبر في الاشتقاق (٣) ومن ذلك أيضا ما يقول الزمخشري من أن القيبة من الاغتياب (٤) كالغيلة من الاغتيال .

٥ — أما الاشتقاق الكبير ، فقد عرض له الزمخشري كثيراً في

(١) راجع شرح الشهاب على « البيضاوي » ج ١ : ص ٤١٦

(٢) راجع شرح الكشف للسيد الجرجاني — ج ١ : ص ١٧٣

(٣) شرح الكشف للسيد الجرجاني ج ١ : ص ١٦٦

(٤) تفسير الكشف للزمخشري — ج ١ : ص ١٥٥

الكشاف وغيره من كتبه يقول في الكشاف^(١) : « الحمد والمدح اخوان ، وهو الثناء والنداء على الجميل » .

وبعلق على ذلك السيد / الجرجاني فيقول : يستعمل الزمخشري الأخوة فيما بين لفظين يتلاقيان في الاشتقاق الكبير أو الأكبر ، أما الكبير فان يشتركا في الحروف الاصول من غير ترتيب مع اتحاد في المعنى أو تناسب فيه ، كالجذب ، والجذب ، والحمد ، والمدح واما الأكبر فبان يشتركا في أكثر تلك الحروف فقط ويتناسبان في الباقي مع الاتحاد أو التناسب في المعنى كانه ووله ، وكالفلق ، والفلق .

ومن أمثله كذلك ما ذكره الزمخشري في تفسير قوله تعالى : لتلفتنا عما وجدنا عليه اباؤنا^(٢) ، قال الزمخشري : اللفت والقتل اخوان ، ومطاوعهما الالتفات والانفتال^(٣) .

٦ — واما الاشتقاق الأكبر فأمثله كثيرة ذكره الزمخشري في تفسيره ومن مثل ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى (وأولئك هم المفلحون)^(٤) ، قال : المفلح بالحاء المهملة للفائز بالبقية كأن الذي انفتحت له وجوه الظفر ، ولم تستغلق عليه ، والمفلح بالجيم مثله ، ومنه قولهم للمطلقة : استغلقي بأمرك بالحاء والجيم والتركيب دال على معنى الشق والفتح ، وكذلك اخواته في الفاء والعين نحو فلق ، وفلى^(٥) ، وفي مثل ذلك أيضا^(٦)

(١) تفسير الكشاف للزمخشري — ج ١ : ص ٣٧

(٢) من آية ٧٨ سورة يونس

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ٨٣ آية

(٤) من آية ٥ سورة البقرة

(٥) تفسير الكشاف ج ١ : ص ١١٤

(٦) تفسير الكشاف ج ١ : ص ١٠٩

اتفق الشيء : وأنفذه آخران ، أى بينهما الاشتقاق الأكبر لا اشتراكهما
في أصل المعنى وأكثر حروف الأصول مع التوافق في الهاء . وعن يعقوب :
نفق الشيء ونفذ واحد وكل ما جاء مما فاؤه نون وعينه فاء « فдал على
الخروج والذهاب .

وبقول الزمخشري في « الأساس » : المال نافذ ، وأنفذوا ما عندهم
واسقنقدوه وأنفذ القوم زادهم ، ويقول في مادة « نفق » : انفق الدراهم
وانفقتها كقولك نفدت وأنفدتها .

كذلك من أمثله هذا المثال قال الزمخشري : « انلتم والكتم اخوان
لأن في الاستقيناك من الشيء يضرب الخاتم عليه كما له وتغطية ^(١) ويعلق
« السيد الجرجاني » على ذلك فيقول « انهما متشاركان في العين واللام
ومتناسبان في المعنى ، ومن مثل ذلك أيضا : العياذ ، واللياذ ، يقول الزمخشري
انهما من واد واحد ^(٢) ، ويقول في موضع آخر ان عذت ولذت : اخوان ^(٣) .
ومن مثل ذلك أيضا القاسي والقاسح اخوان في الدلالة على اليبس والصلابة ^(٤) .
ومن مثل ذلك أيضا ان « اله » معناه تحير ودهش ومن اخواته ، وله
وعلة ، قال الزمخشري : انه ينقظمها معنى التحير والدهشة ، وذلك ان
الأوهام تهجير في معرفة المعبود ، وتدهش الفطن ^(٥) ويقول السيد شريف
الجرجاني : انه ربما يريد بهذا الكلام تحديد معنى الاشتقاق وهو ان

(١) تفسير الكشاف ج ١ : ص ١٩٦

(٢) تفسير الكشاف ج ١ : ص ٢٢٠

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ٥٠

(٤) تفسير الكشاف تفسير قوله تعالى (وجعلنا قلوبهم قاسية) سورة المائدة آية ١٣

(٥) تفسير الكشاف ج ١ : ص ٣٢

الاشتراك في المعنى كاف في اثبات اشتقاق الاله من اله ، فقول الزمخشري ان وله وعلة من اخوات اله ، اشارة إلى الاشتقاق الأكبر في أثناء بيان الاشتقاق الصغير (١) وهو ، اشتقاق الاله من اله ، أى « عبد ، أو من استأله » أى استعبد أو من تأله ، أى تعبد .

ومن مثله أيضا ما ذكره الزمخشري من أن القاب ، والقيب والقاد ، والقيد ، والقيس ، كلها بمعنى المقدار (٢).

٧ - وهكذا تجد الزمخشري قد أفاض في ذكر الاشتقاق ، وأملهته ، مما يدل على مزيد تبهر فيه والالمام به والاطلاع على أصوله وفروعه . ويمكن الاطلاع على بحوث علماء اللغة في الاشتقاق وآراء الزمخشري فيه ، في كثير من كتب اللغة ومن أهم كتب فقه اللغة الخصائص لابن جني (٣) والمزهر للسيوطي (٤) وسواهما .

الزمخشري وعلم الصرف :

١ - تحدث الزمخشري في الاموذج و « المفصل » عن مسائل علم الصرف بتفصيل وافاضة ، ففي الجزء الرابع من شرح المفصل (لابن يعيش) ذكر التثنية ، في الجزء الخامس و ذكر الجمع بأقسامه ، والتصغير والنسب ، وفي الجزء السادس ذكر المشتق من المصدر واسم الفاعل ، واسم المفعول والصفة المشبهة ، وافعل التفضيل ، واسم الزمان والمكان واسم الالة ، و ذكر كذلك المجرد وابنيته ، وفي السابع ذكر التمجيد ونعم وبأس

(١) الرجم السابق

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ١٧٦

(٣) راجع الخصائص - لابن جني

(٤) راجع المزهر - للسيوطي

وأوزان الفعل الثلاثي والرابعي ، وفي الجزء القاسم ذكر الامالة والوقف ، وهاء السكت واحكام القاء الساكنين ، وهمزة الوصل ، والمزيد ، وفي العاشر ، ذكر الابدال والاعلال والادغام .

٢ — ويؤكد الزمخشري كثيرا « ان زيادة البناء تدل على زيادة المعنى ، ومن مثل ذلك ما ذكره في الكشف من ان في الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم ^(١) . ومن مثل ذلك ما ذكره ، في تفسير قوله تعالى (ان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) ^(٢) حيث قال : فان قلت : لم قيل مما نزلنا على لفظ التنزيل بدون الانزال قلت : لأن المراد النزول على سبيل التدريب والتنجيم وهو من محازه لمكان التجدي . ويقول أبو حيان في رد كلام الزمخشري : (والذي قاله الزمخشري في تضعيف عين الكلمة هو الذي يعبر عنه بالكثير أى أن يفعل ذلك مرة بعد مرة ، فيدل على هذا المعنى بالتضعيف ويعبر عنه بالكثرة ، وذهل الزمخشري عن ان ذلك انما يكون غالبا في الأفعال التي تكون قبل التضعيف متعدية نحو جرحت زيدا وفتحت الباب ، لا يقال جالس زيد ولا قعد عمرو ونزلنا لم يكن متعديا قبل التضعيف وانما كان لازما وتعديه انما يفيد التضعيف - والهمزة ، وان جاء في لازم فهو قليل ، قالوا : مات المال وموت المال ، إذا كثرت ذلك فيه ، وأيضا فالتضعيف الذي يراد به التكثير انما يدل على كثرة وقوع الفعل اما ان يجعل اللازم متعديا فلا ، ونزلنا قبل التضعيف لم يكن متعديا فيكون التعدى المستفاد من التضعيف دليلا على أنه للنقل لا للتكثير ، إذ لو كان المتكثير وقد دخل على اللازم بقي لازما نحو مات المال وموت

(١) تفسير الكشف ج ١ : ص ٣٤ .

(٢) تفسير الكشف ج ١ : ص ١٨٤ آية ٢٣ سورة البقرة .

المال ، وأيضاً . فلو كان التضعيف في نزل دليلاً للتنجيم لاحتاج قوله تعالى (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) إلى تأويل لأن التضعيف دال على التنجيم والتكثير وقوله (جملة واحدة) ينافي ذلك ^(١) .

٣ - وللمخشري بعض الآراء التي يستدرك بها على علماء المعرف ، أو يزيد على ما ذكره شيئاً أو ينقد فيها كلامهم ... ومن مثل ذلك ما ذكره السيوطي في (المزهر) نقلاً عن ابن خالويه : قال ابن خالويه في كتاب (ليس) : لم يجمع على فعال ، إلا نحو عشرة أحرف ، عرق وهو اللحم على المعظم ، وعراق ، ورخل ، من أولاد الضأن ورخال ، وشاه ، وربي ورباب ، وتوأم وتوأم ، وفربز وفوار ، ولد الغليظة ، ونذل ونذال ، ورذل ورذال ، وثني وثناء ، وبسط وبساط فحصل من مجموع ما ذكره ثلاث عشر كلمة ، وزاد المخشري في أبيات له « عرام » وهو بمعنى العراق ونظم في ذلك أبياتاً فقال :

ما سمعنا كلاً غير ثمان

من جمع وهي في الوزن فعال

فرباب وفرار وتوأم

وعرام وعراق ورخال

وظوَار جمع ظئر وبساط

جمع بسط : هكذا فيما يقال ^(٢)

(١) تفسير البحر المحيط - لأبي حيان - ج ١ في تفسير الآية إذا نزلنا من سورة البقرة

(٢) المزهر - السيوطي - ج ٢ ص ٧٢ ط الحلبي ١٩٥٨ والظاهر أن الصحيح نسبته

إلى صدر الأفاضل - المعروف بخليفة المخشري كما نبه عليه الشهاب الحفاجي في شرح درة

النواص لأوهم ٨٤ .

٤ - وهكذا نرى ان المصادر الثلاثية سماعية عند سيبويه ولكن الزمخشري يرى انها قياسية لكثرتها^(١).

٥ - ومن آرائه واستنباطاته أيضا ما يذكره بمعنى المصححة فيقول وكأنها مفعلة من الصحو على سبيل التفاؤل وحقها أن تسمى مسكرة لأن المعاقرين يكرهون اسراع السكر ويؤثرون أن يتطاول لهم الصحو^(٢).

وجملة الأمر ان الزمخشري كما تفوق في اللغة والنحو والاشتقاق وفروعه ، كذلك كان متفوقا في علم الصرف متبحرا فيه واقفا على أصوله وفروعه ، ويطول بنا الحديث لو بحثنا شتى أبواب الصرف بابا ووازنا بين أقوال علماء الصرف فيها ، وما وافقهم الزمخشري فيه ، أو استدرك عليهم من مسائله .

الزمخشري وعلم القراءات :

١ - أكثر الزمخشري في تفسيره من ذكر وجوه القراءات والاستدلال بها ، على معاني ألفاظ وأساليب الكتاب الحكيم ، وعلى نقد وجوه من معاني الآيات مما ألم به المفسرون ، ويدل ما ذكره الزمخشري في الكشف على تبخره في علم القراءات وتفوقه فيه واحتماله به ، ويستعين بذلك كله ، على تفسير كتاب الله وتبيين معانيه وتوضيح خافية ، ويكثر من ترجيح قراءة على قراءة إذا كان فيها ، حينما ما يوضح المعنى المقصود من كتاب الله أو ما يزيد من بلاغة أسلوب القرآن .

ومثل ذلك كثيرة في تفسيره ، ومن القراءات التي يذكرها لتوضيح

(١) أنظر المطلوب شرح المصود رقم (١) حرف ا وآخر من ٢١ - ٢٢ نقل عن

السماع والقياس - لآحمد تيمورس ١٣

(٢) أنظر الفائق للزمخشري مادة - ف ق ر - ج ٢ : ص ٢٩١

المعنى المقصود من القرآن ما ذكره في تفسير قوله تعالى «مالك يوم الدين» قال : ويجوز أن يكون ، ملك الأمور يوم الدين ، كقوله تعالى (ونادى أصحاب الجنة ونادى أصحاب الأعراف) والدليل عليه قراءة أبي حنيفة ملك يوم الدين ^(١) ، ومما يقصد به من القراءات بلاغة القرآن ما فسر به قوله تعالى « والله بما تعملون خبير » إذ قال : قرئت بما تعملون : « بالتاء والياء فالتاء على طريقة الاتقافات وهى أبلغ فى الوعيد ، والياء على الظاهر ، ومما نقد فيه بعض القراءات ما ذكره فى قوله تعالى « ان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » ^(٢) برفع يغفر ويعذب ويجزمهما ^(٣) حيث نقد قراءة من ادغم الراء فى اللام وقال : ان صاحب هذه لأحن مخطيء خطأ فاحشا وراويه عن أبى عمرو مخطيء مرتين لأنه يلحن وينسب إلى أعلم الناس بالعربية ما يؤذن بجهل عظيم ، والسبب فى نحو هذه الروايات قلة ضبط الرواة والسبب فى قلة الضبط قلة الرواية ، ولا يضبط نحو هذا إلا أهل النحو وينقد الأستاذ سعيد الأفغانى فى كتابه « أصول النحو » الزمخشري فيما ذكره فى قوله تعالى « قتل أولادهم » ^(٤) شركائهم قال الزمخشري « وأما قراءة ابن عامر برفع القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء على اضافة القتل إلى الشركاء والفصل بينهم ما يعنى الظرف فشىء لو كان فى الضرورات وهو الشعر لكان سمجاً مردوداً فكيف به فى الكلام المنشور ، فكيف به فى القرآن المعجز بحسن نظامه

(١) تفسير الكشاف ج ١ : ص ٧٤

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٤

(٣) تفسير الكشاف ج ١ : ص ٣٠٧

(٤) سورة الأنعام آية ١٣٧

وجزأته والذي حمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف (شركائهم) مكتوباً بالياء ، ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء لأن الأولاد شركاؤهم في أموالهم لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب^(١) ، ويقول الأفغانى :
ان فى هذا الكلام زلقين كبيرتين ينزه عنهما الشاذى فى علم القراءة .
فأما الأولى :

فى جملة الأخيرة المشعرة بأن بابن عامر حر فى اختراع القراءة حتى لقد عجب من هذا الجهل الساذج بما هو معروف ضرورة ، والمقرر ، البديهى ان القراءة سماع محض لا مجال للاجتهاد فيها .
وأما الثانية :

فهو مظنة أن القارئ أسير الرسم ... وهذه شبه تلك فى الجهالة ،
فالقراءة تلقى مشافهة بالاسناد وهى عادة توافق الرسم وليس للقارئ أن يقرأ قراءة لم يتلقها^(٢) .

أما ما ذكره الأفغانى من أن جملة الزمخشري الأخيرة مشعرة بأن ابن عامر حر فى اختراع القراءة ، ورد الأفغانى على ذلك بأن القراء سماع محض لا مجال فى الاجتهاد فيها فهو صحيح ، إلا أن مراد الزمخشري بقوله - حمله على ذلك أى على تفضيل ذلك - أى تفضيل هذه القراءة وليس مقصود الزمخشري - حمله على الاتيان بهذه القراءة وابتكارها وذلك أمر بديهى يعرفه الأفغانى وغيره من العلماء ، وأما قول الأفغانى وأما الثانية فهو مظنة ان القارئ أسير الرسم - فهى مثل الأولى فى أن مراد الزمخشري ان كتابة « شركائهم » بالياء جعل ابن عامر يؤثر هذه القراءة ويختارها ، وليس

(١) الكشف ح ١ : ص ٣٩ ، ٥٣

(٢) كتاب أصول النحو - لسعيد الأفغانى ص ٣٩ ط اولى

مراده ان القارىء أسير الرسم ، وبذلك يسقط هذا النقد الذى تحامل فيه الأفغانى على الزمخشري والذى أداه إلى أن يقول فى تقمة نقده له : وكان على الزمخشري وهو أعجمى تخرج بقواعد النحاة المبينة على استقراء ناقص أن يعجزى لنقد رجل عربى قويم الملكة فصيح اللسان، حجة فى لغة العرب شيئا غير هذه الخطايبات ، وعلى هذا تكون هذه القراءة حجة قوية على الفصل بين المتضايقين بغير الظرف والجار والمجرور «^(١) ونحن نقول . ان الزمخشري بما كسب من ملكات ودراسات وثقافات وبما كتب وألف ونافح عن العربية صار فى حكم العرب الخالص ، الذين لا يصح وصفهم بالأعجمية ، وفى رأى أن نقد الزمخشري لهذه القراءة يعد فى محله ، وموضعه من الصواب ، لأنها تؤدى بلا شك إلى - الضرورة القبيحة فى نظم القرآن وأسلوبه المعجز ، ولا حاجة لنا إلى مثل هذه القراءة التى تضعف بلاغة كلام الله وفصاحته . ويبدو فى رأى الأستاذ الأفغانى فى الزمخشري تحامل كبير حتى ليرى أن الزمخشري فى النحو عالم دون الوسط بين قدماء المصنفين ، وان آراءه ليست هناك ، وأنه يقطع فى أمور كثيرة ، بما لا تقبله الملكة الخالصة ، ويعترض أحيانا لما لا يحسن شأن من ألف فى كل فن ، ويستدل الأفغانى على ذلك ، بما ذكره الزمخشري من قراءة ابن عامر هذه ثم يستطرد الأفغانى ويقول . وقد بما قالوا . انه ، نحوى ضعيف «^(٢) . وينسب هذا الكلام إلى ابن مالك .

(١) كتاب أصول النحو - لسعيد الأفغانى - ص ٢٠

(٢) من رسالة بعث بها إلى الأستاذ الأفغانى - الأستاذ بجامعة دمشق ردا على رسالة بعثت بها إليه تتضمن الرغبة فى معرفة رأيه فى اجتهاد الزمخشري القوى والنحوى .

وفيا ذكرناه عن الزمخشري النحوى ما يدل دلالة قوية على انه
مجتهد — وامام كبير فى علوم العربية كلها منها النحو ، ونحن وان
خالفنا الأستاذ الأفغانى فى رأى الا انا نجله ونقدره لمكانته العلمية بين
علماء العرب المعاصرين .

* * *

الفصل الثاني

الزخشرى

والبلاغة العربية

(أ) وقد كان الزمخشري في البلاغة أماما لا يبارى في عهده وله آراء كثيرة في مسائل البلاغة تشهد له بالتفوق فيها ، وقد رجع علماء البلاغة المتأخرون من بعده إلى آرائه يستشهدون بها ويعلقون عليها ، كالسكاكي ، والخطيب القزويني ، والسيد ، والسيد وغيرهم .

وفي كتب البلاغة بعض آراء الزمخشري التي تشهد له بالاجتهاد في مسائلها ، وفي تفسيره الكشف ، الكثير من مسائل البيان التي عرج عليها ، وعرض لها ، واحتمد في تحليلها ، وقد اهتم السيد الجرجاني ، (م ٨١٦ هـ) في التنويه ، بها في شرحه على الكشف ، الذي لم ينف منه غير شرحه على الربع الأول من سورة البقرة من تفسير الكشف ، ومما عرض له الجرجاني من ذلك التمثيل والاستعارة التمثيلية .

(ب) وينوه الزمخشري في مقدمة الكشف ، بعلمى المعاني والبيان فيقول : لا يقصدى أحد سلوك تلك الطرائق ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق ، ألا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله بعدان يكون آخذا من سائر العلوم بمحظ^(١) . ثم يستطرد فيقول : وكان مع ذلك مستمر الطبيعة ، منقادها مشتمل القرينة وقادها ، يقظان النفس دراكا للحجة ، وأن لطف شأنها متنبها على الرمزة ، وأن خفي مكانها ذا دراية بأصاليب النظم والنثر ، مرتاضا ، بتلقيح بذات الفكر قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف ، وكيف ينظم ويرصف^(٢) .

(١) مقدمه تفسير الكشف .

(٢) المصدر السابق .

(ج) ويدكر الزمخشري في الكشف كثيرا من مباحث علم المعاني وعلم البيان ، فمن علم المعاني ما يذكره من أسرار التعبير باسم الإشارة ، واسم الوصول ، والجملة الأسمية ، والنكرة وتقديم الخبر على المبتدأ ، والأضمار ، والحذف ، والذكر والتكرار ، والايجاز . والالتفات والوصل والفصل ، والإشارة والخبر ، والاعراض والاستفهام وسواها (وكذلك يذكر كثيرا من مسائل البيان من التشبيه ، والحجاز والاستعارة ، والكتابة) (ومن مسائل المعاني ما ذكره في توجيه قوله : تعالى إياك نعبد » حيث قال : « فان قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب ، قلت : هذا يسمى الالتفات في علم البيان ^(١) وقد يكون من الغيبة ، إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى التلكم »

ويستطرد بعد ذلك فيقول : « وذلك على عادة افتقناهم في الكلام وتصرفهم فيه ، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن طريقة تجديد نشاط السامع ، وإيقاظا للاصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد ، الخ .

ويدكر الزمخشري في تفسير قوله تعالى : « رب إني وهن العظم مني » وجوها كثيرة ، في البيان في أسباب بلاغة الآية ، وكذلك يذكر تفسير قوله تعالى : « وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرسيها » ويدكر في غيرها من الآيات ، كثيرا من أسرار البيان . يشرح بها بلاغة الكتاب ، ومعجزته الآلهية الكبرى ، التي نراها في فصاحته ..

ويهتم الزمخشري خاصة بالاستعارة ، والتمثيل والكتابة ^(٢) ،

(١) علم البيان عند الزمخشري يشمل على البيان والمعاني .

(٢) التمثيل يريد به الزمخشري وعلماء اللغة ما يرادف التشبيه مخالفين بذلك =

يقول الزمخشري : أن التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها لأنه بمنزلة التصوير والتشكيل لها .

ويشرح الزمخشري في الكشف أسلوب التمثيل ، والتمثيل شرحا واضحا ، عند تفسيره لقوله تعالى « أنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض^(١) » ، وعند تفسيره الآية الكريمة « وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريقتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم^(٢) » .

فيقول في هذا الأسلوب ، أنه من باب التمثيل والتخييل ، ويفيض في شرح ذلك وكذلك عند تفسير قوله تعالى « فما بكث عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين^(٣) » وقوله تعالى « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله^(٤) » .

(د) أما من جانب علم البديع ، فقد ألم الزمخشري ببعض ألواله ، في ثنايا تفسيره ومن مثل ذلك ما ذكره في الآية الكريمة « وجنتك من سبأ بنباً يقين » قال : هذا من جنس الكلام الذي يسميه المحدثون البديع ، وهو من محاسن الكلام ، الذي يتعلق باللفظ بشرط أن يحى مطبوعاً أو يصفه عالم بجوهر الكلام ، يحفظ معه صحة المعنى ، وسداده^(٥) ، ويمرض لأساليب أخرى من الجناس ، والطباق والمقابلة والشاكلة ، واللف والنشر وغيرها^(٦) .

= رأى عبد القاهر الجرجاني وسواه من علماء البلاغة وأظفر في ج ١ ص ٢٨٣ رأى الزمخشري في الفرق بين الكتابة والتعويض .

(١) آية ٧٢ من سورة الاعراف . (٢) سورة الاعراف ١٧٢ .

(٣) الكشف ج / ٣ ص ١٠٩ آية ٢٩ من سورة الدخان .

(٤) الكشف ج / ٢ ص ٢١٨ آية ٢١ من سورة العنكبوت .

(٥) الكشف ٢ ص ٤٤٨ آية ٢٢ من سورة النمل .

(٦) الكشف ج ١ ص ٣٥٦ .

ومن نماذج آراء الزمخشري في البلاغة هذه المسائل : —

١ — يجعل الزمخشري ، ويقبمه السكاكي ، مما يفيد التخصيص
مثل قولنا : « ما أنت علينا بكريم » وقوله تعالى « وما أنت علينا بعزیز »
من كل ماولى الضمير فيه حرف النفسى ، ولم يكن الخبر فعليا أن كان
أصلا مشتقا ، وهما فى ذلك مخالفان رأى عبد القاهر الجرجاني وجمهور
البلاغيين ، الذين يجعلون تقديم المسند إليه هنا لافادة التقوى ، والتأكيد
لالتخصيص ، يقول القزوينى فى إيضاحه فى التعليق على رأى الزمخشري
والسكاكى : —

وفيه نظر : لانا لانسلم أن إيلاء الضمير حرف النفسى إذا لم يكن
الخبر فعليا يفيد المحصر^(١) . وفى رأى أن — الزمخشري فى حمله الوصف
المشتق على الفعل فى ذلك ليس بمجاوز حكم الذوق ، ودلالة الأسلوب وفحوى
الكلام الذى يفهم التخصيص ، على ما هو واضح فى مثل هذا الأسلوب ،
يقول الزمخشري : دل إيلاء ضمير حرف النفسى على أن الكلام واقع فى
الفاعل لافى الفعل كأنه قيل : وما أنت علينا بعزیز بل رهطك هم الأعزة
علينا .

٢ — يجعل الزمخشري « التفكير » فى مثل قوله تعالى « قالوا
أن لنا لاجرا^(٢) » للكثير ويميل بعض البلاغيين إلى جعله مفيدا للتقليل ،
ويجعل التنوين فى قوله تعالى « ياأبت أنى أخاف أن يمسك عذاب من
الرحمن^(٣) » مفيدا للتحقير ، ويجعله السكاكى للتهويل ويميل القزوينى إلى

(١) راجع الإيضاح للقزوينى ج ١ ص ٦٢ ط المحمدية بالقاهرة .

(٢) آية ٤١ من سورة الشعراء .

(٣) آية ٤٥ من سورة مريم .

رأى الزمخشري^(١)

٣ — يستدل صاحب الايضاح بكلام الزمخشري في تعريف المجاز العقلي بقوله : أن يسند الفعل إلى شيء يلقبس الذي هو في الحقيقة له . على صدق تعريفه المجاز العقلي الذي استعمله عبد القاهر الجرجاني^(٢) .

٤ — ويجعل الزمخشري حذف المفعول في قوله تعالى « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون » لانسقى فسقى لها الخ^(٣) .

لإثبات المعنى في نفسه للشيء على الإطلاق : يقول الزمخشري : ترك المفعول ، لأن الغرض هو الفعل لا المفعول ، ألا ترى ، أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذباد ، وهم على السقى ، ولم يرحمهما لأن مذكورهما غنم ومسيهم ابل — مثلاً : ويجعل السكاكى ، الحذف فيه لمجرد الاختصار ، ويرجع الخطيب ، رأى الزمخشري وهو ما يفيد الذوق ودلالة الأسلوب^(٤) .

٥ — ويجعل الزمخشري قوله تعالى « ولما سكنت عن موسى الغضب »^(٥) من باب الاستعارة التيميلية وكذلك مثل قولهم اعتصمت بحبله « وأن جاز في هذا المثال الأخير أن يكون » الحبل « استعارة للوقوف و » الاعتصام « ترشيحاً لاستعارة الحبل ، بما يناسبه أو استعاره للوثوق بالعهد ، ويستدل القزويني في الإيضاح بكلام الزمخشري في هذا الباب^(٦) .

(١) الايضاح للقزويني ج ١ : ص ٤٧ .

(٢) الايضاح للقزويني ج ١ : ص ٢٥ .

(٣) آية ٢٣ وما بعدها من سورة القصص .

(٤) الايضاح للقزويني ج ١ : ص ١٠٨ ، ١٠٩ وراجع الكشف ج ٢ ص ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

(٥) بعض آية سورة الاعراف ١٥٤ .

(٦) الايضاح للقزويني ج ٢ : ص ٣٠٦ .

٦ -- ويجعل الزمخشري نحو قولهم « مثلك لا يبخل » كناية عن النسبة يقول : نفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفية عن ذاته قصدوا المبالغة في ذلك فسلكوا به طريق الكفاية ، لأنهم إذا نفوه عن يسد مسده ، أو عن هو على أخص أوصافه ، فقد نفوه عنه ، ونظير ذلك قولك للعربي « العرب لا تحفر الذمم » فإنه أبلغ من قولك « أتت لا تخفر ^(١) » .

٧ — رأى الزمخشري في الالتفات :

ذكر الزمخشري الأبيات المشهورة لامرئ القيس :

تطاول ليلى بالآثم — ونام الخلى ولم ترقد
وبات وباتت له ايلة — كليلة ذى العائر الأرمد
وذلك من نبا جاء في خبرته عن أبي الأسود
وقال أن هناك ثلاث العفقات ^(٢) ، ولكن أبا حيان يرد عليه بأنهما العفقتان فقط : بأن الأول خروج من الخطاب المفتوح به في البيت الأول إلى الغيبة في البيت الثاني ، والالتفات الثاني خروج من هذه الغيبة إلى المتكلم في قوله :

وذلك من نبا جاء في خبرته عن أبي الأسود
ثم يرد عليه بأن تأويل كلامه أنها ثلاث خطأ وتعيين أن الأول هو الانتقال من الغيبة إلى الحضور أشد خطأ ، لأن هذه الالتفاتات هو من عوارض الالفاظ لا من المقادير المعنوية ^(٣) . والزمخشري يخالف الجمهور في بيان معنى الالتفات فنرى ابن الأثير في كتابه « المثل السائر » يقول

(١) راجع الإيضاح — للزويني — ج ٢ : ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

(٢) يعبر الكشف ج ١ من تفسير الآية إياك نعبد .

(٣) تفسير البحر المحيط — لأبي حيان — ج ١ ص ٢٤ .

وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام القسم الأول في الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة ، إعلم أن عامة المنتمين إلى هذا الفن إذا سألوا عن الانتقال عن الغيبة إلى الخطاب وعن الخطاب إلى الغيبة قالوا كذلك كانت عادة العرب في أساليب كلامها وهذا القول هو عكاز العميان كما يقال ونحن إنما نسأل عن السبب الذي قصدت به العرب ذلك من أجله وقال الزمخشري أن الرجوع من الغيبة إلى الخطاب إنما يستعمل للتعفن في الكلام والانتقال من أسلوب إلى أسلوب تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للاصغاء إليه » وليس الأمر كما ذكره لأن الانتقال في الكلام من أسلوب إلى أسلوب إذا لم يكن الا تطرية لنشاط السامع وإيقاظا للاصغاء إليه فان ذلك دليل على أن السامع يمل من أسلوب واحد فينتقل إلى غيره ليجدد نشاطا للاستماع وهذا قدح في الكلام لا وصف له لأنه لو كان حسنا لما مل ولو سلمنا إلى الزمخشري ، ما ذهب إليه لسكان إنما يوجد ذلك في الكلام المطول ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك لأنه قد ورد - الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ويكون مجموع الجانبين معا يبلغ عشرة ألفاظ أو أقل من ذلك ومفهوم قول الزمخشري في الانتقال من أسلوب إلى أسلوب إنما يستعمل قصدا للمخالفة بين المنتقل عنه والمنتقل إليه لا قصدا لاستعمال الأحسن وعلى هذا فاذا وجدنا كلاماً قد استعمل فيه جميعه الإيجاز ولم ينتقل عنه أو استعمل فيه جميعه الإطناب ولم ينتقل عنه وكان كلا الطرفين واقعا في موقعه قلنا هذا ليس بحسن إذ لم ينتقل فيه من أسلوب إلى أسلوب وهذا قول فيه مافيه وما أعلم كيف ذهب على مثل الزمخشري مع معرفته بفنى الفصاحة والبلاغة^(١) .

٨ — ولا ننسى أن نقول أن القزويني يستدل في كتابه الايضاح وخاصة في باب المعاني في مواضع كثيرة ، بأراء الزمخشري ، ويستشهد بما كتبه من تحليل بلاغة كثير من النصوص ، من كتاب الله ، وأحاديث رسول الله وكلام العرب البلغاء ، وكلام القدماء الأدباء والشعراء .
(د) موقف الزمخشري من قضية الاعجاز القرآني : —

بهر الزمخشري ببلاغة القرآن ، وفصاحته ، وأذهله أعجازه وجلالاته ، ووقف وهو يفسر بعض الآيات مأخوذاً بروائع نظمه ، وبدائع تأليفه ، وأسرار بليانه ، ودقائق وصفه وخفايا تركيبه ، ويقول الزمخشري : « وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بلاغة من اللطف والخفاء ، حدا يدق عن تغطن العالم ويزل عن تبصره ^(١) » « وحينما يفسر بلاغة القرآن في قوله عند تفسيره الآية الكريمة « وترى الجبل تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ^(٢) » فانظر إلى بلاغة هذا الكلام ، وحسن نظمه ، وترتيبه ، ومكانة اضماره ورصانة تفسيره وأخذ بمضه بحجزة بعض كأنما أفرغ افراغا واحداً ، ولأمر ما أعجز القوى ، وأخرس الشقاشق ^(٣) » .

وقضية الاعجاز ، أثارها العلماء منذ القرن الثالث الهجري للدفاع عن القرآن ، وبلاغته وألف فيها أبو عبيدة (م ٢٠٨ هـ) والنظام (م ٢٣٥ هـ) والجاحظ (م ٢٥٥ هـ) وأبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (م ٣٠٦ هـ) والرماني (م ٣٨٤ هـ) والباقلاني (م ٤٠٣ هـ) — وعبد القاهر الجرجاني (م ٤٧١ هـ) في كتابه دلائل الاعجاز ، وسواهم وقد ذهبوا مذاهب

(١) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ٤٧٣ .

(٢) سورة النمل آية ٨٨ وما بعدها .

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ٧٥ ، ٧٦ .

شئى فى فهم اعجاز القرآن فذهب بعض إلى أن سبب الاعجاز الصرفة - ومنهم النظام ، وذهب آخرون إلى أن - اعجازه فى نظمه ومن رواد هذا المنحى - الجرجاني - وذهب آخرون إلى أن اعجازه ، بما اشتمل عليه من أمور الغيب ويقف بعض الباحثين عن الاعجاز عند الحسن اللفظى البديعى فى القرآن فيجعلونه سبباً أكبر من أسباب الاعجاز ، وقد تعرض عبد القاهر لراىء من قال بالاعجاز فى كالم القرآن على انفراد أو ائتلاف ومن قال بالفواصل والقواطع أو الاستعارات أو الغريب على هؤلاء جميعاً كما رد على من قال بالصرفة .

أما الزمخشري فقد ذهب إلى أن القرآن الكريم ، كتاب معجز من جهتين : من جهة اعجاز نظمه ، ومن جهة ما فيه من الأخبار بالغيوب^(١) ويكرر هذا فى موضوع آخر فيقول : فى تفسير الآية : « فأعلموا إنما أنزل بعلم الله^(٢) » « أى أنزل ملتبساً بما لا يعلمه الا الله من نظم معجز للخلق وأخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه » ويتحدث عن معجزة الأخبار بالغيوب فى القرآن فى تفسيره لايات التحدى بالقرآن من مثل قوله تعالى : « وأن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله^(٣) ... الح » ، وعند تفسيره للآيات التى وقع فيها أخبار بالغيوب كقوله تعالى : « الذين جعلوا القرآن عضين^(٤) » حيث يقول الزمخشري : « وهو من الاعجاز لأنه أخبار بما سيكون وقد كان » كقوله تعالى : ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم^(٥) »

(١) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ٧٦ ، ٧٥ .

(٢) الآية ٢٤ ، ٣٣ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٦١ من سورة الحجر .

(٤) سورة هود آية ٦٤ .

(٥) آية ٩٥ من سورة البقرة .

حيث يقول الزمخشري : « وهو من المعجزات وهو أخبار بالغيب وكان كما أخبر به » .

ولكن الزمخشري يرى أن اعجاز نظم القرآن هو « أم اعجاز القرآن والقانون الذى وقع عليه التحدى ومراعاته أهم مايجب على المفسر ^(١) .

ومن ثم — وهذا هو كلام الزمخشري — لايجوز لنا أن نعى كثيرا بجانب الأخبار بالغيب الذى اشتمل عليه القرآن الكريم وأن نجعل له منزلة كبيرة فى اعجازه .

فدراسة نظم القرآن ، وتبين وجوه بلاغته هى الجانب الأكبر فى اعجازه ، وهذا هو رأى الزمخشري ، وقد تأثر فيه برأى عبد القاهر الجرجانى ، الذى بسطه فى دلائل الاعجاز وسببه إليه الجاحظ فى كتبه « البيان والتبيين ، والحيوان ونظم القرآن » ونظرية النظم ، نظرية عرض لها الجرجانى بالتفصيل والدراسة وكيف يختلف نظم ونظم ، وتختلف تبعاً فى ذلك بلاغة الكلام ، وفصاحته ، وقد تبعه فى هذه النظرية (نظرية النظم) الزمخشري فأفاض فى تفصيلها ، ورد كثيراً من وجوه اعجاز القرآن إليها وفى الواقع كان الكشف كشافاً لما أحقوى عليه كتاب « الجرجانى ، فالزمخشري لم يأت — غالباً — إلا بما أتى به عبد القاهر من حيث المبدأ ولكن ميزته ميزة التطبيق — وإذا — جاء بشيء من عنده فانه يعرضه فى هذه الأسئلة التى يفرضها ، ويوصفها مزدوجة ثم يحجب عنها على طريقته « فان قلت » فلا تسكاد تقرأ سطوراً ، من كتابه حتى يصادفك « فان قلت قلت » على العكس مما نجده ، عند عبد القاهر ، فهو وأن فعل ،

هذا الصنيع ، فى الدلائل بالخصوص إلا أنه يباعد بين جرئياته ،
ويطيل وقفاته فى المسألة : ولنستمع إليه يحلل روعة النظم فى قوله تعالى :
« وقيل يا أرض ابلغى ماءك » الخ فيقول فى دلائله : « ومعلوم أن مبدأ
العظمة فى أن نوديت الأرض ثم أمرت ثم إضافة الماء إلى الكاف ... ثم
أن اتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها ، نداء السماء وأمرها
كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل وغيض الماء فجاء الفعل على صيغة فعل
والمبنى للمجهول ، الدالة على أنه لم يفيض ، إلا بأمر آمر ، وقدرة قادر ،
ثم تأكيد ذلك وتقديره بقوله تعالى « وقضى الأمر » ثم أضمار السفينة
قبل الذكر ، كما هو شرط الفخامة ، والدلالة على عظم الشأن ، ثم مقابلة
قيل الخاتمة بقيل فى الفاتحة .

ويقول الزمخشري فى الكشف « جئنا أخباره على الفعل المبنى
للمفعول ، للدلالة على الجلال والكبرياء ، وأن تلك الأمور العظام لا تكون
إلا بفعل قادر وتسكوين مكون قاهر إلى أن يقول غيره « يا أرض ابلغى
ماءك وياسماء اقلعى » ولا أن يقضى ذلك الأمر الهائل غيره ، ثم يستطرد
الزمخشري فيقول ولما ذكرنا من المعاني والنكت استقصى علماء البيان ،
هذه الآية « ولم يذكر عبد القاهر فى ذلك وهذا الصنيع معروف عند
الزمخشري ، وعلى بعد ما بين الزمخشري — والجرجاني فى المذهب المقدي ،
فقد استغل الزمخشري رأى عبد القاهر فى مسألة الإعجاز ، وأنه لا يكون
إلا بما هو فى متناول الذين يتبعه الإعجاز إليهم ، وفى عرفهم وصنعهم ،
فموسى أعجز بالخوارق ، التى كان السحرة بارعين فيها ، وعيسى بالطب ،
الذى كان قومه نطسه فيه ونبيينا بالبلاغة ، التى كان العرب على قدم
راسخة فيها ، وإذا كان عبد القاهر يلجأ فى حل مشاكل النظم القرآنى

إلى توضيح معاني النحو ، فاننا نجد الزمخشري يفعل هذا كذلك^(١) ،
 وإذا كان الزمخشري ياجأ كثيراً إلى اللغة والبلاغة العربية في تفسيره ،
 فانه لا ياجأ إلى الفلسفة وقد نهى عنها في كشافة كما فعل في تفسير قوله
 تعالى : « ويقتلون ما يضرهم ولا ينفعهم » فيقول : لأنهم يقصدون به الشر ،
 وفيه أن اجتنابه اصلح كتعلم الفلسفة التي لا يؤمن أن تجر إلى الغواية
 « فهو بهذا يخالف الرازي واضرابه^(٢) » ، وبالجملة فقد تتبع الزمخشري -
 كالجرجاني - خصائص الكلمات المنظومة ، في التعبير القرآني وأمعن في
 بيان التعريف والتفكير والتقديم والتأخير ، والفصل والوصل ، والحذف
 والذكر ، وغير ذلك .

(أ) يقول الزمخشري في مقدمته على الكشف في وصف القرآن
 « أنه الكتاب المعجز الباقي في كل زمان ، ودائر بين سائر الكتب
 على كل لسان ، في كل مكان أفهم به من طوب بمعارضته من العرب
 العرباء ، وأبكم من تحدى به من مصاقع الخطباء ، فلم يتصدر للآتيان بما
 يوازيه أو يدانيه واحد من فصحاءهم الخ ويستمر الزمخشري في
 كلامه فيقول : أن الذي يريد أن يسلك هذا الطريق — تفسير القرآن —
 ينبغي أن يكون قد أطل النظر في نظم القرآن .. ومهما يكن برع في الفقه ،
 وعلم التوحيد ، والوعظ والارشاد ، والنحو واللغة ولكن يجب عليه أن
 يكون قد تخصص في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان .
 ثم لا يفوت الزمخشري أن يشير أيضا إلى أن علمي المعاني والبيان

(١) انظر مثلاً في تفسير قوله « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين
 بلسان عربي مبين » وغير ذلك من الأمثلة في توحى النحو التي وردت في الدلائل أيضا .
 (٢) تفسير الكشف ج ١ : ص ٢٣١ آية ١٠٢ سورة البقرة .

لا يكفيان وحدهما لفهم اعجاز القرآن بل لابد من التفوق في علم الأعراب .
وفي موضع آخر يؤكّد رأيه في مسألة اعجاز القرآن فيقول « ذا دراية
بأساليب النظم والنثر ... قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف وكيف ينظم
ويوصف ، ويرى الزمخشري أن اعجاز الكتاب إنما ينظر فيه في الدرجة
الأولى ، إلى أسلوبه ونظمه وتأليفه ^(١) » .

(ب) ثم يقول الزمخشري في المحاورة التي يجربها عند تفسير قوله
تعالى : « الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمون » ومن حق مفسر
كتاب الله الباهر وكلامه المعجز أن يتعمّد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه
والبلاغة على كمالها وما وقع به التحدى سليما من القادح فاذا لم يتعمّد
أوضاع اللغة فهو من تعامد النظم والبلاغة على مراحل ^(٢) .

(ج) ومرة أخرى يقول في تفسير الآية « ألم ذلك الكتاب لا ريب
فيه هدى للمتقين » وقد يقال : أن قوله — ألم جملة برأسها أو طائفة من
حروف المعجم المستقلة بنفسها ، وذلك الكتاب جملة ثانية ، ولا ريب فيه
ثالثة ، وهدى للمتقين رابعة ، وقد أصيب بترتيبها ، متصل البلاغة ، وموجب
حسن النظم ، حيث جيء بها متناصفة هكذا من غير حرف نسق ، متأخية
أخذاً بعضها بمنق بعض فالثانية متحدة بالاولى مقتضية لهم وهلم جرا إلى -
الثالثة والرابعة . . . بيان ذلك أنه نبة أولا على أنه الكلام المتحدى به . .
ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال . . ثم يطرب الزمخشري
بهذا الأسلوب الفريد في نظمه وجزالته ، فيشعر بفرح ومرور بالغين - بما
كشفه ، فيقول : لم تخل كل واحدة من الأربع ، بعد أن رتب هذا الترتيب

(١) مقدمة تفسير الكشاف .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ : ص ١٤٥ .

اللائق ، ونظمت هذا النظم السرى من نسكته ذات جزالة . ثم يستطرد
 في تحليل بلاغة الكلام بقوله أن لازية في الأولى الحذف ، وفي الثانية التعريف
 وفي الثالثة التقديم ، وفي الرابعة الحذف ويوضح المصدر موضع الوصف
 فيوضح ذلك بقوله : في الأولى الحذف -- أى حذف المبتدأ -- والرمز إلى
 الغرض ، أى أن المتجدى به معجز من الله ، بالطف وجه وارشفه ، وفي
 الثانية مافى التعريف من الفخامة ، وفي الثالثة مافى تقديم الريب على الظرف
 « أى أنه يفيد نفي الريب عنه بالكلمة من غير تعرض لوجود ريب في غيره ،
 وفي الرابعة الحذف ووضع المصدر والذي هو هدى » موضع الوصف الذى
 هو - هاد - وإيراده منكرا والايجاز في ذكر المتقين (١) .

(د) ثم يرى الزمخشري : أن السر في جعل القرآن مفصلا هو تلاحق
 الأشكال والنظائر وملائمة بعضها لبعض ، بذلك تلاحظ المعاني ويتجاوب
 النظم ، إلى غير ذلك من الفوائد والمنافع .. ثم يستطرد الزمخشري في
 هذا المجال فيقول : في تفسير قوله تعالى : فأتوا بسورة من مثله « فإن
 قلت : وما مثله حتى يأتوا بسورة من ذلك المثل : قلت : معناه فأتوا بسورة
 مما هو على صفته في البيان الغريب ، وعلو الطبقة في — حسن النظم ثم
 يحيل النظر إلى ناحية أخرى من بيان اعجاز القرآن : وهو أن النبي كان
 أميا وجاء بمثل هذا الكتاب الذى اعجز فصحاء العرب عن أن يأتوا
 بمثله ، فيقول : أو فأتوا ممن هو على حاله من كونه بشرا عربيا أو
 أميا لم يقرأ الكتب ولم يأخذ من العلماء فتجدى المرء أن يأتوا ولا يأتون
 بمثله ، لأن القرآن جدير بسلامة الترتيب والوقوع على أصح الأساليب ، ثم
 يتعرض لمسألة التجدى التى هى أيضا متصلة باعجاز القرآن النظمي ، ويقلب

الآية ويفسرهما على وجوهها المختلفة وبيان عجز القوم وانخذالهم عن الآتيان بمثلا ، وأن — الحجة قد بهرتهم ، ولم تبق لهم مقشبا غير قولهم « الله يشهد أنا لصادقون » ، وقولهم هذا تسجول منهم على أنفسهم بقفاهى العجز وسقوط القدرة ثم يقول الزمخشري : وفيه دليلان على اثبات صحة النبوة صحه كون المتحدى معجزاً ، والأخبار بانهم لم يفعلوا وهو غيب لا يعلمه الا الله ، ثم يدير الزمخشري هنا محاورات كثيرة حول مسائل الاعراب وال لغة ، يقول : ان قلت : من أين لك أنه أخبار بالغيب على ما هو به حتى يكون معجزة قلت : لأنهم لو عارضوه بشيء لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقضوه ، إذ خفاء مثله فيما عليه مبنى العادة محال لاسيما والطاعنون فيه أ كثر عددا من الدايين عنه ، فحين لم ينقل ، علم أنه أخبار بالغيب على ما هو به فكان معجزة (١) .

(هـ) ثم ينتقل الزمخشري في مجال آخر من اعجاز القرآن وبشير إلى أن اعجاز القرآن يتوقف أولا على فصاحته ، وثانيا أمية النبي ، وثالثا اشتمال القرآن على الفروع والأصول والعلوم المختلفة ، ورابعا الأخبار بالغيب ، يقول في تفسير الآية : « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم وما أدراكم ... الح » — يعنى أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وأحداثه أمرا عجيبا خارجا عن العادات وهن أن — يخرج رجل أمدى لم يتعلم ولم يستمع ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره ولا نشأ في بلد فيه علماء فيقرأ عليكم كتابا فيصحا يبهر كل كلام فصيح ، ويعلموا على كل منثور ومنظوم ، مشحونا بعلوم من علوم الأصول والفروع وأخبار مما كان وما يكون ، ناطقا بالغيب

(١) تفسير الكشاف ج ١ : ص ١٨٤ الى ١٩٢ .

(٢) آية ١٦ من سورة يونس .

التي لا يعلمها إلا الله^(١) » .

(و) ومن استخراجات الزمخشري لبلاغة القرآن في تفسير الآية الكريمة « يا أسنى على يوسف » حيث يقول أن التعجاس بين لفظي الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً غير متعمد فيملاح ويدع ونحوه « أنا قاتم إلى الأرض أرخيم ، وهم ينهون عنه وينأون عنه ، يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ومن سبأ نبأ ، ويسمى هذا تعجيس التعريف حيث تنفرد كل كلمة من الكلمتين عن الأخرى بحرف^(٢) .

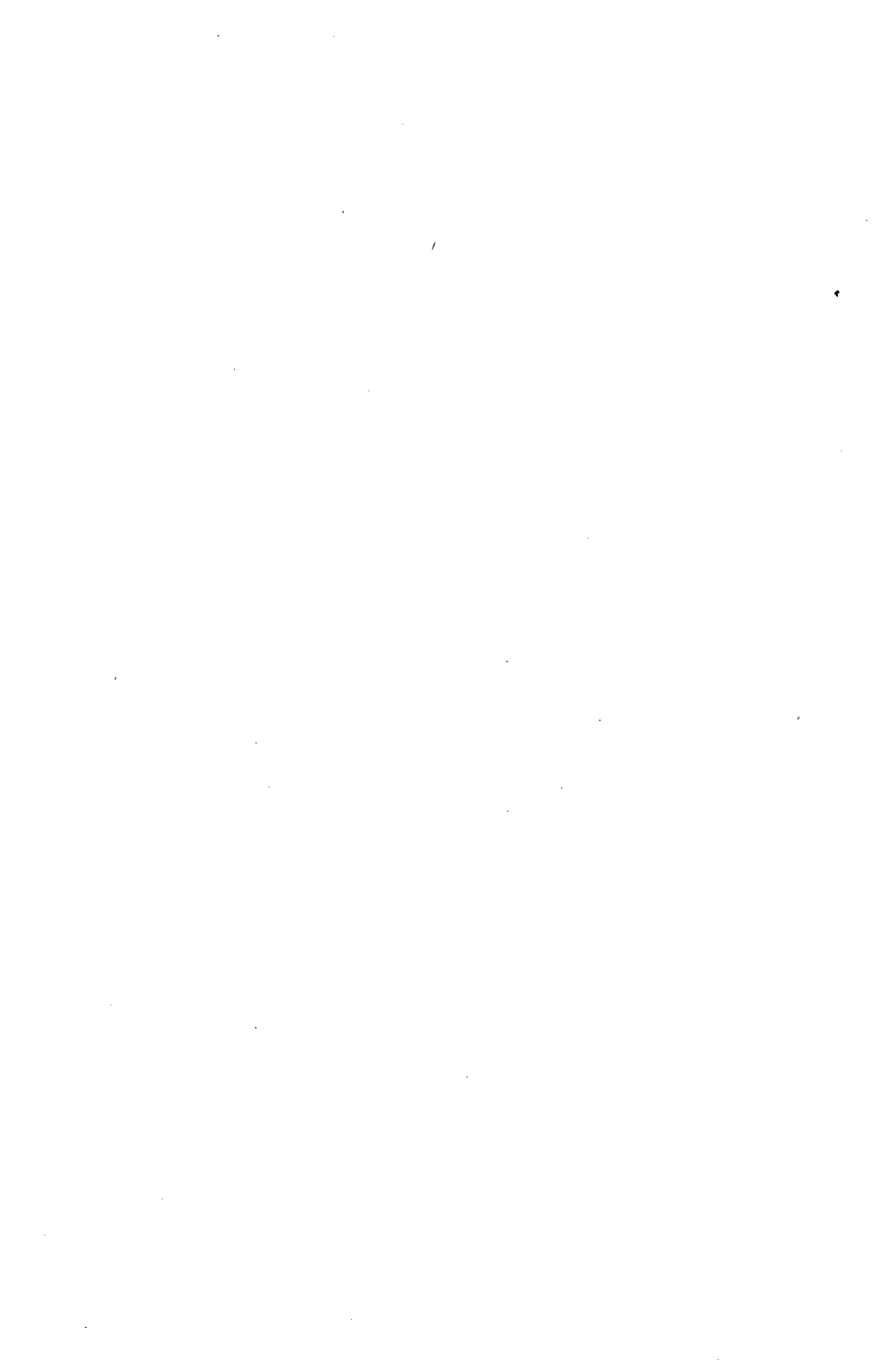
والحق يقال أن الكشف هو في مجمل أمره ، في بلاغة القرآن واعجازه ، كشف ومفصل لما أجمله عبد القاهر الجرجاني . في كتابه دلائل الاعجاز ، وأسرار البلاغة ، فهو يسير على خطى عبد القاهر في جوهره ، ومنهجه ، مما قد لمسناه في تحليله لبلاغة بعض الآيات ، وعند تفسيره لقوله تعالى « وفي القصص حياة يا أولى الألباب » وقد سلك الزمخشري في بيان جمال الأسلوب ، والنظم القرآني مسلك الجرجاني وتابع خطاه^(٣) .

(١) تفسير الكشف ج ٢ : ص ٦٩ .

(٢) تفسير البحر المحيط - لابی حیان - ج ٥ ص ٢٣٩ ، الكشف ج ٢ ، ص ١٥٠ .

(٣) راجع دلائل الاعجاز - الجرجاني - ج ١ ص ٥٠ ، ٥٧ ط المغرب والكشاف ج ١ ص ٣٨٣ حيث يمرض الزمخشري لكتابة والتعريض أو التلويح وتأثر بآراء الجرجاني .

الفصل الثالث
الزمن مشرى الأديب



كان الزمخشري في عصره ، أماما لامعا من أئمة الأدب ، وعلماء من أعلامه وشيوخنا من شيوخه ، وكانت ثقافته الأدبية ثقافة واسعة ، ولا عجب فقد تعلمذ على أعلام عصره ، في اللغة والأدب وغيرهما وقرأ وطالع كثيرا من مراجع الأدب وأصوله ، واستفاد من رحلته ، وتجاربه ، وخبرته ، بالحياة استفادة كثيرة مما نعى روح الأدب وثقافته ، ووسع من مواهبه ، ومداركه ، ونوع من فنونه .

ومن ثم نجد الزمخشري شاعرا وكاتبا وصاحب رسائل ومقامات ومؤلفات في الأدب ، وشارحا لبعض صورة كشرحه للأمية العرب .
ولذلك يقتضينا البحث أن ندرس الزمخشري في إيجاز من شتى جوانب الأدب وفنونه .

الزمخشري الشاعر :

كان شعر الزمخشري مظهرا جليلا ، من مظاهر مقدرته في الأدب وتفوقه فيه وديوانه « ديوان الأدب » الذي يحتوي الكثير من شعره خير شاهد على ذلك وهو ديوان ضخم يحمل بين دفتيه ما أنجبته قريحة الزمخشري من الشعر في شتى الأغراض والموضوعات وفنون الشعر من مدح وتهنئة وشكر وعقاب وفخر ورناء ووصف .

فاذا تفحص الباحث ، هذا الديوان لا يستوقفه شيء جديد يستقرعى النظر لأن الزمخشري بعلمه وفضله الجم اتبع في قرض الشعر الطريق الذي مشى فيه الشعراء من قبله ومن المعاصرين له هذا حذوهم وقلدهم في أسلوبهم وأخذ أفكارهم ومضامينهم وأنه أقرب إلى القدماء من الحداثين .

ومن حيث أغراض الشعر يبرز المدح والثناء كفرضين أساسيين من أغراض الشاعر في شعره وتقسم بعض قصائده بطابع الحزن والألم الشديد والشكوى من صروف الدهر وذلك عندما يشكو الزمان وأهواله حيث يبدو طابع الحزن العميق المتأجج العاطفة المشتعل الحرارة بقوة الأحساس ونراه عندما يرثى انسانا عزيز عايمه لا يقتصر على ذكر المزايا والأنفال في المرثي ، وإنما يشير إلى الذكريات التي تربطه بالمرثي بصلات وثيقة مؤثرة وبغلب على مرآئيه كذلك افراطه في الحسنات البديعية ، ومن أمثلة ذلك بعض شعره في رثاء استاذه أبي مضر : يقول :

وقائله ما هذه الدرر التي

تساقطها عيناك سمطين سمطين

فقلت هو الدرر الذي قد حشا به

أبو مضر أذن تساقط من عيني

فهو هنا يشبه المحسوس بالمعقول ، إلى ما في البيتين من حوار ومراعاة للنظير وتعليل وأجمال ثم تفصيل ومع هذا وأنت تقرأ شعره لا تجد المقعة واللذة فهو غالبا شعر جاف خال من المواقف والروح ، وربما كان هذا هو السبب الذي وقف بدبوانه حتى الآن أن يبرز إلى الوجود وإلى هذا يشير « القفطي » في كتابه أنباء الرواة وهو يتحدث عن شعره فيقول « كان الزمخشري شعر كشعر النجاة^(١) » يقصد أنه ليس في شعره روح وعذوبة وذلك لأنه كان شعره ، شعر علماء في أغلب الأمر وشعره في المدح كثير ويقول الزمخشري معللا كثرة مدائحه :

(١) أنباء الرواة للقفطي ج ٣ : ص ٢٦٧ .

إن قيل لى ما أكثر المدح التى

تعنى بها فجواب ذلك القائل

والشأن فى مدح أقول كثيرة

الشأن فى منح أنال قلائل^(١)

وحينما يعتمد عن الحياة الصاخبة ويختار العزلة ، عن المجتمع وهو يقيم
بمكة ، عزم كما يقول فى مقدمة مقاماته : (أن — لا يبطأ بأخصية عتبة
السلطان ولا واصل بخدمة السلطان إذباله) وأن يربأ بنفسه ، وإسائه عن
قرض الشعر ، فيهم ورفع العقيرة فى المدح بين أيديهم ، وأن يعف عن
ارتزاق عطاياتهم وافترض صلاتهم مرسومًا وإدراارًا وتسويقا (ومن هذا
النص يظهر حاجته الملحة إلى المدح لينال به وسائل الحياة ، ولكن مايناله
قليلا ضيئلا وأنه كان يقضى حاجاته بما تذود به أيدي الأمراء والولاطين .
والأسلوب الذى سلكه الزمخشري فى قرض الشعر ، هو أسلوب
القدماء حيث كان غالبا يلتزم أن يفتتح قصائده ، بالنسيب الذى كان ديوان
الشعراء من قديم وقد علل ابن أبى قتيبة السر فى ذلك بقوله :

« سمعت أهل العلم يقولون أن مقصد القصيد — إنما أبتدا فيها بذكر
الديار والدمن والأثار ، فشكى وبكى ، وخاطب الربع واستوقف الرفيق
بجمل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين منها ، إذ كان نازلة العمدة فى الحلول
والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر ثم وصل بالنسيب فشكا شدة
الشوق ، وألم الوجد ، والفراق ، وفرض الصباية . . . لأن النسيب قريب
من النفوس لائط بالقلوب وشكا النصب والسهو وسرى الليل

وانضاً الراحلة ، والبعر « ... ثم يقول : الشاعر المجيد من يسلك هذه المسالك ^(١) .

وهذا هو الأطار الذى سار عليه الزمخشري فى شعره فراه مبتدئاً بالنسيب جرباً على تقاليد القدماء فى نظم الشعر تمشيماً للسامع ورغبة فى اجتذابه إلى ما يبغيه وقد كان هذا الضرب من الغزل شائعاً فى العصر الجاهلى ولم يكونوا ياتزنهون أن تكون هناك عاطفة صادقة نحو امرأة معينة ولذلك تراهم فرقوا بين هذا الغزل الثقليدى والغزل الخالص فسموه نسيباً أو تشبيهاً يقول ابن رشيق ^(٢) : (والنسيب والغزل والتشبيب ، كلها بمعنى واحد) الذى نقرؤه فى ديوان الزمخشري ، لم يقطع بطابع الصدق لأنه لم يألف النساء ، ولم يتخلق بما يوافقهن وطبعى أن مثل هذا النسيب المتكلف ، لا يترك فى نفس القارى أثراً يخلوه من الأحساس الصادق ومن ثم نرى الزمخشري حين يذكر اسم المرأة فى نسيبه لا يقصد امرأة بعينها ، إنما هو يشبب بالمرأة عامة ومنزلة الزمخشري الدينية تؤكد أنه لا يمكن أن يكون صادقاً فى غزله وعلى أى حال فإن غزله لا يرقى إلى مستوى أصحاب العاطفة المتلهة لافى عذوبة ألفاظه ولا فى رقة معانيه ، ويمكننا أن نستخلص من هذا العرض السريع الخصائص التالية لشعر الزمخشري .

(أ) لم يكن فى شعره شيء من التجديد .

(ب) قلد القدماء فى أركان القصيدة .

(ج) يحتوى شعره على الغزل والمدح والرثاء والنصح والوصف

(د) استعمل المحسنات البدعية فى كثرة .

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٤ .

(٢) الممددة — لابن رشيق ج ٢ : ص ١١٠ .

(هـ) أكثر من المدح ونحس في بعض قصائده ألم الحرمان والحزن العميق وإليك صوراً متعددة من شعره :

يقول الزمخشري في رثاء شيخه أبي مضر : —
أيا طالب الدنيا وياتارك الأخرى

ستعلم بعد الموت أيهما أخرى
ألم يقرعوا بالحق سمعك .. قل .. بلى

وذكرت بالآيات لو تنفم الذكرى
أما وقر الطيش الذى فيك واعظ

كأنك فى أذنك وقر ولاوقرا
أمن حجر صلد فؤادك قسوة

أم الله ام يودعك لبا ولاحجرا
مازال موت الراء يحرب داره

وموت فريدالمصر قدخرب العصراء النخ^(١)
ويقول فى الغزل : —

أيا حبذا سعدى وحب مقامها
وياحبذا أين استقلت خيامها

حياتى وموتى قرب سعدى وبعدها
وعزى وذلى وصلها وانصرامها

سلام عليها أين أمست وأصبحت
وأن كان لا يقرأ على سلامها^(١)

وقال أيضا يخاطب الملك خوراز مشاه : —

(١) أبناه الرواة للنفطى - ج - ٣ - ص ٣٦٧ .

الملك لله أيها الملك

مادار إلا بأمره الفلك
لم يمحط في أرضه السلامة انسان

ولا في سمائه ملك
لو قلت أين الملوك قبلي لم

يختلف اثنان أنهم هلكوا
أنظر وفي الهالكين معتبر

هل هلكوا بعد طول ماملكوا
قد سلكوا الأولون مدرجة

سيسلك الآخرون ماسلكوا
كم سفكوا من دم ولو فطنوا

لحال دنياهم لما هم سفكوا
قد تركوها فقيم حرصهم

على المساعي لاجل ما تركوا
يا لابس الدهر ليس منهتك

ثوبك هذا وأنت منهتك
يا عجباً منك أن حقك أن ..

تبكي دماء وشأنك الضحكك
يا جبالاً راسياً ثباتك في

شدايد الدهر ليس يشترك^(١)

ويقول أيضا في الغزل وفي الاعتزال بالنفس : -

هلم نعى دار العامرية
وإن كانت تقل لها التحية
ونسمة مطر لها الاجفان حتى
تعود بصوب أدمعنا رؤيه
هى الدار التى عشنا زمانا
حياة فى مغانيها هنيه
وأيا ما قصارا لم يعبها
بشئ غير أن مرت وحيه
بها دارت لها اخلاف لهو
حواليها غزار لابيها
فهل لى من أصائلها أصيل
وهل لى من عشايها عشيه
ولن أنسى لىالى بت
أستى رحيقاً من رضاب العامرية
لىالى كنت فى صبحي صبيها
وسعدى فى صواحيها صبيها
ويجمعنى وإياها وصال
على أن أن الوصال مع الهقيه
فما ثلثت إذن دينى وأن لم
تزل كبدي لمقاتلها رمية

قبيح لى إلى الفضل انقساب
والمام باحقال رديه
لفقت مروثى بالدين لفا
فدينى والمرؤة لى سجييه
نقى العرض من طاب دنى
وماللفاس أعراض نقييه
وإن المن من نفر لثام
أمر لى من طعم المنيه
يقل عطاؤهم وللمن جسم
فلا كانوا ولا كان العطية
ومادار المذلة لى بدار
أبت لى ذلك النفس الأبيه
بلعن الله أتركها وأمضى
باذن الله عنها والمشييه
سقت سعدى نجوم السعد ربا
وإن كانت بها نفسى شقية

الزغشرى السكاتب :

كما كان الزمخشرى شاعرا ، كان كذلك ناثرا ، صاحب رسائل
ومقامات تأثر بمذهب عصره فى أسلوب الكتابة وإتجاهها ونحا نحو
معاصريه فى الحرص على السجع - الاهتمام به وإيثاره فى قصر لجله ، حيفا
وفى تطويل لها أحيانا آخر .

ويقول عنه ياقوت ^(١) « كان الزمخشري اماماً في التفسير والنحو واللغة والأدب واسع العلم كبير العقل متفنناً في علوم شتى » ويقول الزمخشري: في شعره من ديوانه المخطوط « ديوان الأدب » ^(٢) .
وأنى في خوارزم كعبة الأدب .

ويقول الوطواط (م ٥٧٨ هـ) (رقد جرى بيني وبين الزمخشري في حياته وأوقات راحاته مما يتعلق بفنون الأدب وأقسام علوم العرب مسائل أكثر من أن يحصى عددها) ^(٣) .

وقد طارت شهرة الزمخشري في عصره ووصفه الأدباء والبلغاء بالبلاغة ونباهة الأسلوب . ولقد عاش الزمخشري في عصر أدبي مزدهر ، كان يرجع في أصول البيان والأسلوب إلى بلاغة ابن العميد وعبد القاهر وسواهما من فحول الأدباء مع ميل إلى الصناعات اللفظية غير المتكلفة واجتهاد في الطباق ، والمقابلة والجناس والتورية ، والمشاكسة ، وإيمان في التعليل والتحليل ، والتفصيل وإثارة التشبيه والكناية والاستمارة البليغة وتفصيل للسجع والترصيع والتوقيع ، ولقد ظهرت هذه الخصائص كلها في كتبه ورسائله ويمثل أسلوبه هنا في رسالته إلى حافظ الاسكندرية - أبى الطاهر السلفى ^(٤) : حيث يقول : — (ما مثلى مع أعلام العلماء إلا كمثل السهام مع مصابيح السماء ، الجهام الصفر من الرهام ، مع الفوادى الغامرة للقيمان والآكام والسكيت الخلف مع خيل السباق والبغات ، مع الطير العناق

(١) معجم الادباء ، لياقوت ج ١٩ ص ١٢٦ ط فريد رفاعى .

(٢) ديوان الادب لزمخشري ورقة ٨ .

(٣) رسائل البلغاء ص ٣٧٨ وما بعدها نشر كرد على ط ١٣٦٥

(٤) وفيات الاعيان - ابن خلكان ج ١ : ص ٣٧ ، ٣٧ ط بولاق معجم الادباء -

لياقوت - ج ١٩ ص ١٣٢ .

وما التلقيب بالعلامة إلا شبه الرقم والعلامة ، والعلم مدينة ، أحد بابيها
الدراية والثاني الرواية وأنا في كلا البابين ذو بضاعة مزجاة ، ظلي فيه
أقلص من ظل حصاة ، أما الرواية فحديثه الميلاذ ، قريبة الاسناد لم تستند
إلى علماء نحارير ولا إلى أعلام مشاهير وأما الدراية فتمد لا يبلغ أفواها
ويرض ما ييل شفاها ، ثم يستطرد ويقول : —

ولا يغرنكم قول فلان وفلان في ... فان ذلك اغترارا منهم بالظاهر
الموه وجهل بالباطل المشوه ، ولعل الذين غرهم منى ما رأوا من حسن
النصح للمسلمين وبلوغ الشفقة على المستفيدين ، وقطع المطامع عنهم ، وإفادة
المبار والصنابع عليهم وعزة النفس والرب بها عن السفساف الدنيات ،
والاقبال على خويصتي والأعراض عما لا يعنني فجالت في عيونهم وغلطوا
في ونسبوني إلى ما لست منه في قبيل ولادير ، ولا أنا فيما أقول بها ضم
لنفسى كما قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى في قول — أبى بكر الصديق
رضوان الله عليه ، وليتكم ولست بخيركم ان المؤمن ليهضم نفسه ، وأما
صدقت الفاحص عنى وعن كنه روايتى ودرايتى ومن أخذت عنه وما بلغ
علمى وقصارى فضلى وأطلعته طلع أمرى وأفضيت اليه بخيبة سرى ، والقيت
اليه عجرى وبجرى وأعلمته ، نجمى وشجرى .

حيث نجد خصائص عصره الأدبية سائدة فيها ، وأسلوب نظرائه غالبا
عليه واهتمامه بالتقسيم والسجع والتوقييم كثيرا ، وأحيانا قليلا بترك السجع
إلى المزاوجة والارسال حرصا منه على المعنى وإظهاراً لعنايته به .
ويمثل نثره كذلك ، مقدماته فى كتبه حيث توضح فيها خصائص
العصر الأدبية فى الكتابة والقرسل ، يقول الزمخشري فى مقدمة كتابه

(الأمثال) (١): « وقد تصدّيت للانصباب إلى هذا المضمار ، وتصدى القاصد بذرعه ، والرابع على ظلمه فتدبرت شعب الفن الذى أنا كائن بصدده ، وقائم بازائه ، فصادت الشبهة التى هى أمثال العرب ، خليفة بالميل فى صفو الاعتناء بها ، والكدر فى تقويم مفادها واعطاء بداهة الوكد وعلايته اياها ، إلى استكشاف غوامضها والغوص على مشكلاتها ، ولا سيما من انتدب منهم لتدريس قوانين العربية واقراء الكتب الكبار .

فقيدت من أوابدها ما أعرض ، واقتنصت من شواردها ما أكتب ثم ارتبطتسها فى قرن ترتيب حروف المعجم ارتباطا جنحت فيه إلى وطأ منهاج أبين من عود الصبح غير متجانف للتطويل عن الایجاز ... الخ . حيث نجده يحتمد غاية الاجتهاد فى تحلية أسلوبه بالسجع الطويل الفقرات ، فان فاته السجع فى أحيان قليلة ، لجأ إلى التوقيع والازدواج يحلى بهما جماله ويرصعها مع اجتهاده فى تصيد المعنى ودقته فى تجلية الغامض منه فى أوضح بيان وأفصح تركيب .

ونقرأ مقدمته لكتابه (مقدمة الأدب) فنجد صنعة بيانية دقيقة وسيرا على مذهب ابن العميد فى الكتابة وتعمد الحلى فى الأسلوب اللفظية والمعنوية وتفضيلا للسجع الطويل الفقرات ويقول الزمخشري فى مقدمة هذا الكتاب: الحمد لله الذى فضل على جميع الألسنة لسان العرب ، كما فضل الكتاب المنزل على سائر الكتب والصلوات على النبی الأمى العربى وعلى آله أشرف العرب بعد النبی وجلالة هذا اللسان وما جعل الله له من بناءة الشأن وان الحاجة اليه ماسة ، فى الملة الاسلامية فى أنواع علومها وفنون آدابها ، كان

(١) كتاب المستقصى فى الأمثال مخطوط بدار الكتب المصرية عن نسخة عام ١٠٠٨

المعاطون لاتقانه والتعجر فيه معدودين في علماء هذه الأمة المذكورين في طبقات الأئمة ومن صنع الله تعالى ، لهذه الطبقة ان الملوك لم تمطر سحائبهم ، ولا فاضت أعطياتهم ومواهبهم على أحد فيضها على هؤلاء من أدبائهم وخطبائهم ، ومقرسليهم وشعرائهم ، ولم يغفل بعد انقضاء دولة العرب عصر من الأعصار من ملك فاضل جواد . يرغب فيهم وبصطنعهم .. الخ .

وإذا عدنا إلى ديوانه ، نقرأ له مقدمة النثرية القصيرة التي يقول فيها : قال عبد الله الفقير إليه — محمود بن عمر الزمخشري رحمة الله عليه ، أبدأ بحمد الله على هدايته لأقوم السبل وأمنى عليه بالصلاة على خاتم الأنبياء والرسول ، فان الذكر مضمحل لحد الله ، فيه قدمة الحلى والصلاة على مصطفىه ، محمد قدوة المصلى وأتخذهما ذريعتي إلى من لا أشيم إلا خائيل جوده ولا أشيم إلا في خائيل مجوده ولا استجدي إلا من الأفقر إليه . هو الأغنى وإلا من الملق بين يديه ، هو الخطر الأسنى وإياه أسأل تحت سجوف الظلام ، واليه أجار في ساعات القيام أن يقمصني شعار التوبة النصوح .. الخ .

* * *

حيث نلاحظ اتحاد الخصائص البيانية في شتى فصول الزمخشري النثرية وكتابات الأدبية ، التي كان ينهج فيها نهج المذهب الأدبي السائد في عصره في الكتابة والانشاء النثرى ، وهذه الخصائص تعود إلى ما سبق أن أوضحناه ، مما هو اعتداد المذهب ابن العميد في النثر ، ومما يعد سمة عامة لأساليب النثر في عصره حيث يتكئ الكاتب على الأسلوب ، والحلى البيانية والبديعية ويعن في الترصيع والتزيين والنوشية والصنعة امعانا كبيرا .

ومن العجب أن يتحد منهج الزمخشري في أسلوبه في مختلف نماذجه حيث لا ترى فرقاً كبيراً بين خصائص أسلوبه في هذا النموذج الذى سبق ولا فى هذا الذى ذكره وهو مقدمته لكتابه « أعجب العجب » يقول الزمخشري فى هذه المقدمة : « سبحانك اللهم وبحمدك معرب الافهام » بقيد الافهام ، ... هذه نكتة قذفتها خواطرى ، وفائدة جردتها نواظرى وعقد توسط بين درر الجواهر وروض بيقسم بين الزهور النواضر ، وسبك لم ينسج على منواله ، فيقال قد سبق اليه ، وزركش قد نظم بين اليواقيت ، فكل عالم يرج اليه ، غاص لها الخاطر فى بحر الأفكار فاستخرج دررها وتاه الناظر فى بكر الأفكار فاستحضر صورها ، من كل غريبة كل حديد النظر عن تقررها ومل مزبد الفكر عن تدبرها ، نصبت فيه قريحة القرائح وتاهت فى ميادينها قانصة السوانح .. الخ » .

ولنقرأ لازمخشري من أسلوبه فى النصائح الصغار (أطواق الذهب) حيث يقول : (ما يخفض المرأ عدمه ويثمه ، إذا رفعه دينه وعلمه ، ولا يرفعه ماله وأهله إذا خفضه فجوره وجهله ، الأدب هو الأب ، بل هو للأنثى أرأب والقوى هى الأم ، بل هى إلى اللبان أضم ، فاحرز نفسك فى حرزها ، واشدد . يديك بغرزها يسفك الله نعمة صيبة ويحييك حياة طيبة . ويقول كذلك : فى المقالة الثانية : (يا بن آدم أصلك من صلصال كالفخار ، وفيك ما لا يسمعك من القيمة والفخار ، تارة بالأب والجد وأخرى بالدولة والجد ما أولاك بأن تصغر خديك ، ولا تفتخر بجديك ، تبصر خايلى مم مركبك ، وإلى م منتلبك ، فخفض من غلوائك ، وخل بعض خيالاتك ... الخ) .

ف نجد أن الزمخشري هنا يجتهد فى التصرص ، ويؤثر السجع ولكن مع ميل إلى قصر الفقرات ومع التزام لما يارم من حيث اختيار أكثر من حرف

في آخر الفقرات المسجوعة . ففي المقالة الثانية نجد التشجيع بين فخار — وبالاقتدار — لايقف عن الرأى في السكمتين بل يتعداه إلى ما قبلها من الالف والحاء في قوله : - خديك — وجدبك — كذلك يلتزم مع السكاف الياء والذال قبلها ، وفي المقالة الأولى نجده في الفقرتين الأوليين يقول : - بقمه - وعلمه - ، يلتزم مع الهاء حرفا واحدا قبلها وهو (الميم) ، وهذا المذهب وهو التزام ما لا يلزم عده ابن المعتز في كتابه البديع من ألوان البديع ، وقد ألتزمه من الشعراء أبو العلاء الممرى ، في لزومياته ، وألتزمه في الفتر الكتاب المتأخرون ومن بينهم الأديب الزمخشري .

ونقرأ الزمخشري من مقاماته الأخرى في غير اطواق الذهب وليكن ما نختاره مقامة (العزم) حيث يقول فيها : « يا أبا القاسم يا ضابط نشوات البغي ، وبامعطل صفايا عمره ، مقوليا عن أمر المتولى لأمره ، وبامتناقلا عما يجب فيه الانكماش ، وبأمن كبوة ليس بعدها انقماش ، وبامن همه مبهوث فيما هو على ضده ممحوث ، وقلبه صب مشوق : إلى خلاف ما هو عليه مسوق ، وبامدلى بفرور الفتان ومكره ، ومستدرجا بدوائه ونكره ، فيما لا يذهب إليه عاقل بفكره خفض قليلا من غلوائك ، وأدل من معاصاتك لارعوائك ، وشمر عن ساق الجد في ترك الهزل ، وإصدار في تدبير أملك عن الرأى الجزل لاتفرس إلا ماتلين غدا ايديك مثانيه ومعاطفه ويطعمك الحلو الطيب مجانيه ومقاطفه ، ولن يتم لك ذلك ألا إذا حفظت شربك مما يعافه الساقى والشارب ونفقت مريبك مما يخافه السارى والسارب الخ .

ويقول في مقامته التى سماها (مقامة التقوى) :

(يا أبا القاسم العمر قصير ، وإلى الله المصير ، فما هذا التقصير أن

زبرج الدنيا قد أضلعتك ، وشيطان الشهوة قد استزلتك ، لو كنت كما تدعى من أهل اللب والحجى لأنيت بما هو أحرى بك وأحجى ، إلا أن الأحجى بك أن تلوذ بالركن الأقوى ولا ركن أقوى من ركن التقوى ، الطرق شتى ، فاختر منها منهجا يهديك ، ولا تخط قدماك في مضلة ترديك ، الجادة بيمة والمججة نيرة ، والحجة متضحة ، والشبهة مفتضحة ووجوه الدلالة وضاء ، والحنفية نقية بيمضاء ، والحق قد رفعت ستوره وتبلج ، الخ .

ومن أسلوب المقاتلين نعرف أن الزمخشري سار على نهج معاصريه في نظم المقامة من حيث الأسلوب والخصائص الفنية والحرص على التزام مالا يلزم ، والسجع ، ومحسنات البديع ، ويضمن مقاماته غالبا أغراضا دينية من حيث كان معاصره الحريري (٤٤٦ / ٥١٦ هـ) يجعل المقامة مشتملة على كل أغراض الشعر ، وفقرات المقامة عند الزمخشري قصيرة غالبا قصر مقاماته الوعظية المشهورة (أطواق الذهب) ، وبخلاف الحريري لا يلتزم الزمخشري في مقاماته راوية وبطلا بل يبدؤها بأبى القاسم ، وهي كنيته . وكأنه يخاطب بها نفسه ، ومن ثم أقزم الزمخشري ، فيها توجيه النصيح واسداءه لنفسه ، ففي مقامته الأولى يخاطب نفسه واصفا لها بأوصاف الغافل عن الآخرة المقبل على الدنيا ، ويقبل عليها وينصحا بشتى النصائح الخلقية والدينية التي تعبر عن قوة نزهته الدينية وتصور كذلك أخلاقه وسلكه وشخصيته الاجتماعية ، وهكذا في مقامته الثانية يوبخ النفس على ما هي مقبلة عليه من تقصير وافتران بالدنيا وميل إلى وساوس اللذة وحث النفس على التقوى إلى آخر ما نصح به نفسه ، من دعوتها إلى التزام الفضائل وتجنب كل ما يوبق النفس ويهلكها ، ونحن لانحب أن نطيل هنا لأننا سنعرض المقامات في بحث مستقل لإنشاء الله .

الذوق والادبى عند الزمخشري :

كان الزمخشري مع امانته في اللغة والأدب، شديد الاحساس بالجمال البياني ذواقة الأساليب العربية، متمسكنا في فهم خصائص البلاغة وأصولها كان مكتمل الذوق الأدبي الذي يكون الأديب به تام الموهبة كامل الأداة عميق الشعور والفهم والموازنة بين تعبير وتعبير وأداء وأداء، ونظم ونظم. والذوق يتجمع للاديب من ثقافات واسمة في الأدب وفطرة أدبية ناضجة والتميز والنقد، وموهبة مكتملة قوية الأحساس بجمال البيان والقياس، ومهما أطال الانسان في القراءة الأدبية وحفظ الكثير من أشعار العرب ومنثورها فانه لا يمكن أن يسمى أديبا إلا إذا ساند ذلك كله ذوق أدبي مفلور على فهم أسلوب العرب وتذوقه ونقده، ومن ثم فاننا مع اعجابنا بثقافات الزمخشري الأدبية نعجب كذلك بذوقه واحساسه بالجمال البياني، والذوق عنده هو من مقومات شخصيته الأدبية، وهو الذي جعله متمسكنا في كل ما تناول من علوم العربية وآدابها وبدلنا على ذوقه الأدبي تفسيره السكشاف الذي اشتمل على كثير من الأمثلة الحية الناطقة باكمال ذوق هذا العالم في شتى علوم الأدب ونضج ثقافته الأدبية الواسعة.

ومن مثل ذلك هذه الشواهد القليلة :

١ — قال الزمخشري : وللهل بمواقف « أن ، وإذا » — أى في أسلوب العرب — يزيغ كثير من الخاصة عن الصواب ألا ترى إلى عبد الرحمن بن حسان كيف أخطأ بهما الموقع في قوله ، يخاطب بعض الأمراء ، وقد سأله حاجة فلم يقضها ثم شفع له فيها فقضاها :

ذممت ولم تحمد وأدركت حاجتي

تولى سواك أجزها واصطناعها

أبى لك كسب الحمد رأى مقصر

ونفس أضاق الله بالخير باعها

إذا هى حنته على الخير مرة

عصاها وإن همت بشر أطاعها^(١)

٢ — يكثر الزمخشري في تفسيره ، من الموازنة بين أساليب القرآن وبين أسلوب العرب في بيانها ، وذلك كلما اقتضى المقام هذه الموازنة وأستدعى التحليل وال ترجيح وال تفضيل وذلك للدلالة على بلاغة أسلوب القرآن ، ويقول الزمخشري عند تفسيره الآية : « ويطوف عليهم ولدان مخلدون ، إذا رأيتهم حسبتهم لأولوا منثورا » مستطردا عن المأمون أنه ليلة زفت إليه بوران ، بنت الحسن بن سهل وهو على بساط منسوج من ذهب ، وقد نثرت عليه نساء دار الخلافة اللؤلؤ فنظر إليه ، منثورا ، على ذلك البساط فاستحسن المنظر وقال : لله در ، أبى نواس ، كأنه أبصر هذا حيث يقول :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها

حصباء در على أرض من الذهب^(٢)

ونقول . أنه على بلاغة بيت أبى نواس فإن الصورة التى رسمها صورة قريبة إلى الذهن ، ممكنة الحصول على مرأى العين وليس أدل على وقوعها من بساط المأمون ، المنسوج من الذهب الذى رمى عليه باللؤلؤ المنثور ، إلا أن التشبيه فى الآية السكريمة وهو تشبيه الأطفال ، الذين

(١) الامالى - لقالى ج / ٢ ص ٢٢ - شارح الايضاح - للخفاجى ج / ٢ ص ٦٨ -

البيان والتبيين ج ٣ ص ١١٣ .

(٢) تفسير السكشاف ج ٣ : ص ٢٩٩ - آية ١٩ من سورة الانسان .

اكتسوا مسحة من الجلال ، باللاؤا المنثور ، تشبيه غير مألوف وليس
قريبا إلى الذهن ، وهو قلما يخطر ببال بليغ ، ثم هو أعظم دلالة على
ما وهب هؤلاء الولدان من شباب وجمال وسحر .

وعندما استطرذ الزمخشري ، إلى ما استطرذ إليه من قصة المأمون
لا يريد بذلك مجرد استطراد ، إنما يريد أن يوقفنا على صور أدبية عديدة
تدور في تلك الآية وبلاغتها وتشويق من جمالها وفصاحتها ، وكأما ترك
الزمخشري حديث الموازنة ليدلنا على رفعة منزلة القرآن في تعبيره ونظمه .
ومن مثل الموازنة الأدبية في الكشف ما ذكره الزمخشري في الآية :
« ولقد مكناهم فيما أن مكناكم فيه ^(١) » ، يقول : أن نافية إلا أن - أن
أحسن في اللفظ لما في مجامعة - ما - مثلها - من التكرير المستبشم ومثله
مجتب ، ألا ترى أن الأصل في « مهما » - ماما - فلبشاعة التكرار
قلبوا الألف هاء ، ولقد غث أبو الطيب في قوله (لعمرك ماما بأن منك
لضارب) وماضره لواقتهى بمذوبة لفظ التنزيل .

ومما ذكره من الإشارة إلى الموازنة ، كذلك ما ذكره من الموازنة
بين الآية الكريمة « أنها ترمى بشرر كالفصر كأنه جهالات صفر » ^(٢) وبين
قول أبي العلاء المعري :

حمراء ساطعة الذوائب في الدجى

ترمى بكل شرارة كطراف

فشبهها بالطراف وهب بيت الأدم في العظم والحجرة ، وكأنه قصد

(١) تفسير الكشف ج / ٣ ص ١٢٤ الآية ٢٦ من سورة الاحقاف .

(٢) تفسير الكشف ج / ٣ ص ٣٠٣ الآية ٣٢ ، ٣٣ من سورة الرسلات .

بغيبته أن يزيد على تشبيه القرآن وتبجيحه بما سول له من توهم الزيادة جاء في صدر بيته بقوله « حمراء » توطئة لها ومناداة عليها وتنبيهها للسامعين على مكانها ، ولقد عسى ، جمع الله له عسى الدارين عن قوله عز وعلا (كأنه جمالات صفر) فانه بمنزلة قوله : كبيت أحمر وعلى أن في التشبيه بالقصر وهو الحصن ، تشبيها من جهتين ، من جهة العظم ومن جهة الطول ، وفي التشبيه بالجماليات ، وهى القلوس ، تشبيه من ثلاث جهات : من جهة العظم والطول والصفرة ، فأبعد الله أغرابه طرافة وما نفخ شذقيه من اسطرافه .

كذلك ما ذكره في الآية « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى^(١) » حيث يقول : فان قلت : هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازا ، في معنى الاستبدال فامعنى ذكر الربح والتجارة ، كأن ثم مبايعة على الحقيقة ؟ قلت : هذا من الصنعة البديعية التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ، ثم تقفى بأشكال وأخوات ، إذا تلاحقن لم تر كلاما أحسن منه ديباجة وأكثر ماء وروثا ، وهو المجاز المرشح ..

٣ — يفرض الزمخشري في تحليل أساليب القرآن وبلاغته تحليلا أدبيا رائعا ، وذلك شاهد بذوقه الأدبى الرفيع ومن مثل ذلك ما ذكر في تفسير الآية « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » حيث يقول هذا كلام فصيح لما فيه من الغرابة ، وهو أن القصاص قتل وتقويت الحياة ، وقد جعل مكانا وظرفا للحياة وبعد اصابة محرز البلاغة بتعريف

(١) تفسير الكشاف ج / ١ ص ٢٥٣ الآية ١٧٩ من سورة البقرة .

القصاص وتنكير الحياة... الخ^(١).

٤ — والزمخشري لا يعصب للشعر القديم وحده بل أنه يساوي بين الشعر الحديث والقديم مادام يكتمان بحلى البلاغة وخصائصها ، ويبعدان الخطأ عن الخطأ في التعبير والبيان وذلك في عصر كان البعض يعصب للقديم وحده والبعض للجديد وحده ، إلا أن الزمخشري نأى بنفسه عن أن يكون متعصبا للقديم على الجديد ولا الجديد على القديم ، وليس أدل على ذلك من أنه يستشهد في تفسيره بأشعار المحدثين كثيرا ، فيستشهد بشعر لأبي نواس :

ليس على الله بمستنكر

أن يجمع العالم في واحد

ويستشهد بقول أبي النواس كذلك :

اسقنى حتى ترانى

حسنا عندى التبييح^(٢)

ويستشهد بشعر له وهو :

يا من يرى مد البعوض جناحها

في ظلمة الليل البهيم الليل^(٣)

وهو لا يذكر اسمه ويكتفى بقوله وأنشدت لبعضهم - وكذلك يستشهد

بشعر له حيث يقول : ولبعض المجاورين :

فمن يلق في بعض القرىات رحله فأم القرى ملقى رحالى ومنقانى^(٤)

(١) تفسير الكشاف ج ١ : ص ٢٥٣ الآية ١٧٩ من سورة البقرة .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ٢٢١ ، ٥٠١ .

(٣) تفسير الكشاف عند قوله تعالى « أن الله لا يستحي أن يضرب مثلا .. الخ .

(٤) تفسير الكشاف - آية ٢٦ سورة البقرة .

ويستشهد بشعر المتنبي وعصم الدولة وسواهما في تفسيره^(١) وذلك كله دليل على أن منهج الزمخشري الأدبي كان لا يميل لمصيبة على شعر المحدثين ولا لمصيبة كذلك على شعر الأقدمين ، وإنما كان يقف في المنزلة الوسطى يخص باستحقاقه وإثارة كل ما أجاد قائله فيه .

* * *



الباب الثاني
الاتجاهات اللغوية
عند الزمخشري



الفصل الأول

مقامات الزمخشري
وإتجاهه اللغوي فيها



للزمخشري كتابه « المقامات » وهى مقامات مشهورة وعددها
خمسون مقامة ، وتفاوت فى القصر والطول ، وأسلوبه فيها يجرى على نهج
أسلوب أصحاب المقامات من معاصريه وفى مقدمتهم الحريرى صاحب
المقامات الذائعة .

وله كذلك مقامات كثيرة سماها « أطواق الذهب » وكلامنا هنا
يشمل ، المقامات ، والأطواق ، التى هى من أنواع المقامة التى تمتاز بالقصر
والإيجاز الشديد .

ومن الجدير بالذكر أن مقامات الزمخشري تقسم بطابع دينى وعظى
وتخلو من الحوار والعقدة ومن خصائص الفن القصصى فى الأدب العربى ،
وسوف نتناول هنا الاتجاه الأخرى عند الزمخشري فى مقاماته لأن ذلك
يرشدنا إلى جوانب كثيرة فى البحث .

طبعت مقامات الزمخشري طبعات مختلفة مع شروح وتعليقات
وتحوى على المقامات الغالية :

مقامة الراشد ، مقامة القنوى ، الرضوان ، الارعواء ، الزاد ، الزهد
الانابة ، الحذر ، الاعتبار ، التسليم ، الصمت ، الطاعة ، المنذرة ، الاستقامة ،
الطيب ، القناعة ، التوقى ، الظلف ، الغزلة ، العفة ، الندم ، الولاية ، الإصلاح ،
الاخلاص ، العمل ، التوحيد ، العبادة ، التصبر ، الخشية ، اجتناب الظلمة ،
القهجد ، الدعاء ، التصديق ، الشكر ، الأسوة ، النصيح ، المراقبة ، الموت ،

الفرقان ، الفهوى عن الهوى ، التماسك ، الشهامة ، الخمول ، العزم ، الصدق ،
النحو ، العروض ، القوافى ، الديوان ، أيام العرب .

وهى خمسون مقامة — بعدد مقامات الحريرى — وجلها تدور كما
ذكرنا حول الدين والأخلاق والفضائل ، وتمثل نهجه فى الحياة ، والمقامات
الخمس الأخيرة وإن تحدثت عن النحو والعروض ، والقوافى ، وأيام العرب
والديوان ، فإنه ينحو بها نحو دينيا ، ويضمها اصطلاحات كثيرة ، وتوريات
جميلة ، ولا شك أن هذه المقامات تمثل كما أسلفنا مذهب أبى القاسم الزمخشري
الأدبى تمام التمثيل ، من حيث الأسلوب ، والصياغة ، والتعبير الفنى ، كما
تمثل طابعه اللغوى .

والمقامة فى اصطلاح علماء الأدب ، هى لون من ألوان القصة القصيرة
أو فن من الانشاء البليغ المنمق ، يروى على لسان امرئ خيالى فى الغالب ،
يحكى قصة وقعت فى لسان الأكثر بتخييلهم الكاتب بطائفة ويضع على
السنة عبارات يتفصح فيها ما استطاع فيلتزم فيها السجع غالبا ويوشىها
بحلى البديع ، واناقة ، ويودعها ما شاء من طرفة أدبية أو مسألة علمية أو
ملحة فكاهية أو تصوير لحالة اجتماعية مع ما يتبع ذلك من وصف الأماكن
والأشخاص ، والأخلاق ، والنفوس .

على أن المقامة عند الزمخشري لا تشمل هذه الجوانب القصصية المعروفة
عند البديع والحريرى واضرابهما ، كما سبق أن ذكرنا أنه جعل طابعها
طابعا وعظما محضا وباعد بينها وبين الحوار والعقيدة وجعلها خطابا لنفسه
فحسب .

وفن المقامة على أنة حالة نشأ ونما وازدهر على يدى البديع والهمذانى
(م ٣٩٨ هـ) كما يذهب اليه أكثر العلماء وإن قيل أنه سبق بأحاديث

ومجالس قصصية لأبي بكر بن دريد (م ٣٢١ هـ) ومقامات للإمام اللغوي أحمد بن فارس (م ٣٩٠ هـ).

وظهر بعد البديع كثيرون ممن كتبوا المقامات ومنهم / ابن باقيا البغدادى (م ٤٨٥ هـ) وأبو الهيجاء الأصفهاني (م ٥٣٠ هـ) وله مقامات ألفها (عام ٤٩٠ هـ) وابن نباتة السعدي (م عام ٤٠٥) وغيرهم إلى أن ظهر الحريري بمقاماته المشهورة المأثورة وقد توفي عام (٥١٦ هـ).

وبعد الزمخشري من كتاب المقامات المشهورين الذين عاصروا الحريري وليكنه كتب مقاماته بعد أن كتب الحريري مقاماته بمدة قليلة فقد ألف الزمخشري بعض المقامات قبيل عام ٥١٢ هـ — وأكملها بعد هذا العام كما جاء في خطبة مقاماته ، وبذكر الزمخشري أن سبب انشائها أنه رأى في منامه من يقول له : يا أبا القاسم أجل مكتوب وأمل مكذوب ، فاستيقظ من منامه فزعا مما سمعه ، وأخذ يكتب ، مقامة جاء فيها — هذه الكلمات وهي « مقامة الرضوان ، ثم كتب مقامات قلائل وتوقف حتى كان عام ٥١٢ هـ ، وهو عام العزلة في حياته فأخذ ينشئ بقية مقاماته ، حتى أكملها خمسين مقامة يعظ فيها نفسه وينهاها ، ويلتزم فيها انتقاء اللفظ واحكام السجع ، وتفويف النسج وابداع النظم ، واختيار المعاني التي تؤدي غرضه ، وتوضح هدفه ، كما جاء في مقدمة هذه المقامات .

« أطواق الذهب » للإمام الزمخشري ، هو أيضا لون ألوان المقامات ، وسماء الزمخشري « أطواق الذهب » في المواعظ والخطب (وفي مقدمته يشير الزمخشري إلى أنه ألفه في مكة حيث يقول : في مناجاة الله : « واصطنعني بالنقل إلى أحب بلادك اليك وأعزها وأكرمها عليك ،

وحليمتى بدملج الفخر وسواره حين شرفتني بحج البيت وجوارك ،
وأرغب اليك أن تفيض على هذه المقالات من البركة والقبول ، .. لأنها
وجدت في حرمك المطهر ، وولدت في حجر بيتك المستر .

ومقامات « أطواق الذهب » التي سماها الزمخشري « مقالات »
وجعلها مائة مقالة تمتاز بتصرها ، وبأن موضوعها هو الوعظ والنصح
والارشاد ، وليس لها بطل ولا راوية ، وليست كذلك من اللون القصصي
وكانها نقل لن المقامات وتطوير أساسى لها ، ولا نظن ان احداً سبق
الزمخشري إلى مثل أسلوبها في الوعظ . ومن مثلها ما جاء في المقالة الرابعة
والثمانين حيث يقول : « يا مغرور لا عمل مبرور ، يا شقى لا صدر نقى ،
ويا غدير غدبك كله كدر مثلك لا يرضى به أحد - فهل يرضى به الأحد
الصمد ؟ وتمتاز كالمقامات بالسجع وقصر الفقرات وكثيراً ما يلتزم فيها
ما لا يلزم من الحرف الذى قبل حرف السجع ، وتكثر فيها الصدمة البديعية
من الطباق والمقابلة ، والجناس وما إليها ، وتبلغ فيها الصنعة الفنية غايتها ،
اقرأ مثلاً مقامه القاسمة والثمانين : « إلا أن حق الثناء لمن له حق الثناء ،
ولا أعلى من رب العرش وأسى ولا أحسن من أسمائه الحسنى ، فاستفرغ
في تمجيده طوقك واجتهد أن لا يكون بمجد فوقك » حيث تجد اجتماعاً
في الجناس ، ومراعاة النظير والسجع ، وغيرها من ألوان البديع .

— ٤ —

ويبدو من الاتجاه اللغوى عند الزمخشري فى مقاماته هذه وتلك عدة
خصائص ، أهمها :

أولاً — اجتماعه فى البعد بأسلوبه عن التعقيد ، والغموض والغرابية ،
والوحشية ، وإيثاره الألفاظ السهلة ، السكرية المتميزة التى لا تضيق صدوراً

بتغافر الحروف ، والخروج عن التأليف اللغوى ، أو النحوى ، ويبدو من هنا أن مذهب الزمخشري كان ينشأ عن الغموض فى مفردات اللغة ، وحشرها فى أسلوبه ، لأنه كان يريد الافهام ، والابانة ، وهو فى ذلك يخالف الحريرى كثيرا وقد يكون لاختلاف بيئة الرجلين أثر فى ذلك ، فالزمخشري عاش فى بيئة خوارزم وما حواليتها ، وأقام حينما بعد اكتماله اللغوى فى مكة والحريرى عاش زمنا بين الأعراب فى البصرة وباديتها - وحول مشارف الصحراء المطلة على العراق وتبدو سماحة ألفاظ الزمخشري فى « أطواق الذهب » أكثر مما تبدو فى المقامات ، حيث نجد فى الكثير الغالب وضوح الأسلوب وعدم غرابة الألفاظ وتميز المفردات ، كما يقول مثلا فى المقالة التى منها « ما أسعدك لو كنت فى سلامة الضمير » ، سلامة الماء الضمير ، (وأيضاً كما يقول فى المقالة السادسة والثمانين « ليقمهم إذ لم يأمرؤا بالمعروف لم ينتكبهوه ، وإذ لم ينهؤا عن المنكر لم يرتكبهوه .

أما فى المقامات فيسير فى هذا المضمار وفى القليل تجبء ألفاظ تشبه ألفاظ الحريرى فى مقاماته وهى وان كانت فصيحة إلا انها تحتاج إلى الكشف عن معناها فى المعاجم وفى مقامة الموت مثلا نجد ألفاظ سهلة حيث يقول « يا أبا القاسم لقد صحبت طويلا رجالا قومك ، وكأنك رأيت فى خيالات نومك تلتقطهم أيدى المنون فرادى ومثنى ، وكأنهم لم يتدبروا دارا ولم يغنوا بمعنى .. الخ » الألفاظ الواضحة ، التى هى مثل لأكثر ألفاظ المقامات وأساليبها ، وفى مقامة الزاد يقول : يا أبا القاسم اترك الدنيا قبل أن تترك واتركها - أى ابفضها - قبل أن تتركك ، طلق القائلة بملء فيها : أنا غدارة ، غرارة ختالة ختارة ... » فنجد ألفاظا تملو عن ألفاظ الأولى ، من حيث البعد عن الألف اللغوى القريب ، وفى مقامة

التوحيد يقول : « سحاب تنشئها القبول ، وتلفحها ، وتمر أخلافها الجنوب وتمسها ، وأرض مذلة لراكبها ، مقتلة للمشي في مناكبها) فنجد الأساليب بمحض البعد عن الفنا اللغوى . وهكذا نجد الزمخشري في أغلب الأمر يحاول أن يقرب في ألفاظه وأسالبيه اللغوية من فهم عصره ، اللغوى ، وأن لا يبتعد كثيرا عنه ، وهو في هذا يطوع اللغة ويسهلها ويقربها ، لاسنة المتحدثين والناشئين ، وعجب هذا الرجل القذ أن تكون غايته في أسلوبه وبيانه وتعبيره ، هي هذه الغاية الكريمة .

ثانيا -- جارى الزمخشري عصره في جعل البديع ، وألوانه أساسا للتعبير اللغوى عن أغراضه من الكلام ، وفي الحق أن أصحاب عصر الزمخشري كانوا ينظرون إلى البديع نظرية لغوية حيوية فهو أساس من أسس التعبير والأسلوب ، ولم يقصر الزمخشري من عصره في هذه السبل ، فقد حرص على أن تكون ألفاظه وأسالبيه مصبوغة بصيغة بدعية ظاهرة ، لأن صنعة البديعية كانت ، ركنا من أركان الحيوية اللغوية ، في عصره وعند الزمخشري كذلك ، ويبدو أن الأدباء والعلماء كانوا يتجهون بأسلوبهم إلى أن يكون مادة تعلق بذعن الأدباء والمقاديين ومنه يستمدون ثقافتهم ، فاتجاههم الأدبى وللغوى كان إلى حلقات الدراسة ومجلس العلم ، وإلى طلابه ، أكثر مما كان يهدف إلى فكرة المدارس الأدبية واللغوية ، وإذا قرأنا للزمخشري من مقامة « الديوان » قوله : يا أبا القاسم أخلع من رقبتي ربة لطامع ، واقتحامك عقبة صعبة المطالع ، إلا أن خلع هذه الربة من الرقة هي العقبة « وجدنا كيف يحرص الزمخشري على الجنس ، والسجع ، والاستعارة حرصا شديدا ، وكيف يجعل من الفن البديعى أساسا لتعبيره اللغوى ، وكذلك عندما تقرأ من المقالة الرابعة

والثلاثين من « أطواق الذهب » قوله : « لا تنفع بالشرف القالد ، وهو الشرف للوالد ، واضمم إلى القالد طريقا ، حتى تكون بهما شريفا ، ولا تدل بشرف أبيك ما لم تدل بشرف فيك ، أن مجد الأب ليس بمجد ، إذا كنت في نفسك غير ذى مجد ، الفرق بين شرفي أبيك ونفسك كالفرق بين رزق يومك وامسك ، ورزق الأمس لا يسد اليوم كبدا » نجد نفس الخصائص اللغوية في أسلوب وتمبير الزمخشري ، ومن حيث سلوك طريق البديع ، وجعله أساسا لمادته اللغوية مع سحب ذلك من بعده عن التكلف البديعي وقربه إلى الطبع واجتهاده في تعبيد التعبير وترويضه ، حتى يحىء سهلا سلسا مقبولا غير ناب على الأذواق .

ثالثا — ولنفاذ الزمخشري في اللغة وعلومها مع تبهره فيها وتقدمه في دراستها اتخذ من الاصطلاحات في علوم العربية مادة لتعبيره اللغوى ، وذلك من حيث وجهة نظره ولاريب ، مما ينمى اللغة ويظهر تفوق الناطق بها ، ففي مقامه « النحو » يعبر بشتى اصطلاحات النحو ، عن أغراضه في الزهد والموعظة ، وفي مقامة « العروض » كذلك يتخذ من اصطلاحات العروض مادة لغوية ثرية ، وكذلك صنع فى مقامة (القوافى) أما فى مقامة الديوان ، فقد ملأها بمصطلحات الدواوين والكتابة فى أعمال الدولة — مما يدل على أنه كان يحسن العمل فى الدواوين كما كان يحسن التأليف وغيره ، وذلك يدلنا دلالة واضحة على جانب من جوانب تجديد آرمخشري اللغوى هذا التجديد الذى يرى أن يساوى بالمفط القوى الأصيل اللفظ العرب الدخيل ، وأن يتخذ منهما معا مادة لغوية يثرى بها الأسلوب والأداء .

رابعا — يتحدث الزمخشري في التقريب اللغوى، والمزج بين لغة الأدب، ولغة الشعب التى هى لغة التخاطب، وأساس ذلك أن يرذ الأديب لغة الأدب إلى قريب من لغة التخاطب، وأن يسمو بلغة التخاطب إلى حيث تقرب من لغة الأدب، ومظهر ذلك تعبيراته فى مقاماته، فى مقامه « الغلف » نجده يقول : يا أبا القاسم ليت شعرى أين يذهب بك عن ثمرة علمك وأدبك، ضلة إن رضى من ثمرة علمه بأن يشاد بذكره وينمو بأسمه إلى أن يقول وأقبل على العلم ييوس الأرض بين يديه وعلى الأدب يعتنقه ويلثم خديه بعدما كان يتطير منهما ويسمى التشاغل بهما حرمانا وحرقة، ويقضى الجهل والنقص ويحسبهما سبى النعيم والترفة يقول بملأ فيه : بارك الله فى العلم والأدب، هما خير من كنوز الفضة والذهب، ثم يستمر فى أسلوبه حتى يقول : وما زالت البركة فى الحركة لقد صبح فولهم الحركة ولود والسكون عاقر، وفى آخرها يقول : والله عبد لم يطرق باب ملك ولم يظأ عتبة، ولم يلح ببصره مرتبته، ولم يعرف حسابه ولا كعبته، ولم يصف قدميه، إلا بين يدي الملك الجبار، جابر ما كسرتة الجبابرة، وكاسر ما جبرته الأكاسرة، فنجد فى هذا النص صدى كبير للغة التخاطب حتى فى عصرنا الراهن، من مثل قوله : « ييوس الأرض » بين يديه وقوله (البركة فى الحركة » ثم نجد كذلك أساليبه الأخرى هنا تقرب من لغة الدراجة ولا تفتلى قمة التقيد والغرابية وفى مقامه (الارعواء) يقول « اكفف قليلا من غرب شطارتك » والشطارة هى هى كانتعملها نحن فى تخاطبنا اليومى، ويقول فى مقامه « الاستقامة » والسعابة الصيفية مطرتها خفيفه — المطرة — هى ما نستعملها كثيرا فى لغتنا الدارجة، إلى غير ذلك مما يدلنا على طريقته ومذهبه فى التقريب اللغوى بين لغة البيان ولغة الحياة.

خامسا — وفي مقامات الزمخشري يكثر من الاقتباس اللغوى من القرآن والأحاديث وأمثال العرب . وذلك على أية حال مما يؤدى إلى غنى لغة الأديب وثرائها فى مقامة (المراقبة) يقول « ويحك أيها الخاسر البائر الذى انقضت ظهره الكبار » وهو هنا يقتبس من الآية الكريمة (ووضعتنا عنك وزرك الذى انقض ظهرك) وفى مقامة (الفرقان) يقول « يا أبا القاسم ، أجعل كتاب الله نبيك : هو حبل الله المتين وصراطه المستبين . . . حبل يعصم من اعتصم بمعاقله ويقصم ظهر العادل عنه يجنأله . . . الخ آخر هذه المقامة التى اقتبس الكثير من الأسلوب فيها من الحديث النبوى الشريف فى وصف بلاغة القرآن ، (وفى مقامة النهى عن الهوى) يقول : « يا أبا القاسم إن الذى خلقك فسواك ركب فيك عقلك وهواك . . . » وهو اقتباس من القرآن الكريم كذالك . . . ومقامته (أيام العرب) تشبه الرسالة الجدية لابن زيدون الأندلسى ، وهى حافلة بالاقتباس من أمثال العرب وأخبارها المشهورة وأيامها المأثورة وذكر العديد من الاعلام .

وفى المقالة السادسة والثلاثون من أطواق الذهب يقول « كب الله على مناصرة من زكى نفسه بمفاخره » والجملة الأولى مقتبسة من الحديث الشريف ، وكذلك يقول فى مقامة (الشكر) « وهذاك النجدين » وهو نص أسلوب القرآن وكأنما يصف الزمخشري أسلوبه اللغوى فى وصفه لبلاغة القرآن وأسلوبه حيث يقول : « ونظرت فى سلامة سبكة المستغرب وسلاسة مائه المستعذب ورصانة نظمة المرصف : ومقانة نسجه المنوف ، وقرابة كفايته ، ومجازاه ، وندرة أشباعه وإيجازه وروعة إظهاره وأضاره وبهجة حذفه وتكراره وإصابة تعريفه وتنكيره ، وأفادة تقديمه

وتأخيره ودلالة إيضاحه وتصريحه ، ودقة تعريفه وتلويحه « وحلاوة مبادئه ومقاطعته وفصوله ، ووصوله الخ^(١) » .

وهذه موازنات بين مقامات الزمخشري ، وبين فصول ومقامات مأثورة لغيره من الأدباء :

بين الزمخشري والحريري والمعري :

١ — للزمخشري مقامة مشهورة عنوانها « مقامة في النحو » كذلك للحريري مقامة معروفة بعنوان « القطيعية » أ كثر فيها من اصطلاحات النحو ، وقد سبقهما أبو العلاء المعري في الفصول والغايات حيث أتى بكثير من اصطلاحات النحو في فصوله التي سوف نذكر بعضها منها :

(أ) يقول المعري^(٢) « أن الشيثين يتشابهان فيقتلها التشابه إلى الاتفاق كان المبكسورة المشددة اشبهت الأفعال فجاء بعدها اسمان ، آخرهما كالفاعل وأوامها كالفعول وكذلك مقاربها من الأدوات ، لاتجعلني رب مبتلا كواو يقوم ولا مبدلا كواو موقن تبدل من الياء ولا أحب أن أكون زائدا مع الاستغناء كواو « جدول » و « عجوز » فاما واو عمرو فأعوذ بك رب الأشياء الخ .

(ب) ويقول الحريري في « القطيعية » ملغزا باصطلاحات النحو « ما كلمة هي أن شتتم حرف محبوب ، أو اسم لما فيه حرف حلوب وأى اسم يتردد بين فرد حازم ، وجمع ملازم ، وأية هاء إذا ألتحقت امامت الثقل ، وأطلقت المعقل ، وأين تدخل السين فعزل العامل ، من غير أن

(١) مقامة الفرقان من مقامات الزمخشري .

(٢) الفصول والغايات صفحة ١٤٢ .

تجامل ، وما منصوب أبدا على الظرف ، لا يخفضه سوى حرف ، وأى مضاف أخل من عرى الاضافة بعروة ، واختلف حكمه بين مساء وغذوة وما العامل يتصل آخره بأوله ، ويعمل معكوسه مثل عمله ، وأى عامل نائبه أرحب منه وكرا ، وأعظم مكرا ، وأكثر لله تعالى ذكرا^(١) .

(ج) ويقول الزمخشري في مقامته النحوية^(٢) : « لا يكون ضميرك عن الهم الديني ساليا ، كما لا يكون أفعل من الضمير خاليا وعوضه من تلك السلوة ذلك إلهم ، كما عوضت الميم من حرف النداء في اللهم ، وقف لربك على العمل الصعب الشديد كما تقف بنو تميم على التشديد ، وأثبت على دين الحق الذي لا يتبدل ولا يحول ثبات الحركة البنائية التي لا تزول ، ولا تكن في الترجيح بين مذهبين ، كالمهزمة الواقعة بين بين ، فانظر إلى السود والبيض كيف تعقب على ماتحت السماء اعتقاب العوامل المختلفة على الأسماء ، فانك لا ترى شيئا إلا مستهدفا للحوادث والنوائب . كما ترى الاسم عرضة للخوافض والروافع والنواصب » .

ومن هذه النصوص الثلاثة نجد اتجاها واحدا يدور حول مصطلحات العلوم والألفاظ بها وقد غالى في هذا الجانب أبو العلاء المعري أثناء صناعته للفصول والغايات غلوا بعيدا إذ نراه يحاول أن يرد كثيرا من أفكاره إلى علل أصحاب النحو والعروض ومصطلحاتهما ، وكأنما اعياه التفكير المستقيم الصحيح فهو يفزع إلى النحو والصرف وما يتصل بهما يحاول أن يفسر آراءه ، ومشاكله^(٣) وقد يكون عذر المعري في

(١) مقامة « القطيعية » من ٢٤٠ من مقامات الحريري ط الحسينية .

(٢) المقامة النحوية . من مقامات الحريري .

(٣) الفن ومذاهبه في النثر العربي - الدكتور شوقي ضيف ص ٢١٠ .

ذلك أنه صاحب تفكير فلسفى وأسلوب منطقى عميق وأنه يحاول بهذا التفكير أن يبعد أفكاره عن الجماهير ممن عاصروه إذ لم يكن فى مأمن ، من عدوان هذه الجماهير وطمعها أنها بحجة اتهامه بالزندقة والاحاد وما إليهما فضلا عن خوفه كذلك من بطش الحاكمين الذين طالما كانوا ينتقمون من أصحاب التفكير الحر عندما يقرن اسمهم باسم الزندقة وما إليهما .

أما الحريرى ، فقد كان مذهب التصنيع^(١) هو غايته ووكده وكان كثيرا ما يعتمد على الوشى الفنى وعلى الألفاظ بالاصطلاحات ، فى أسلوبه ، اظهارا لمقدرة أو اشهارا لموهبة ، أو تفخيما لمكانته بين أدباء عصره ، وكذلك فعل فى النص الذى نقلناه عنه ، فاعتمد على الألفاظ يشهر به قدرته ومنزاقه بين طبقته من أدباء عصره .

أما الزمخشري ، فقد جاء بأسلوب الوعظ الدينى فى مقامته واستعدل لحجج ، هذا الوعظ ومنطقه باصطلاحات النحو وأحكامه وعلاه . ولاشك أن المعرى كان رائدا لهما فى هذا المضمار وأنه كان أعمق فكرة ، وأبعد مذهباً .

٢ — وللمعرى كذلك فى الفصول والغايات ، أساليب عرض فيها لاصطلاحات فن العروض^(٢) واستعدل بها وأخذ منها ، ومن ذلك قوله : « ومن كان فيه خير وشر - والشر عنده أكثر فهو فى الدول كالجزء الأول . أما خيمته فخفى وأما غيره فبين جلى . والله سائر العيوب ، ومن

(١) النثر الفنى ومذاهبه - الدكتور شوقي ضيف ص ٢١٤ إلى ٢٢٠ .

(٢) الفصول والغايات ص ١٤٤ .

اعتدل أمراه من بطاء وأزج، كان كالجزء الثالث من الهزج، يدركه نقصان، وأى الخالق عن ذلك يسان، أحدها خاف والآخر ذو انكشاف، ومن وفقه خالق التوفيق كان كالجزء من الرجز، لا يعلم إذا عجز، أى نقص دخله هان على حس السامع فاحتمله. ووجدت الجزء الاخرم، كسى، فى غير دار، غير أنه اسند إلى جدار، فهو لذلك مبين الخرمات.

وقد شرح الدكتور شوقى ضيف فى كتابه « الفن ومذاهبه فى الشعر » ماحوته الفصول والغايات من تعقيد أبى العلاء وطاياته الجديدة فى الأغراب والتعمق فى تصعيب الأداء وما يذكره من أشياء لاتتصل بدوائر الفن من حيث هو إنما تتصل بعلوم اللغة وهذا هو معنى أن أبى العلاء عقد لفقه فى شعره تعقيدا شديدا^(١).

وكذلك فعل الزمخشري فى مقامته التى سماها « مقامه العروض » ومن فصوله فيها : « وإن وجد فى شعرك كسر أو زحاف ، أو وقع بين مصاريه خلاف وبلك وإن كنت من أهل الفضل والحزم ، فلا تهتم بنقصان الخرم وزيادة الخزم ، ولا تنسكرك فى الاثلم والاثرم والأخرب والأخرم » . ومن هذا نجد أنه يقتبع مذهب أبى العلاء ويسير على نهجه مع كثير من العناية بالتعداد والسرود ، ولا شك أن المعرى كان أسقاده ورائده فى هذا المضمار ، وكذلك يفعل الزمخشري فى مقامته الأخرى التى سماها مقامه القوافى على نحو من التصنيع والتطريز .

(١) الشعر الفنى - الدكتور شوقى ضيف ص ٢١١ وراجع مذهب التعقيد فى الفصول والغايات فى نفس المرجع ص ٢٠٣ إلى ٢١٣ .



الفصل الثاني
أساس البلاغه
والا تجاه اللغوى السائد فيه

هذا المعجم اللغوى الذى ألفه العلامة جابر الله أبو القاسم الزمخشري ينطق بشخصية هذا الامام الجليل العلمية ويكشف عن مواهبه الفذة التى وعت شتى علوم العربية ودراستها ، ولهذا المعجم شهرة فائقة لجدة موضوعه وطرافة أسلوبه ، وحسن عرضه وتبويبه ولجمعه اللغة والبلاغة فى اطار واحد ، فهو إذ يتحدث عن اللغة يضم شتى المعانى الحقيقية والحجازية والاستعمالات الجديدة للمادة نفسها ، ويشرح الزمخشري فى مقدمة « أساس البلاغة » أهمية هذا الكتاب العلمية فيقول — بعد الافتتاح والتقوية بالقرآن الكريم واعجازه : — « كتاب أساس البلاغة كتاب لم تزل عيون الأفاضل نحوه وواقى ، والسنتمهم بتمنيهم نواطق فليتله العربية وما فصيح من لغاتها ، وملح من بلاغاتها ، وما سمع من الاعراب فى بواديها ، ومن خطباء الحل فى نواديها ، ومن قراضبة نجد فى اكلايتها ومراتعها ، ومن سماسرة تهامة فى أسواقها ومجامعها ، وما تراجزت به السقاة على أفواه قلبها ، وتساجعت به الرعاية على شفاه عليها ، ربما تقارضة شعراء قيس وتميم فى ساعات الماتنة ، وما تزاملت به سفراء ثقيف وهذيل فى أيام المفاتنة ، وما طولع فى بطون الكتب ومتمون الدفاتر من روائع ألفاظ مفقنة ، وجوامع كلم فى أحشائها مجقنة ، ومن خصائص هذا الكتاب تخير روائع ما وقع فى عبارات المبدعين ، وانطوى تحت استعمالات المفلقين ، أو ما جاز وقوعه فيها ، وانطواؤه تحته من التراكيب التى تملح وتحسن ، ولا تنقبض عنها الألسن ، ومنها التوقيف على مناهج التركيب والتأليف وتعريف مدارج الترتيب والترصيف ، بسوق الكلمات مقناسة لا مرسله بددا ، ومقناظمة لا طرائق قددا ، مع

الاستكثار من نوابع السكلم الهادية إلى مرأشء حر المنطق الدالة على منطق مفلق ، ومنها تأسيس قوانين فصل الخطاب والسكلام الفصيح بأفراد المجاز هن الحقيقة والسكناية عن القصريح .. الخ » .

والزمنشرى بهذا يبين لنا أهم خصائص السكقاب وميزاته التى كان من أجلها أثرا نفيسا قيما لم يسلك سبيله فيه أحد من السالفين ، وأهم ميزة له هى تفريقه بين الحقيقة والمجاز فى استعمالات السكلمة ومدلولاتها كما صرح بذلك الزمنشرى نفسه ، ويبدأ الزمنشرى فى كتابه ببيان المعانى الحقيقية للسكلمة ثم يردف ذلك ببيان الامعتمالات المجازية لها وكانت الاستعتمالات المجازية مقصودة للزمنشرى فى « الأساس » قصده إلى المعانى الحقيقية ، لأن فهمها سبيل إلى فهم بلاغة القرآن ، لاختلاف الناس فى عصر الزمنشرى ، فى فهم المعانى المجازية للالفاظ والأساليب ، وخاصة فى بيئة بعيدة عن موطن العربية كخوارزم .

وينظر بعض الباحثين إلى الأساس نظرتهم إلى معجم أدبى (١) أكثر منه باعتباره معجما لغويا ، فقد جمع الزمنشرى فيه الكثير من التعابير الحقيقية والمجازية وأكثر التعابير الأدبية ، كانت فى الأقسام المجازية وأقلها كانت فى جانب الحقيقة . ويعنى الزمنشرى بالعبارات البليغة فى كتبه كثيرا ومن بينها السكشاف والفائق والمستقصى والسكلم النوابع . ومع ذلك فإننا ننظر إلى الأساس أولا باعتباره معجما لغويا يتحدث عن معانى المفردات والتراكيب ، والجانب الأدبى منه ليس مقصودا لذاته إنما المقصود الأول هو شرح المعانى اللغوية ، فالجانب اللغوى من الأساس هو الذى يعنى الباحثين والقارئ ، وهو الهدف من تأليف الأساس وإذا كانت

(١) راجع صفحة ٦٦٦ ، ٦٧١ من كتاب المعجم العربى للدكتور نصارى ج ٢ .

المعاجم اللغوية كلها تخدم هذا الهدف فالأساس من بينهما تعظم أهميته وقد يقال أن الأساس معجم بلاغى ^(١) إلا أن الجانب البلاغى كالجانب الأدبى يحىء فى المنزلة التالية من منهج الكتاب اللغوى .

وكثيراً ما يأتى الزمخشري بالمعنى المجازى مسبوقة بكلمة «ومن المجاز» وقد يأتى بها مسبقة بكلمة «ومن المستعار» ^(٢) أو بكلمة «ومن الكناية» ^(٣) والتعابير الثلاثة مترادفة ، والمراد من الأخيرين ما هو بمعنى المجاز : استعارة أو تمثيلاً على سبيل الاستعارة أو مجازاً لغوياً .

والحقيقة بمعنى الكلمة المستعملة فيما وضعت له ، أو استعمالها فى المعنى الموضوع له يقابلها المجاز ، وهو الكلمة المستعملة فى غير ما وضعت له أو استعمالها فى غير المعنى الموضوع له ، والزمخشري لا يريد المجاز خاصة بذلك ، إنما يريد به ما يشمل الكناية كما فى مادة « ا ، ب ، ن » حين عد من المجاز مثل قولهم « أبو العمامة للكبير العمامة » ومثل كلمة « أوابد الشعر » وهى كناية عن الأبيات الرائعة منه وكثير من المجازات التى يذكر الزمخشري نعتها حقيقة لغوية لشهرتها فى المعنى المستعملة فيه مثل قولهم « أبنت فلانا » ففى الأساس ما فى مادة « ا ، ب ، ن » ومن المجاز أبنته إذا مدحه وعد محاسنه وقد غلب فى مدح النادب تقول « لم يزل يقرظ أحياناً ويؤبن موتاً كم » .

وقد يأتى الزمخشري بالاستعمالات المجازية مسبقة بلفظة « ومن المجاز والكناية » ^(٤) والعطف هنا حرف عطف مرادف .

(١) راجع صفحة ٦٥٤ ، ٦٥٦ من المصدر السابق ٠٠٠ - ح ٢ .

(٢) أنظر مواد : عجز ، وعد ، عزم ، عرف ٠٠٠ الخ .

(٣) أنظر مواد : آخر ، جمع ، سوا ، صدف ٠٠٠ الخ .

(٤) راجع مادة : « ن ، ج ، و » حيث يقول الزمخشري فيها : ومن المجاز والكناية :

انك من حيث ذلك الأمر بنجوة إذا كان بعيداً منه بريئاً سالماً ٠٠٠ الخ .

ومن مثل المواد التي ذكر الزمخشري معانيها الحقيقية ، ثم المجازية كلمة (أ ب د) حيث يقول : لأفعله أ ب د الآباد ، وأ ب د الأبيد وأ ب د الآبدن ، وتقول : رزقك الله عمرا طويلا الآباد ، وكذلك بعيد الآباد ، وأ ب د الدواب ... ، وتأب دت ، توحشت وهي أوابد ومتأب دات قيد الأوابد وهي نفر الوحوش وقد تأب د المنزل ، : سكنته الأوابد ، وتأب د فلان / توحش وطيور أوابد خلاف للقواطع ، ومن المجاز : فلان مولم بأوابد الكلام وهي غرائب ، وبأوابد الشعر وهي التي لا تشكل جودة ، قال الفرزدق :

لن تدركوا كرمي بلوم أبيكم
وأوابدي بقمحل الأشعار
وقال النابغة :

نبثت زرعة والسفاهة كاسمها
يهدى إلى أوابد الأشعار

ويذكر الزمخشري كذلك في مادة « أ ب » الاستعمالات الحقيقية ثم المجازية لها ويقول : أ ب الله إلا أن يكون كذا . وبأ ب على وتأ ب : امتنع ، وهو أ ب الضيم وأ ب الضيم : له نفس أ بية وفيه عيبة . ونوق أواب : يأبين الفحل ، وأصابه إباء بالضم إذا كان يأبى الطعام . تقول : فلان أن شهد الطعام فالحمية والأباء ، وأن حضر الطعام فالحمية والأباء ومن المجاز : لا أباك ولا أبالغيرك ، ولا أبالشائك يقولونه في الحث ، حتى أمر بعضهم لحفائه بقوله : أمطر علينا الغيث لأبأبا لسا . ويقال لعمر أبيك ولعمر أ ب سواك . قال السكيت :

أنى لعمر أبى سوا

ك من الصنائع والذخائر

وهو أبو الأضياف ، ومن أبو مثنوك وهو أبو الرؤيس وأبو العمامة
لكبير الرأس والعمامة .

وقد عرض بعض الباحثين للأساس ورأى أن تحديده للمجاز لم يكن
واضحا كل الوضوح . إذ أن الاصطلاح على معنى المجاز لم يكن فى عهد
جار الله مستقرا تمام الاستقرار^(١) . وفى رأى أن هذا رأى خطأ واضح
لا يهتمل الصواب فإن عبد القاهر الجرجاني الذى كان يعيش فى القرن الخامس
الهجرى والذى توفى سنة ٤٧١ هجرية أى قبل وفاة الزمخشري بنحو ٦٧
عاما كان قد فرغ من تحديد اصطلاحات البلاغة ومعنى المجاز العقلى
والمغوى ومعنى الاستعارة والكتابة فى كتابيه المشهورين الأسرار والدلائل ،
وقد أوضحنا عندما تسكنا عن الكشف أن الزمخشري اتبع آراءه البلاغية
واحتمل حذوه ومنهجيه فى الفصاحة والبيان والبلاغة ، التى كانت اصطلاحاتها
قد حددت تحديدا واضحا . وإذا كان الزمخشري يجعل المجاز والمستعار
والكناية مصطلحات مترادفة مع ما بينها عند عبد القاهر من فروق فإن
ذلك لا يحمل معنى عدم استقرار هذه المصطلحات على شىء واحد لعدة
أمور :

- ١ — لأن الزمخشري عبر بها فى أساسه مریدا منها معانيها اللغوية ،
لامصطلحاتها البلاغية . ولا خلاف بينها من جانب اللغة على وجه التقريب .
- ٢ — ولأن من غير المعقول أن يتحدث الزمخشري عن المجاز فى
الكلمة دون أن يحدد فى نفسه معنى المجاز وإن أراد منه المعنى اللغوى .

٣ — ولأن الزمخشري قد حدد معنى هذا المصطلحات تحديدا واضحا في الكشف، وقد ألف الكشف قبل أساس البلاغة^(١).

٤ — ولأن الزمخشري قد أتى بعد عبد القاهر واشتغل في البلاغة وفي الميدان العلمى ولا يمكن أن يكون لم يطلع على آراء عبد القاهر في البلاغة التى حدد فيها معنى المجاز تحديدا كاملا.

أننا هنا لانعتذر عن الزمخشري بهذه الدعوى^(٢) التى يعوزها القوة والصدق والمنطق. ولكن نقول أنه إذا كان قد استعمل المجاز فى «أساسه» بمعنى أوسع نطاقا فان ذلك لأنه لم يكن يعكف على تأليف بلاغى، بل على معجم لغوى، وفرق كبير بين الأمرين، على أن الأساس مع ذلك يعد معجما بلاغيا يتحدث عن إستعمالات الكلمة فى حقيقةها ومجازها. وعن أسنادها الحقيقى والعقلى وعن دلالات الأسلوب الحقيقية وغيرها، وهذه ميزة أخرى رائعة من مميزات الأساس التى أسلفنا الحديث عنها إذ لم يسبقه إلى ذلك معجم بلاغى. بالمعنى الذى أشرنا إليه، وإن سبقه محاولات بدائية كانت هى الأساس فى نشأة البلاغة العربية. كما سبقه كذلك جهود ترمى إلى تذليل الوضع اللغوى لمطالب البلاغة فما نجده متمثلا فى «أدب الكتاب» لابن قتيبة وفى مثل تأليف الثعالبي فى «الكنايات» وفى اختيارات كثيرة من ترا كيب البلاغات.

* * *

(١) انظر مادة: «حرف ر» فى الأساس حيث يقول وقد ذكرت حقيقة الكلمة فى

الكشف عن حقائق التزيل.

(٢) وهى ادعاء عدم وضوح تحديد المجاز.

ويجمل الخولى فى مقدمته الاساس من مميزات الاساس الى ما يذ كر
فى صدر ميزانه من التمييز بين المعانى الحقيقية والمجازية للكلمة — ما يرشد
إليه من أثر الاستعمال فى حياة الكلمة وتعيين معناها وتحديد دلالتها
وما يشير إليه من إحياء الكلمة ووقعها على نفس سامعها وهاتان الميزتان
راجعتان إلى ماتخير الزمخشري فى أساسه من إستعمالات البلغاء والمبدعين
المفلقين ومن الترا كيب التى تملح وتحسن كما يقول هو .

والذى يهمنى هو أن أشير إلى أن كتاب الأساس يعد أول معجم
تاريخى للألفاظ العربية فى الغالب يختار مؤلفه من الاستعمالات المجازية
للكلمة ، مما يقع فى كلام المحدثين وشعرهم ، وقد رأينا أنه فى الشعر
استشهد بشعر المتنبي وقد يكون فى الشواهد الشعرية التى ذكرنا دون أن
ينسبها إلى قائلها ما ينسب إلى شعراء يحنى عصرهم بعد المتنبي .

وفى الفثر يستشهد بكلام المولدين وإستعمالاتهم كثيرا وقد يأتى
هو بأمثلة نظرية للمعانى المجازية من كلامه وأدبه كما لاحظنا فيما سبق ،
ولانجد فى معاجم اللغة المؤلفة قبل الزمخشري وبعده استعمالات أو شواهد
للمحدثين ولالمولدين وإنما يستشهد أصحابها بشعر الجاهليين والإسلاميين
والخضرمين وآخر من يستشهد به هو ابن هرمة الشاعر المشهور .

فاذا كان الزمخشري يعد كلام المحدثين والمولدين البلغاء حجة فى
الشاهد اللغوى ويذكر كثيرا من كلامهم إلى عصره فذلك لاشك وثيقة
لغوية فريده تعطينا كثيرا من الدلالات على التطور التاريخى للألفاظ
العربية هذا هو الاساس لبعض المعاجم الحديثة التى ألفها المستشرقون

ومنها معجم « فيشر » الألماني الذي يقعده بالنشر المجمع اللغوى بالقاهرة ،
ويبدو أن منهج الزمخشري كان هو اللبنة الأولى لهذا المعجم التاريخي ، مما
يجعل للأساس ميزة سبق والابتكار والتجديد اللغوى ، وقد رأينا أن
الزمخشري صدره رحب في الاعتداد برأى البلغاء ، ورواة اللغة ، فقد جعل
كما سبق أن ذكرنا كلامهم وقولهم بمنزلة روايتهم عن الشعراء الجاهليين
والإسلاميين ونجد هنا يجعل كلام المحدثين والمولدين البلغاء — طبعاً —
ممن ليسوا من رواة اللغة والأدب حجة في الاستشهاد على التجوز في
الألفاظ العربية ولهذا كله أهمية كبرى في تاريخ البحث اللغوى ، ولا بد
أن لنشأة الزمخشري ولبعده عن مواطن اللغة العربية الأولى ولرحابة
صدره وسعة أفقه أثراً كبيراً فيما وصل إليه الزمخشري من هذا التجديد
اللغوى ولا ندري كيف قوبل ذلك من معاصريه من علماء اللغة والأدب
ولعله أثار ضده النقاد والعلماء المحافظين في اللغة فذلك مما لم يسجله لنا
تاريخ البحث اللغوى في عصر الزمخشري ولا بعد عصره .

ويذكر الزمخشري في مادة « أب ن » واستعمالاتها على ما سلف
أن أشرنا إليه ، ثم يقول : « من المجاز » : أبنه إذا مدحه وعد محاسنه ،
وقد غلب في المدح للنادب ، تقول : لم يزل يقرظ أحياءكم ويؤبن موتاكم .
« وهذه الجملة التى جعلها الزمخشري مثلاً يظهر به الاستعمال المجازى
المادة يبدو عليها أنها من كلام الزمخشري نفسه أو من كلام غيره ممن
كان يعاصره فقيمها حرص على السجع مع التكلف الفنى فيه وفيها تغليب
للضرورة حيث قال « أحياءكم » دون « أحياءكم » ، ويبدو أن الكثير
من الأمثلة التى استشهد بها الزمخشري مصنوعة أى ليست من إستعمالات
القدماء ، ولما أثر عنهم وروى لهم بل من إستعمالات المتأخرين ممن

عاشوا قريبا من عصر الزمخشري ، أوفى عصره ، أو من استعمالات الزمخشري نفسه . ولعله يشير إلى ذلك من طرف خفي بقوله في مقدمة الأساس « ومن خصائص هذا الكتاب تأخير ما وقع في عبارات المبدعين وانطوى تحت إستعمالات الملفقين ، أو ما جاز وقوعه فيها ، وانطواؤه تحتها من التراكيب التي تملح وتحسن . والذي يجوز وقوعه في عبارات المبدعين هو ما كان من كلام الزمخشري نفسه غالباً ما يقتضي فيه سنفن التركيب العربي وطريقة فصاحته^(١) ، ويشير إلى ذلك أمين الخولي في مقدمته للأساس فيقول : « يعطينا الزمخشري مواد لمعرفة إستعمال الكلمات حتى القرن السادس الهجري وينير الطريق لمن يحاول تأريخ تلك الدلالات تأريخاً يعرف أهميته من يتصدى للدرس الأدبي ، ويرى ضرورة تحديد الدلالات للألفاظ في النصوص الأدبية في عصورها المختلفة حتى يمكن فهم تلك النصوص ، فهما نفسياً دقيقاً جديداً جديراً بمسئولية الدرس الأدبي الذي يلائم المستوى الثقافي اليوم ، وأثر الاستعمال في حياة الكلمات ، وتاريخ تدرج الدلالات مما لا نكتفي فيه تلك الإشارة العابرة » .

وللمعاجم اللغوية تاريخ طويل كله جهاد مشرف لعلمائنا الأوائل ، ويجب أن نعد الجهود البدائية الأولى لرواة اللغة الأساس الأول لنشأة المعاجم اللغوية التي مرت بمراحل كثيرة لاغنى لنا عن أن نلم بها إلاما موجزا :

(١) انظر مادة : ت ر ب في أساس البلاغة حيث يقول : ووطئت كل تربه في أرض العرب فوجدت تربة أطيب الترب وهي واد على مسيرة أربع ليال من الطائف ورأيت ناسا من أهلها ، وكان عندنا بمكة التربي المؤتى بعض مزامير آل داود ، وانظر أيضا مادة : ب و ب .

١ — في العصر الأموي بدأ رواة اللغة يطوفون بالعرب في صميم الجزيرة العربية يستمعون إلى بلاغاتهم ولهجاتهم ولغاتهم وأسماهم ، ويتخذون من كل ذلك مادة الرواية والتمثيف والسمر وكان ذلك من أوائل الجمع لمواد اللغة وطرائفها وقد ضاعف من هذه الحركة كثرة المولدين واختلاط الدماء واللكنة التي أصابت الألسنة .

٢ — وفي أوائل العصر العباسي زاد اختلاط العرب بالموالي وأصبح العربي فضلا عن المولدين والموالي يجهلون معاني كثيرة من الألفاظ ويجهلون كذلك كثيرا من مفردات اللغة ومن ثم بدأ بعض علماء اللغة يكتبون رسائل قصارا في موضوعات لغوية مختلفة ومن بينها رسالة للكسائي (م ١٩٢ هجرية) عنوانها : « ماتلحن فيه العامة » وتبعه في التأليف في هذا ، الجانب من اللحن السجستاني (م ٢٥٥ هجرية) والدينوري (م ٢٩٠ هجرية) وسواهم وامل الكتاب المسمى « غريب القرآن » المنسوب لابن عباس هو أقدم كتاب يتحدث عن مفردات اللغة ويبدو أنه ليس من تأليف ابن عباس بل روايات عنه . وقد ألف بعده في غريب القرآن : أبان الجريري (م ١٤١ هجرية)^(١) كما ألف آخرون في غريب الحديث ومن بينهم السكندی (م ٢١٤ هجرية) وبهذا يتبين لنا أن الحفاظ على القرآن الكريم والحديث الشريف كان من أهم أسباب التدوين اللغوي فضلا عن أسباب أخرى كثيرة مثل الحفاظ على اللغة وتيسير فهمها .

ومن هاتين المرحلتين : مرحلة الجمع والرواية وهي المرحلة الأولى ،

(١) وألف أبو عمرو بن العلاء (م ١٥٧ هـ) والحيثاني والاصمعي (م ٢١٦ هـ) وابن الاعرابي (م ٢٣١ هـ) رسائل لغوية قصيرة في موضوعات مختلفة ومن بينها رسائل عن الحيوان والخيال وخلق الانسان وأخرى عن البلدان والمواضع .

ومرحلة التأليف للرسائل اللغوية القصيرة وهى المرحلة الثانية نشأت فكرة كتابة المعجم لغوى^(١).

٣ — وأول معجم لغوى هو معجم الخليل بن أحمد (م ١٠٠ — ١٧٥ هجرية) وقد سماه كتاب العين إذ أن مخرجها من أقصى الحلق وقد رتب الكلمات اللغوية بحسب مخرجها ، فبدأ بالعين فالحاء فالهاء وبمدها : خ . غ . ق . ك . ج . ش . ص . ض . س . ط . ت . د . ذ . ر . ث . ز . ل . ن . ف . ب . م . و . ي . أ . وقد سمي الخليل ما كتبه عن كل حرف من هذه الحروف كتابا ، فالكتاب الأول من العين هو كتاب العين والثانى هو كتاب « الحاء » وهكذا ...

ولاشك أن هذا التأليف المعجمى أمر جديد على اللغة العربية سبق إليه هذا العالم الجليل ، الخليل بن أحمد ، وعد من ابتكاره ، وإن كان يذهب بعض الكتاب إلى أنه تأثر فيه بالمعاجم المنسوبة إلى العراق كالمعاجم المنسوبة إلى البابليين والآشوريين . ولا يوجد دليل على معرفة الخليل بأمر هذه المعاجم القديمة ، وترتيب الحروف على الخارج ليس فى اللغات القديمة التى عرفها الشرق الأدنى قبل الاسلام ، وتذكر دائرة المعارف الاسلامية فى مادة « خليل » أن اللغة السنسكريتية كانت ترتب حروفها على نظام مخرجها وفى عصر الخليل كان المسلمون يحكمون أجزاء

(١) نجد كلمة « المعجم » فى البخارى فى باب عنوانه : « باب تسمية من سمي من اهل بدر فى الجامع الذى وضعه أبو عبد الله على حروف المعجم » . والجامع أحد كتب البخارى وأبو عبد الله هو البخارى . وأول كتاب أطلق عليه اسم المعجم هو معجم الصحابة لآحد بن على التميمي الموصلى (م ٣٠٧ هـ) وتأليف المعاجم كان معروفا عند الامم القديمة مثل الآشوريين والصينيين واليونان . قد سبق العرب إلى وضع المعاجم الكاملة ، راجع صفحة ٤٠، ٣٩، ٣٨ مقدمة الصحاح تأليف الطاهر .

من الهند ، وكان الهنود يتصلون بالمسلمين في أنحاء العالم الاسلامى ومن ثم قيل ان الخليل أخذ عنهم هذا الترتيب وأن كان هذا فرضا ظنيا لم يقيم عليه داليل^(١) .

وقد احتذى علماء اللغة معجم الخليل فألفوا معاجم لغوية مختلفة المناهج والترتيب فطائفة من المعاجم رتبت بحسب الحرف الأخير للكلمات وطائفة أخرى رتبت بحسب الأحرف الأولى وبذلك أصبح لدينا عدة مناهج في ترتيب المعجم اللغوى، الترتيب بحسب مخارج الحروف — الترتيب بحسب الحرف الأخير ٠٠٠ — الترتيب بحسب الحرف الأول للكلمات وهناك ترتيب آخر هو ترتيب الكلمات بحسب عدد حروفها ، كما فعل ابن دريد في الجهرة فمع سلوكه طريقة الخليل بدأ بالثنائى ثم الثلاثى ثم الرباعى ثم ملحق الرباعى ثم الخماسى والسادسى وما يلحق بهما ويتخذ ابن سيده فى المخصص وأبو عبيد فى الغريب المصنف طريقة أخرى ترتيب الكلمات حسب المعانى والموضوعات .

ومن المعاجم كتاب « الجيم » لأبى عمر الشيبانى وكتاب الجهرة لابن دريد (م ٣٢١ هـ) وكتاب البارع لأبى على القالى (م ٣٥٦ هـ) وكتاب التهذيب للأزهري (م ٣٧٠ هـ) والصحيح للجوهري (م فى حدود ٤٠٠ هـ) وطريقة الترتيب بحسب المخارج نجدها عند الخليل فى « العين » وعند الأزهري فى « التهذيب » وعند ابن عباد فى « المحيط » وعند القالى فى « البارع » وطريقة الترتيب اللغوى بحسب المعانى والموضوعات نجدها

(١) راجع الكلام على معجم الخليل فى كتاب المعجم العربى للدكتور حسين نصار ط دار الكتاب العربى سنة ١٩٥٦ ، ومقدمة الصحاح تأليف أحمد عبد الغفور عطار ط دار الكتاب العربى بمصر .

عند القاسم بن سلام (م ٢٢٣ هـ) في كتابه « الغريب المصنف » وكذلك كما ذكر من قبل عند ابن سيده في « الخفص » وعند الفتاح الصميدى وحسين يوسف موسى ، من المعاصرين في كتابهما « الافصاح » . وطريقة الترتيب بحسب الحرف الأخير نجدها عند الجوهري في « الصحاح » والفيروزبادى في « القاموس » وابن منظور في « اللسان » وغيرها .

وقد سبق إلى هذه الطريقة بشكل بدائى اسحق الفارابى (م ٣٥٠ هـ) في كتابه « ديوان الأدب » وطريقة الترتيب بحسب الحرف الأول نجدها عند البرمكى والزمخشري ومختار الصحاح وأكثر المعاجم الحديثة وبذلك تقبين لنا منزلة « أساس البلاغة » بين معاجم اللغة العربية وأهميته في الوقت نفسه ، إلى ما ذكرنا من ميزاته الأخرى العديدة التي فصلنا الكلام فيها ^(١) .

— ٤ —

والنظر دائماً عند أصحاب المعاجم إلى الحروف الأصول للكلمة ودائماً يردون الكلمة إلى أصولها الثلاثية وهذا ما يفعله الزمخشري فأغلب ما ذكره هو من الكلمات الثلاثية وقد يعود إلى الأصل الرباعى مثل كلمة « بأ بأ » و « ظ ب ظ ب » . وكلمة « سف سق » ويقول الدكتور حسين نصار عن الأساس وترتيبه أنه قسم الكتاب إلى أبواب بحسب الحرف الأول وقسم الأبواب إلى فصول بحسب الحرف الثانى من حروف اللفظ الأصلية :

« والأبواب تنقسم إلى فصول بحسب الحرف الثانى من حروف اللفظ الأصلية ، فيشمل باب الهمزة مثلاً على الفصول التالية بترتيبها في المعجم :

(١) راجع المعجم العربى للدكتور حسين نصار .

« الهمزة مع الباء فالهمزة مع التاء فالهمزة مع الجيم إلى آخر الحروف ، مع تقديم الواو أيضا على الهاء . ولم يسم المؤلف هذه الفصول « فصولا » وإنما اكتفى بذكر العنوان وحده ، مثل الهمزة مع الباء ، أو الهمزة مع التاء ، أو ما شا كل ذلك وأعطيتها عنوان الفصول ليقسر تصورها ، ولئلا تختلط الأقسام ، وينقسم كل فصل إلى مواد مرتبة بحسب الحرف الثالث منها ان كانت ثلاثية ، أو الثالث فالرابع ان كانت رباعية ، أو الثالث فالرابع فالخامس ان كانت خماسية ، وهو لا يفرق بين الأبنية المختلفة فيجعل لكل منها بابا خاصا ، ولكنه يوردها مجتمعة ، كل منها في الموضع الذي تؤهله له حروفه ، فترى في فصل « الهمزة مع الباء » مثلا المواد التالية : ا ب ب ، ا ب د ، ا ب ر ، ا ب س ، ا ب ش ، ا ب ض ، ا ب ط ، ا ب ق ، ا ب هـ ، ا ب و ، ا ب ي . فيقدم الهاء على الواو في ترتيب المواد ، بخلاف عادته في ترتيب الفصول ، والأبواب . وسبب ذلك إرادته التمييز بين الواوى واليائى واحترازه من اختلاطهما إذا تجاوزا ، فلما زال ذلك الالتباس في ترتيب المواد عدل عن عادته إلى الترتيب المؤلف وكانت هذه خطة المدرسة السابقة في معاجمها . ويرى الناظر إلى المواد المذكورة نقصا في الحروف ، فأب يليها مباشرة أ ب د وهذه بعدها أ ب ر ، وهكذا ، فالمواد الساقطة بين هذه المواد أغفلها المؤلف عمدا لأنها لا تدخل في موادها . ولا تنسجم مع الفكرة العامة التي بنى عليها معجمه ، أو لأن بعضها مهمل لم يرد في العربية .

على هذه الصورة تطرد جميع الأبواب ، والفصول والمواد ^(١) .

(١) راجع المعجم العربى وثباته وتطوره — للدكتور حسين نصار . ج / ٢ ص :

ويجب أن نعد من مميزات الأساس أنه من أوائل المعجمات اللغوية التي ترتب الكلمات العربية بحسب الحرف الأول فيها لا بحسب الحرف الأخير لها ، وأغلب أصحاب المعاجم الذين سبقوه كانوا يحرصون على ترتيب الكلمات بحسب الحروف الأخيرة وقد تجلت في هذه الناحية شخصية الزمخشري في معجمه إذ كان من السباقين في هذه الناحية اللهم إلا ما سبقه من محاولات بدائية كذلك لأصحاب الرسائل اللغوية القصيرة وإلا ما سبقه من جهود الراغب الأصفهاني في « غريب القرآن » الذي جمعه ورتبه ترتيباً ، كذلك بحسب الحرف الأول للالفاظ ، وسوف نوازن بين « الأساس وكتاب الراغب » « المفردات في غريب القرآن » .

على أنه من الانصاف أن نقول أن رائد هذا المنهج اللغوي في ترتيبه الكلمات اللغوية بحسب أوائلها هو أبو عمرو الشيباني (م ٢٠٦ هـ) اللغوي المشهور ولكنه لم يراع في الترتيب إلا الحرف الأول فقط أما الحرف الثاني فلم ينظر إليه وذلك في رسائله اللغوية مثل « الابل وخلق الانسان » و « كتاب الجيم » . ثم جاء بعده محمد بن تميم البرمكي اللغوي (م بعد ٣٩٧ هـ) وقد رتب معجم « الصحاح » — للجوهري بعد ذلك بحسب الحرف الأول ، ويعد بهض الباحثين البرمكي أول من ابتدع هذا النظام ، وإن الزمخشري في « أساس البلاغة » قد اتبعه فيه واشتهر بترتيب الزمخشري حتى ظننه الباحثون مبتكر هذه الطريقة ، ومن قبله كان الشيباني يرتب الكلمات بحسب الحرف الأول الهجائي ، أما البرمكي فكان يلتزم الحرف الأول والثاني والثالث والرابع (١) .

وهنا لا نفسى فى مجال الترتيب بحسب الحرف الأول أصحاب الرسائل اللغوية القصيرة التى كانت تكتب فى موضوع معين . ومن ثم وجدنا الزمخشري يرتب « الأساس » أبوابا بحسب حروف المعجم من الهمزة إلى الياء مع تقديم باب الواو على باب الهمزة ويجعل الباب الواحد مرتبا ترتيبا خاصا بملاحظة ترتيب الحرف الثانى ، فالكلمات المبدوءة بحرف الياء مثلا يبدأ فيها بالكلمات التى يكون الحرف الثانى فيها همزة ثم الكلمات التى يكون الحرف الثانى باء . فقاء ، فناء ، فجيا ، ... الخ .

— ٦ —

وقد وجه إلى الأساس بعض المآخذ القليلة التى لا بأس من الإشارة إليها ، ومن بينها :

١ — أتى بأقوال كثيرة وعبارات عدة ولم يشر إلى قائلها حتى يعرف أهميتها فى البحث اللغوى والبلاغى وفى التطور التاريخى للالفاظ وهذا لا يعد مأخذاً على وجه الحقيقة لأن قصد الزمخشري كان منصبا على الناحية البلاغية من الجمل وليس على قائلها .

٢ — اضطراب الترتيب واستشهد لهذا بأنه وضع المضاعف الثنائى من الهمزة مع الياء « أى » فى مقدمة الفصل وحقه أن يؤخره بحسب منهجه الذى سار عليه .

٣ — ومن مثل الاضطراب فى الأساس ادخال المواد الرباعية فى الثلاثية كما أدخل حدير فى « حذب » و « حدرج » فى « حدر » و « حشرج » فى « حشر » و « سمحق » فى « سمح » و « سموع » فى « سمد » و « عجرف » فى « عجر » و « كرفس » فى « كرف » وغيرها وهذا ليس عيبا اطلاقا إذ أن الزمخشري اجتهد فى الرجوع بالكلمة إلى

أصلها الثلاثى بقدر الامكان ، ورجوعه بالرباعى إلى أصل ثلاثى مما يمدح ولا يذم .

٤ — الاضطراب فى تحديد المجاز ^(١) يقول الدكتور نصار فى ذلك وقد شيع ذلك الاضطراب فى تقسيم الحقيقة والمجاز ، الاضطراب فى وضع كثير من العبارات إذ وضع العبارات الحقيقية فى الأقسام المجازية والأمثال بعضها بوضع فى الحقيقى وبعضها الآخر فى المجازى دون فرق جوهرى فى النوعين ، وهذا أمر أهم ما نأخذه على الأساس لأنه الدعامة التى أقام عليها المؤلف كتابه ^(٢) وقد ذكر أمثلة هذا فى كلامه فى موضع آخر ^(٣) . أما وضع العبارات الحقيقية فى الأقسام المجازية فلم يحدد الدكتور لها مثالا حتى نناقشه فيه بعينه كما سبق أن ناقشنا الأستاذ الخولى فيما ذهب إليه ، من أن الزمخشري يضع المجاز فى مواضع الحقيقة .

وأما الأمثال التى ذكرها — وذكر أن بعضها قد ذكر فى الحقيقة وبعضها ذكر فى المجاز ^(٤) ، فقد مثل لها بأن الزمخشري قال فى القسم المجازى من « بيض » : وفى مثل كانت بيضة العقر المرة الأخيرة . وفى مثل : سدّ ابن بيض الطريق وهذا الصنيع من الزمخشري لا نقد فيه لأن الأمثال أو الاستعارة التمثيلية إنما توضع فى باب المجاز ولم يذكر الدكتور نصار الأمثال التى وضعت فى موضع الحقيقة حتى نناقشه فيها وقد لاحظ الدكتور نصار أن الزمخشري ذكر المعانى المجازية وقسمها أقساما ثلاثة : « مجاز وكناية واستعارة » دون أن يفصل بين المجاز والكناية ولا بينهما وبين الاستعارة ، بل كانت العناوين الثلاثة مترادفة لمعنى المجاز ^(٥) ، وهذا

(١) راجع المعجم العربى ج / ٢ ص ٦٦١ .

(٢) و (٣) و (٤) و (٥) المعجم العربى ج / ٢ ص ٦٦٦ ، ٥٦٥ وما بعدها .

ليس بعيب وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك وقررناه ثم ينساقض الدكتور نفسه بعد قليل فيقول أن الزمخشري قسم المادة الواحدة إلى ثلاثة أقسام حقيقية ومجازى وكنائى^(١)، ومعنى ذلك أنها ليست كلها بمعنى واحد كما قرره آنفا .

ثم يقول الدكتور نصار نقلا عن غيره وهو الدكتور ناصف : « يبدو الزمخشري غير آخذ بتقسيمات كثيرة فالتشبيه مجاز ، والمجاز اللغوى تمثيل ، والاستعارة التمثيلية تمثيل ، والكنايات تختلط بالمجاز الحكى ، وكان الدكتور يفهم بأن الاستعارة التمثيلية لا يسمى تمثيلا وهو هنا يناقض نفسه بما قرر من أن الزمخشري يريد بهذه الاصطلاحات مدلولها الأعم وهو التجوز أو الخروج عن الحقيقة - ويقول أنه نشر الكنايات بين المواد المختلفة^(٢) .

وكان يريد الدكتور أن يجعل الزمخشري للكناية قسما خاصا فيقول : ومن المجاز كذا ... ثم يقول ومن الكناية كذا ... وهذا سهو واضح فى فهم الزمخشري وقبل قليل قرر الدكتور نصار أن الاصطلاحات الثلاثة مترادفة بمعنى المجاز^(٣) ، وكذلك يذكر الدكتور ناصف أن الاستعارة يسميها الزمخشري مثلا . : وفى موضع آخر ، تمثلا ... وفى موضع ثالث : تخميلا ... وفى موضع رابع مجازا ، أما أنها تسمى مثلا ، فأى خطأ فى ذلك ونحن نعرف أن التمثيل (أى الاستعارة التمثيلية) قسم من أقسام الاستعارة ، وأما أنه يسميها (تمثلا) فالمراد به على وجه الصحة التمثيل ، وهو اصطلاح

(١) المعجم العربى ج / ٢ ص ٦٦٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٦٣ .

(٣) المصدر السابق ج / ٢ ص ٦٦١ .

جديد يدل على دقة فهم الزمخشري البلاغى وأما أنها تسمى مجازا فان ذلك رجوع بها إلى أصلها الأعم وهو المجاز وذلك كله لا وجه لمؤاخذه الزمخشري فيه وقد ذكرنا أنه على أى حال لا يريد فى الأساس بهذه الاصطلاحات معانيها البلاغية انما يريد المعنى الأعم للمجاز فهذه كلها تحمل على القراءف .

وقد نقد الأستاذ أمين الخولى كتاب « الأساس » معتمدا المتوازنة بينه وبين ما فهمه من صنيع ابن حجر فى كتابه « غراس الأساس ^(١) » الذى جمع فيه المجازات التى ذكرها الزمخشري فى « أساس البلاغة » فرأى الأستاذ الخولى أن ابن حجر فى كتابه يخالف الزمخشري فى بعض ما ذكره من مجازات فيسقط منها ما لا يراه كذلك، ففى مادة « أتب » يقول الزمخشري : « ومن المجاز : هذا غلام قد تأتب السلاح أى لبسه وتأتب القوس إذا أخرج منكبيه من حمالة القوس فصارت على كتفيه » ويسقط ابن حجر هذه المادة كلها من المجاز ، فكأنه يعتبر استعمالها حقيقة كما يقرر فى مقدمته لكتابه إذ يقول : « فمن لم يجد فى هذا المختصر شيئا ليجزم بأنه وضع على سبيل الحقيقة ^(٢) » ويذكر الأستاذ الخولى فى مادة « أ . ت . ي » مصرحا بأن الزمخشري لم يبين شيئا من معانيها على أنه من المجاز فى حين أن ابن حجر استخلص من الأساس بعض مجازاتها ، ورأى الخولى صحيح لو كان الزمخشري حقيقة قد أهمل المعانى المجازية لهذه المادة : أما تركه للفظ « ومن المجاز » فهذا لا يعطينا دلالة مؤكدة

(١) راجع النسخة الخطية للكتاب فى مكتبة طلعت أحمد فروع دار الكتب المصرية

« ٣٦٣ لفة » .

(٢) راجع مقدمة أمين الخولى لأساس البلاغة .

على أن الزمخشري لا يرى في استعمالها شيئا من المجاز ، والحقيقة أن
الزمخشري أتى باستعمالات الكلمة وفيها الحقيقة والمجاز ، وجاء ابن حجر
فذكر الاستعمالات المجازية فقط للكلمة دون أن يصرح بشيء عن الأساس
ولا عن مدلول الكلمة عند الزمخشري ، أهى عنده حقيقة أم مجاز ؟ أم
تجمع الحقيقة والمجاز معا ؟ وظن الأستاذ الخولى أن بين الزمخشري وابن
حجر تعارضا لأن الأول لم يصرح بكلمة « ومن المجاز » ، فتكون المادة عند
الزمخشري — على فهم الأستاذ الخولى — كلها من الحقيقة ، ولأن الثانى
ذكر المعانى المجازية فحسب مع أن الكثير من الاستعمالات المجازية للكلمة
التي ذكرها ابن حجر مأخوذ من الأساس وهذا يكفيننا في معرفة أن اسقاط
الزمخشري للفظ « ومن المجاز » أحيانا لا يعطينا حكما كلياً بأن جميع
استعمالات الكلمة حقيقة .

وقد اختصر محمد بن عبد الرؤوف المناوى (م ٩٣١ هـ) كتاب
الأساس ورتبه على نظام الجوهري — أى بحسب الحرف الأخير للكلمات
وسماه « أحكام الأساس » .

ولاشك أن الزمخشري قد اعتمد على معاجم اللغة كلها في تأليف
الأساس وخاصة « العين » و « الجهرة » الذى يأخذ عنهما بعض التفسيرات
اللغوية المفردات (١) .

والزمخشري يرجع في كتابه إلى لغويين وأدباء ونقاد ورواة ويستشهد

(١) ومن أمثلة ذلك : راجع مادة — هـ ق ع — في العين والجهرة وكتاب المعجم العربى

للدكتور نصار ج / ٢ صفحة ٦٦١ .

في مادة « ح ، ج ، ر » بـ تفسير لغوى للجـ احظ ^(١) ، ويستدل في مادة « غ ، ل ، ف » بقول لابن دريد ، ويستشهد كذلك بأشعار الجاهليين والاسلاميين ، والمحضرين ، فيستشهد بشعر لابن هرمة ، وهو من مخضرمي الدولتين ، ويستشهد كذلك بشعر لعمارة بن عقيل (م ٢٤٠ هـ) ^(٢) ، وبشعر المقتبى ^(٣) ، وبأشعار كثير من المحدثين .

وهناك أمر بالغ الأهمية في البحث اللغوى عن الأساس ، وهو معرفة ما إذا كان هناك صلة علمية بين الأساس والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ، وأقول : أن كتاب المفردات في غريب القرآن للشيخ أبي القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب الأصفهاني الذي كان يعيش في أوائل المائة الخامسة الهجرية ، يدل على ما لهذا الامام الجليل من ذهن واع ، وفؤاد ذكي ، وعلم غزير ، ويقول : فخر الدين الرازى عنه في كتابه « تأسيس التقديس » في علم الأصول ان الراغب قد راعى في كتابه المناسبات التي بين الألفاظ المستعارات والمشتقات والمعاني الأصلية ^(٤) .

وكتاب المفردات يتحدث عن مفردات القرآن وغريبه التي جمعها ورتبها ترتيبا خاصا ، بحسب الحرف الأول لهذه المفردات ، ويقول الراغب في صدر كتابه أنه قد استوفى في كتابه مفردات ألفاظ القرآن على حروف التهجي وعلى ترتيب حروف المعجم معقبرا فيه أوائل حروفه الأصلية دون الزوائد والاشارة إلى المناسبات التي بين الألفاظ المستعارات منها والمشتقات ^(٥)

(١) ويستشهد برواياته الأدبية كذلك ، راجع مادة : ط ، ع ، م .

(٢) راجع مادة : س ، ل ، ع .

(٣) راجع مادة : س ، ع ، ط .

(٤) راجع كشف الظنون وصفحة ٨٧٥ من المفردات ط مصطفى الحلبي .

(٥) مفردات الراغب س ٤ ط الحلبي .

وترتيبه لألفاظ القرآن الكريم بحسب حروف المعجم بالنظر للحرف الأول لاشك أنه مسبوق بعمل أصحاب الرسائل اللغوية القصيرة ويعمل « الشيباني » و « البرمكي » مما أشرنا إليه سابقا ، ويكون هو في سلسلة ترتيب الذين رتبوا الالفاظ اللغوية بالنظر للحرف الأول بترتيب حروف المعجم بعد هؤلاء جميعا وقبل الزمخشري على إية حال ، وقد يكون الزمخشري قد احتذاه وسار على منهجه في هذا الترتيب ، إن لم يكن قد أطلع على صنيع من تقدموا الراغب « كالشيباني » و « البرمكي » ، ومعرفة ما إذا كان الزمخشري قد قلده في الصنيع اللغوي في الألفاظ التي ذكرها أمر صعب كل الصعوبة فإن الزمخشري لم يشر إلى هذا الامام في أساسه ، والمواد اللغوية المشتركة في السكتابين ليس بينهما تشابه ملحوظ ، على أن التشابه القليل في مقون اللغة لا يدل على تأثر أو احتذاء ، لأن من شأن التفسيرات اللغوية للألفاظ أن تتشابه . ومع ذلك فإننا نضع أمام القارئ آية مادة من « المفردات » لنعرف خصائصه ولنرى أن كانت هي الخصائص التي سار عليها الزمخشري أم لا ؟ يقول الراغب في مادة « فوز » : « الظفر بالخير مع حصول السلامة ، قال : « ذلك هو الفوز الكبير » ، « فاز فوزا عظيما » ، « ذلك هو الفوز المبين » ، وفي آخر : « العظيم » « وأولئك هم الفائزون » ، والمفازة قيل سميت تفاؤلا وسميت بذلك إذا وصل بها الفوز فإن الفقر كما يكون سببا للهلاك فقد يكون سببا للفوز فيسمى بكل واحد منهما حسبما يقصور منه ويعرض فيه ، وقال : بعضهم سميت مفازة من قولهم : فوز الرجل إذا هلك . فإن لم يكن فوز بمعنى هلك صحيحا فذلك راجع إلى الفوز ، تصورا لمن مات بأنه نجا من حباله الدنيا ، فالمرت والمرت وإن كان من وجه هلكا ، فمن وجه فوز ، ولذلك قيل

ما أحد إلا والموت خير له ، هذا إذا اعتبر بحال الدنيا ، فاذا ما اعتبر بحال الآخرة فيما يصل إليه من النعيم فهو الفوز الكبير ، « فمن زحزح عن النار ، وأدخل الجنة فقد فاز » ، وقوله : « فلان حسبه منهم نفازة من العذاب » فهي مصدر فاز . والاسم الفوز ، أى لا تحسبه منهم يفوزون ويتخلصون من العذاب ، وقوله : أن الملتقين مفازا أى فوزا أى مكان فوز ، ثم فسر فقال : حدائق وأعنا بالآية فقوله : « ولئن أصابكم فضل » إلى قوله : « فوزا عظيما » ، أى أنهم يحرصون على أغراض الدنيا ويمدون ما يفلون به من الغنيمة فوزا عظيما .

ف نجد أنه في هذه المادة مثلا يحدد المعانى اللغوية للكلمة التى وردت في القرآن الكريم تحديدا واضحا وبذكر بعض المعانى المجازية لها كالمفازة المصحراء دون أن يشير إلى ما يعده حقيقة ولا إلى ما يعده مجازا من إستعمالات الكلمة ، ودون أن يتخطى اللفظ إلى التراكيب والاستعمالات ، وقد عاش الراغب في عصر لم تسكن كلمتا الحقيقة والمجاز قد ذاعتا وحدد معنى كل منهما ، ومع أنه يذكر في المقدمة أنه يشير في مفرداته إلى « المناسبات التى بين الألفاظ المستعمالات منها والمشتقات ^(١) » ، ويذكر عنه الرازى ذلك فيقول : « وقد راعى المناسبات التى بين الألفاظ المستعمالات والمشتقات والمعانى الأصلية ^(٢) » فان مؤلف الكتاب لم يوضح ذلك التوضيح كله ولم يصرح به التصريح المبين لمغزاه وهذا ليس كله من منهج الزمخشري في شيء ، وإذا وازنا بين كتابه الرجلان وإن دار حول موضوع واحد في معان قد تتقارب فان عمل كل من الرجلين مستقل عن الآخر ، وهذا ما يقوله الزمخشري في هذه المادة ^(٣) « طوبى لمن فاز

(١) المفردات ص : ٤٠ (٢) المفردات ص : ٨٧٥ .

(١) أساس البلاغة مادة : « ف ، و ، ز » ط دار الكتب .

بالتواب وفاز من العقاب أى ظفر ونجا . وهو بمفازة من العذاب أى
بمنجاة منه ، وخرّبوا الفازات أى الفساطيط . وتقول : تلك الفازة ، فيها
المفازة ، أى المفلحة . ومن المجاز : المفازة للفلاة : سميت باسم المنجاة
على سبيل التقاؤل . وفوز المسافر : ركب المفازة ومضى فيها . قال حسان :

لله در رافع أنى اهتدى

فوز من قراقر إلى سوى

فوز بابل ، وفوز الرجل : مات فصار فى مفازة ما بين الدنيا والآخرة
من البرزخ الممدود ، ولأن المفازة صارت اسما للمهلكة فأخذ منها فوز
بمعنى هلك . وفاز سهمه ، وخرج له سهم فائز إذا غلب . وفاز بفائزة أى
بشيء يسره ويصيب به الفوز . وتقول : فاز فلان بفائزة هينة وأجيز
بجائزة سنية .

وإذا أخذنا كذلك مادة مثل « غطش » فى « المفردات » وفى
« الأساس » استطفنا أن نوازن بين ما كتب فيها ، يذكر الراغب فى
مادة (غ ، ط ، ش) فيقول : اغطش ليلها أى اجعله مظلا ، وأصله من
الاطش وهو الذى فى عينه شبه عمش . ومن ذلك قيل فلاة غطشى لا يهتدى
فيها ، والقطاش التعامى عن الشيء .

وأما الزمخشري فيذكر هذه المادة بقوله : أتيت غبشا وغطشا وهو
السدف وقد أغطش الليل ، وأغطشه الله ، (وأغطش ليلها) . وفلاة غطشى
عمية المسالك — قال الأعشى :

وبهماء بالليل غطشى الفلا

ة يؤنسى صوت فيأدهـــــ

وتقول: ركبت فلاة غطشى ، ونحن كرما لها عطشى ، وممرت به
فتقاطش — أى تغافل — قال كثير :

تفـاطش شكوانا اليها ولا تـمى

مع البخل أحناء الحديث المرجم

ومن هذا نلاحظ أنه مع بعض التشابه القليل بين ما كتبنا فى المادة
إلا أن الزمخشري لم يخذ الراغب فى صنيفه .

وإذا أخذنا مادة « فوض » كذلك فى الكتابيين ، نجد أن الزمخشري
يأخذ فى مجمل الأمر نفس عبارة الراغب ، يقول الراغب فى هذه المادة
« أفوض أمرى إلى الله: أردته إليه ، وأصله من قولهم: ما لهم فوضى بينهم .
قال الشاعر

« طعـامهم فوضى : فضا فى رحالهم » ، ومنه شركة المفاوضة ويقول
الزمخشري فيها : « وأفوض أمرى إلى الله » وفأوضته فى أمرى جاريتـه
وكانت بيننا مفاوضات ومخاضات . وبنو فلان فوضى مختلطون لا أمير
عليهم . قال :

لا يصلح الفاس فوضى لا سـراة لهم

ولا سـراة إذا جمـهم سادوا

وما لهم مختلط بينهم : مختلط من أراد منهم شيئا أخذه ، قال :

طـعـامهم فوضى فضا فى رحالهم

ولا يحسنون السر إلا تنـاديا

أى مختلط واسع لا يحبأون منه شيئا بل يتداعون إليه ، ومنه : شركة
المفاوضة وهى المساواة والمخالطة . وتفاوض الشريكان : تساوبا .

فنجذ الزمخشري يذكّر ما ذكره الراغب من الآية : « والاستدلال على معنى المادة بقولهم : شركة المفاوضة ، وذكر كذلك قولهم : ما لهم فوضى بينهم . وهذا في أعم مدلولاته يدل على تأثير الزمخشري بالراغب إلى حد ما في هذه المادة . وإذا بمنحنا مادة « الفاء » كلها في الكتابين نجد أن الراغب يذكّر المواد الآتية : —

فتح — فتر — فتق — فتل — فتن — فتى — فتأ — فجع —
فجر — فرد — فرش — فرض — فرع — فرغ — فرق — فره —
فري — فجا — فخر — فدى — فرر — فرت — فرث — فرج —
فرح .

وأما الزمخشري فيذكر منها : فاد — فار — فأس — فأفا — فأو —
فتأ — فت — فتح — فتح — فتر — فتش — فتق — فتك —
فتل — فتى — فتأ — فتر — فجأ — فجج — فجع — فجو — فعت —
فج — فحش — فحس — فحل — فحم — فحو : ومواد كثيرة
أخرى هي أوسع نطاقاً مما ذكره الراغب ، من استمراضات المادة نجد أن
الزمخشري لم ينهج نهج الراغب في المادة اللغوية ويدل ذلك على أن
الزمخشري لم يتخذ من مفردات الراغب وحده ، أصلاً يحثه في أساسه ،
وخلاصة ذلك كله أن الراغب وإن سبق الزمخشري في ترتيب الكلمات
اللغوية بحسب الحروف الأولى الهجائية ، إلا أنه لم ينظر في ترتيب الكلمات
إلى ما عدا الحرف الأول ، من الثاني وما بعده ، وقد كان صنيع الزمخشري
أكثر احكاماً واجادة من صنيع الراغب فالمواد عنده مرتبة بحسب الحرف
الهجائي وكل باب من أبواب هذه المادة مثل « باب الباء » أو « التاء »

أو « القاء » ، ترتيب الكلمات فيها بحسب الحرف الثاني ، ونجد
الزمخشري يذكر المعاني الحقيقية للكلمة ثم الاستعمالات
المجازية لها ، وأما الواجب فلم ينظر إلى ذلك ، وفي جملة الأمر
نجد أن عمل كل من الرجلين على العموم مستقل عن عمل
الآخر .

* * *



الفصل الثالث

الاتجاه اللغوي عند الزمخشري

في تفسيره «الكشاف»

7-11-63

...and the fact that the *Journal* is a journal of the American Psychological Association, the largest and most influential organization in the field of psychology, adds to the significance of the work.

الاتجاه اللغوى عند الزمخشري فى تفسيره :

- ١ -

هنا نتحدث عن « الكشف » من حيث الاتجاه اللغوى السائد فيه ،
وحين نتحدث عن الكشف نتحدث عن أخذ آثار الزمخشري وأعظمها
أصالة ومفارقة علمية ، ونتحدث كذلك بهذه المناسبة عن الجانب
الاعتزالى فيه .

ولقد بدأ الزمخشري فى تأليفه كتابه « الكشف عن حقائق التنزيل
وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل » عام ٥٣٦ هـ بمكة المكرمة وانتهى
من تأليفه عام ٥٢٨ هـ ، فى نسخة وجدت مكتوبة من هذا التفسير عليها
بخط المؤلف ما نصه « وهذه هى نسخة الأصل الأولى التى نقلت من السواد ،
وهى أم الكشف الحرمية المباركة الممسح بها المحقوقة أن تستنزل بها
بركات السماء ويستمطر بها فى السنة الشهباء ، فرغت منها يد المنصف تجاه
السكينة فى جناح داره السليمانية التى على باب أجياذ » الموسومة بمدرسة
العلامة ضحوة يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر من عام ثمانية
وعشرين وخمس مائة ^(١) .

والزمخشري نفسه يحدثنا فى مقدمة تفسير الكشف أنه أخذ منه
عامين وبعض العام ، حيث يقول : « وفق الله وسدد وفرغ منه فى مقدار
مدة خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه وكان يقدر تمامه فى أكثر من
ثلاثين سنة ^(٢) » . وهو يحدثنا أيضا عن الظروف التى ألف فيها هذا الكتاب

(١) تفسير الكشف ج ٣/ من ٣٧١ ط ١٩٥٩ الحلبي .

(٢) وخلافة أبى بكر سنتان وأربعة أشهر .

فيقول: « ولقد رأيت أخواننا من الأفاضل في الفئة الناجية المدلية ،
الجامعين بين علوم العربية والأصول الدينية كلما رجعوا إلى في تفسير
آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب،
واستطبروا شوقا إلى مصنف يضم أطرافا من ذلك حتى اجتمعوا مقترحين
أن أملى عليهم (الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه
التأويل^(١)) ، ومن هذا الكلام يظهر أن شروعه في تدريس التفسير كان
سابقا على تأليف هذا الكتاب وأنه كان مرجعا في التفسير لدى علماء
المعتزلة الذين جمعوا بين الأدب ، وعلم الدين ، وأنهم اقترحوا عليه أن
يملأ عليهم تفسير القرآن كله ويسميه « الكشف عن حقائق التنزيل
وعيون الأقاويل في وجوه التأويل » ولاشك أن الذين اقترحوا عليه هذا
الاقتراح الضخم أرادوا بذلك أن يفسروا القرآن على مبادئهم الاعتزالية التي
تحتوى على المعاني المحتملة لنصوص القرآن الكريم . فهو يشكو
في مقدمته من تقاصر همم الرجال أن يقوموا بهذا العمل الشاق فيقول :
« والذي حداني على الاستعفاء مع علمي أنهم طلبوا ما لاجابة إليه على
واجبة لأن الخوض فيه كفرض العين ما أرى عليه الزمان رثانة أحواله
وركاكة رجاله وتقاصر همهم عن أدنى هذا العلم^(٢) » :

ومن أجل هذا الرجاء والأصرار على الطلاب أخذ الزمخشري في
تحقيق أمل اخوانه وكتابة تفسير لمعاني القرآن وبلاغته ، وكان ذلك في
رحلته الثانية إلى مكة المكرمة وقد أكثر أولا في تفسيره من التفصيل
وبسط الكثير من الحقائق التي يؤيد بها مذهبه في العدل وبسط أسباب

(١) تفسير الكشاف ج/١ ص ١٥ ط ١٩٥١ .

(٢) تفسير الكشاف ج/١ ص ١٦ ط ١٩٥١ .

بلاغة آيات الذكر الحكيم ، وأملى عليهم مسائل في الفوائد وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة ، وجاء ما أملاه - كما يقول هو نفسه - كلاما مبسوطا كثير السؤال والجواب طويل الذبول والأذئاب^(١) .

ولكنه عاد فلاحظ حاجة الناس في جميع البدان إلى مثل هذا التفسير ، وأراد أن لا يصرفهم عن بسط مسائل الاعتزال والافاضة فيها فعاد إلى طريقة أخصر من الأولى ، مع ضمان الكثير من الفوائد والفحص عن السرائر^(٢) وذلك حرصا منه على عموم النفع به ، وإقبال الناس عليه بالإضافة إلى رغبته في إرضاء الأمير الشريف سليل الدوحة الحسنية « أبى الحسن على ابن حزة بن وهاس » الذي نوه به في مقدمة التفسير ، وأشاد بمناقبه وجعل ذكر اسمه فيها بمثابة اهداء الكتاب إليه « ولا شك أن هذا الأمير لم يكن معتزليا » .

والصبغة الاعتزالية في الكتاب جعلت صاحب « روضات الجنات » يذهب إلى تسجيل رأى الغزالي في الكشف وطعنه عليه ، لأن الغزالي لم يكن يراه في جانب المعتزلة ، بقرل مؤلف روضات الجنات^(٣) : لما صنف الزمخشري تفسيره الكشف جاء به للامام الغزالي ليمده بالعناية واللفظ ولما جلس عنده وذكر له سبب زيارته قال له الغزالي كيف فسرته (إياك نسقمين) فقال أن تقديم المفعول يفيد الانحصار ، فقال له إذن أنت من علماء القشر فرجم الزمخشري نادما على ما فعل ، ولا شك أن هذه الرواية ظاهرة الانتحال إذ أن الغزالي مات عام ٥٠٥ هـ ، والزمخشري ألف تفسيره عام ٥٢٨ هـ .

(١) تفسير الكشف ج ١/ صفحة ١٧ - (٢) نفس المصدر ج ١/ ص ١٨ .

(٣) روضات الجنات - للغونساري - ص ٥٦٢ ط طهران .

وكان الزمخشري يشيد بتفسيره وينوه بعمله في ثنائه، وقد كان على حق في ذلك^(١) لأن تفسيره الكشف يعد نموذجاً ومثلاً واضحاً لمقدرته العلمية والثقافية، إذ أنه عصاره كده وجهده وثقافته التي اكتسبها خلال ستين عاماً من العمر صرفها في طلب العلم في هذا التفسير ترى الزمخشري بكل ثقافته وصوره، العملية: ففيه صورة الزمخشري المحدث والفقير، والأصولي والكلامي، والمنطقي، ويبين فيه الزمخشري الأديب اللغوي اللغوي المرفه الحس الذواق لجمال النصوص القرآنية من جميع نواحيها، ومن أراد أن ينظر وبطلع إلى الصورة الحقيقية التي تمثل وتمسك جميع جوانب حياة الزمخشري الثقافية فليتنظر إلى تفسير الكشف، والذي يهمننا الآن أن نكشف عن جوانب هذا التفسير لاسيما الجانب اللغوي، والاعتزالي حيث ذلل اللغة وأخضعها لفكرة مذهبه الاعتزالي، ومن ثم فسوف نبدأ ببيان الاتجاه اللغوي عند الزمخشري في تفسيره، ثم نبين بعد ذلك عن مصادر الكشف ونبين مكانته بين كتب التفسير بالرواية والتفسير بالرأى، ثم نشير إلى منزلة الزمخشري بين طبقات المفسرين ونذكر ما ألف على الكشف من شروح وحواش، ثم نشير إلى أهم ما كتب حول الكشف من آراء، وأخيراً نختم البحث ببيان صبغته الاعتزالية التي هي ظاهرة من أهم ظواهر هذا التفسير وهذه الدراسات وإن كانت لاتتصل بالاتجاه اللغوي عند الزمخشري اتصالاً مباشراً إلا أنها ولاشك تتصل بها اتصالاً قريباً « وأن كان غير مباشر » .

الاتجاه اللغوي عند الزمخشري في تفسيره :

تجلت ثقافة الزمخشري العربية والدينية في تفسيره الكشف الذي يعد دائرة معارف عربية واسعة الذبوع والشهرة ، فلقد عرض الزمخشري فيه للغة والنحو والتصريف والاشتقاق والقياس والقراءات والبلاغة وغيرها من علوم العربية في مناسبة حديثة عن الآيات القرآنية في سعة بسط وقوة عرض وعظمة دراية بالمأثور والمأم بالمنقول ، وأضاف إلى كل ذلك ذوقه وشخصيته في التفسير والشرح والبيان ، ولاخير في أن نسطرد في تحليل الاتجاه اللغوي عند الزمخشري في كشافه :

معاني اللغة في الكشف :

١ — يعرض الزمخشري في كل آية وموضع للألفاظ اللغوية بالتفسير والشرح لما يشتت فروع الكلمة وأصولها وبما قاربها أو شابهها من الألفاظ .

يفسر مثلا الرحمن والرحيم فيقول « الرحمن فعلان من رحم كغضبان وسكران من غضب وسكر وكذلك الرحيم فعيل منه كريض وسقيم من مرض ومقم ، وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم ولذلك قالوا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا ويقولون أن الزيادة في البناء لزيادة المعنى وقال الزجاج في الغضبان هو المتعمى غضبا وبما طن على أذن من ملح العرب أنهم يسمون مركبا من مراكبهم بالشقذ وهو مركب خفيف ليس في ثقل مجامل العراق فقلت في الطائف لرجل منهم ما اسم هذا المحمل أردت المحمل العراقي فقال أليس ذاك اسمه الشقذ قلت بلى فقال هذا

اسمه الشقنداف فزاد في بناء الاسم لزيادة المعنى .. الخ^(١) .

ويقول في تفسير قوله تعالى « المفلحون » الفائز بالبغية كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه والمفلج بالجيم مثله ومنه قوله المطلقة استغلقى بأمره بالخاء والجيم والتركيب دال على معنى الشق والفتح وكذلك أخواته في الفاء والعين نحو فلق . وقلذ ، وفلى^(٢) ، ويقول في تفسير « الحمد » مشيراً إلى نظائره في المعنى : الحمد والمدح أخوان وهو الثناء والثناء على الجليل من نعمة وغيرها تقول : حمدت الرجل على أنعامه وحمدته على حسبه وشجاعته . وأما الشكر فعلى النعمة خاصة وهو بالقلب واللسان والجوارح ، قال :

أفادكم النعماء منى ثلاثة

يدى وإساقى والضمير المحجبا

والحمد باللسان وحده فهو إحدى شعب الشكر ، ومنه قوله عليه السلام : الحمد رأس الشكر ، ماشكر الله عبد لم يحمده وإنما جعله رأس الشكر ، لأن ذكر النعمة باللسان والثناء على مولياها أشيع لها وأدل على مكانها من الاعتقاد وآداب الجوارح لخفاء عمل القلب وما في عمل الجوارح من الاحتمال بخلاف عمل اللسان وهو النطق الذي يفصح عن كل خفي ، ويجعل كل مشتبها ، والحمد نقيضه الذم ، والشكر نقيضه الكفران^(٣) .

ويقول في المعنى اللغوي لكلمة (سجي) : سكن وركد ظلامه ، رقيق ليلة ساجية ساكنة الريح ، وقيل معناه سكون الناس

(١) الكشف ج/١ ص ٣٤، ٣٥ .

(٢) الكشف ج/١ ص ١١٤ .

(٣) تفسير الكشف ج/١ ص ٣٩، ٣٨ .

والأصوات فيه ، وسجلا البحر سكنت أمواجه وطرف ساج : ساكن
فاتر (١) .

ومن هذا نجد شدة استقصائه المعاني اللغوية للالفاظ وتحرره في تحديد
المعنى اللغوى تحديدا واضحا .

٢ — يعرض الزمخشري المعنى المجازى للكلمة عرضا دقيقا واسعا
يقول في معنى « يوم الدين » ويوم الدين يوم الجزاء ومنه قولهم : كاتدين
تدان ، وبیت الحماصة :

ولم يبق سوى العدا
ن دناهم كا دانوا

فان قلت : ما هذه الاضافة قلت : هي اضافة الفاعل إلى الظرف على
طريقة الاتساع فجرى مجرى المفعول به كقولهم « يا سارق الليلة أهل
الدار » والمعنى على الظرفية ومعناه مالك الأمر كله في يوم الدين كقولهم :
لن الملاك ؟ (٢) والاتساع في الظرف أن لا يقدر « في » توسعا فينصب
نصب المفعول به كقولهم « ويوم شهادته » أو يضاف اليه على وتيرته كالك
يوم الدين وسارق الليلة حيث جعل اليوم مملوكا والليلة مسروقة ، ويريد
الزمخشري بهذا الاتساع : أن يكون في التوسع في الاضافة مجاز عقلى وهو
بذلك بشرح لنا شيئا من المعنى المجاز العقلى في الاضافة ويقول الزمخشري في
معنى قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت
تجارتهن » :

جعلوا التمكن منهم واعراضه لهم كأنه في أيديهم — فاذا تركوه

(١) تفسير الكشاف ج ٣ / ص ٣٤٤

(٢) تفسير الكشاف ج ١ / ص ٤٦

إلى الضلالة فقد عطلوه واستبدلوا به ولأن الدين القيم هو فطرة الله التي فطر الناس عليها فكل من ضل فهو مستبدل خلاف الفطرة . ثم يستطرد الزمخشري في هذا المعنى فيقول : « كيف اسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها ؟ (قلت) من الاسناد المجازي ، وهو أن يسند الفعل إلى شيء يتلبس بالذي هو في الحقيقة له كما تلبست التجارة بالمشتريين . فانه قلت : هل يصح ربح عبدك وخسرت جارتك على الاسناد المجازي ؟ قلت : نعم إذا دلت الحال وكذلك الشرط في صحة رأيت أسدا وأنت تريد المقدم ان لم تقم الحال دالة لم يصح . فان قلت : هب أن شراء الضلالة بالهدى وقم مجازا في معنى الاستبدال فما معنى ذكر الربح والتجارة كأن ثم مبايعة على الحقيقة (قلت) : هذا من الصنعة البديعية التي تبلغ المجاز الذروة العليا وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ثم تقفى بأشكال لها وأخوات إذا تلاحقن لم تر كلاما أحسن منه ذيباجة وأكثر بهاء وروفا وهو المجاز المرشح ونحو ذلك قول العرب في البليد ، « كأن أذن قلبه خطلا » وان جمعه كالخمار ورشحوا ذلك دوما لتحقيق البلادة فادعوا لقلبه أذنين وادعوا لهما الخطل ليمثلوا البلادة تمثيلا يلحقها ببلادة الخمار مشاهدة معاينة ، ثم يأخذ في تبسيط هذا الكلام فيقول : لما ذكر سبحانه وتعالى الشراء تبعه ما يشاكله ويؤاخيهِ وما يكمل ويتم بانضمامه اليه تمثيلا لخسارهم وتصوير الحقيقة (١) . وهو بذلك يشرح لنا المعنى المجازي في قوله تعالى « اشتروا الضلالة » والتجوز العقلي في قوله تعالى « فما ربحت تجارتهم » وما يصل بذلك من مقدمات المجاز ومؤكداته وهو في هذا الشرح يفيض في التحليل والتفصيل والتعمق في إيضاح المعنى وتبيينه .

ويقول في تفسير قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان » ما خلاصته : عرض الأمانة على الجادات وأباؤها واشفاقها مجاز وأما حمل الأمانة فمن قواك : فلان حامل للأمانة ومحمّل لها . ثم يفيض في شرح التمثيل في الآية ويأتى بنظائر هذا التمثيل ليعبئه بها ^(١) .

ويقول في قوله تعالى « ولما سكنت عن موسى الغضب » هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل انومك كذا وألق الألواح وجر برأس أخيك إليك فترك الفطى بذلك وقطع الاغراء ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم وذوق صحيح إلا اذلك ولأنه من قبيل شعب البلاغة وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة ، ولما سكن عن موسى الغضب لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهمة وطرفاً من تلك الروعة وقرىء ولما سكنت واسكت ، أى اسكته الله أو أخوه باعتذاره إليه . والمعنى ولما طفىء غضبه ^(٢) .

٣ — ولا شك أن الامام بالمعنى اللغوى للكلمة أو بالمعنى المجازى فى ذاته هو من مقومات الفهم اللغوى للفظ ، كما أن فهم الاسناد المجازى فى الأساليب يعد خير توضيح للمعنى وتفسير له وذلك مما يرجع ولا ريب إلى الشرح والتفسير اللغوى للكلمة أو الجملة أو الاسناد .

القرارات فى الكشف :

ان الزمخشري فى تفسيره يفيض فى بيان القراءات ووجوهها واختلاف معانى الأسلوب القرآنى نتيجة لها ، يقول الزمخشري فى قوله تعالى

(١) تفسير الكشف ج / ٢ ص ٥٥٢ - ٥٥١

(٢) تفسير الكشف ج / ١ ص ٥٧٩ - ٥٨٠

« ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » : قرىء بالفتح ثم قرىء بضم التاء
« أى لا تزوجوهن أو لا تزوجوهن » ^(١) . ويقول فى قوله تعالى
« ويمدهم فى طفياهم قراءة بن كثير وابن محيصن « ويمدهم » وقراءة
نافع واخوانهم : « ويمدهم » ... الخ ^(٢) .

ويقول فى قوله تعالى « ثم أرسلنا رسلكنا تترى » الألف للقائىث لأن
الرسول جماعة وقرىء تترى بالتنوين والتاء بدل من الواو كما فى « تولج »
أى متوازيين واحدا بعد واحد ^(٣) .

ويقول فى قوله تعالى « ايان يبعثون بل أدرك علمهم » مانصه : ايان
بمعنى متى ولو سمي به لكان فعلا من آن يثين ولا يصرف وقرىء ايان
بكسرة الهمزة وقرىء بل أدرك . بل أدرك . بل إدراك . بل تدارك .
بل أأدرك بهمزتين . بل أأدرك بألف بينهما . بل أدرك ، بالتخفيف
والنقل بل أدرك بفتح اللام وتشديد الدال ، وأصله بل أدرك على الاستفهام .
بل أدرك بل أدرك أم تدارك فهذه ثلثا عشرة قراءة ، وادراك أصله
تدارك فأدغمت التاء فى الدال ، وأدرك افعل ، ومعنى أدراك علمهم انقضى
وتكامل ، وأدرك تتابع واستحكم ^(٤) ، وقوله تعالى « وصالح المؤمنين »
هو واحد أريد به الجمع ويجوز أن يكون أصله صالحو المؤمنين بالواو فكتب
بغير واو ، على اللفظ لأن لفظ الواحد والجمع فيه واحد ^(٥) ، وهكذا يفيض

(١) تفسير الكشاف ج ١ / ص ٢٧٣

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ / ص ١٤٤

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ / ص ٣٦٢

(٤) تفسير الكشاف ج ١ / ص ٤٥٨

(٥) تفسير الكشاف ج ٣ / ص ٢٤٦

الزمخشري في بيان القراءات وشرحها وتحليل المعنى اللغوي المبني عليها ،
ويؤثر من القراءات ما يتضمن معنى بليغاً كما قال في قوله تعالى : « ولي
نعمجة واحدة » قراءة بن مسعود ولي نعمجة أنثى — ويقال امرأة للانثى
للمحسناء الجميلة ، والمعنى وصفها بالعراقة في لين الأنوثة وفتورها وذلك أملح
لها وأزيد في تكسرها وتنفيها ^(١) ونجد الزمخشري أحياناً يستشهد
بالقراءات المختلفة لتقرير اعتقاده الاعتزالي كما في تفسيره الآية (٤٨) من
سورة البقرة (وآية (١٨) من سورة آل عمران) وغير ذلك من الوجوه .
فهو دائماً يلقس شيئاً يرجح به جانب المعنى ويدع جانب الظاهر
فنجده يقول في قوله تعالى « فشرّبوا منه إلا قليلاً » وقرأ أبي والأعمش
إلا قليل بالرفع ، وهذا من ميلهم مع المعنى والاعراض عن جانب اللفظ
وهو باب جليل من علم العربية ^(٢) وانظر في تفسير البحر المحيط تعليق أبي
حيان على قراءات الزمخشري وكيف أن الزمخشري يطعن كثيراً في نقل
القراء وقراءاتهم ^(٣) .

الاعراب ووجوه النحو في الكشف : —

لا ينسى الزمخشري في تفسيره ثقافته النحوية التي كان إماماً فيها
فنجده يكثر من بيان الاعراب ووجوه النحو ويفيض في هذا المضمار ومن
مثل ذلك ما كتبه في قوله تعالى « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما
أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى » حيث يقول :
« يوم منصوب بتذهل وضمير ترونها للزلة ، وقرىء تذهل كل مرضعة

(١) تفسير الكشف ج / ٣ ص ١١

(٢) تفسير الكشف ج / ١ ص ٢٨٩

(٣) تفسير البحر المحيط — لأبي حيان — ج / ٥ ص ٢٤٨-٢٤٨ ، ج / ٢ ص ١٥٨

على البناء للمفعول ، وتذهل كل مرضعة أى تذهلها الزلزلة وترى بالضم من أريتك قائما أو رأيتك قائما والناس منصوب ومرفوع والنصب ظاهر ومن رفع جعل الناس اسم ترى وأنت على تأويل الجماعة ... الخ (١).

فالزخشرى حينما يتعرض لأعراب الآية : يحاور ويتمحل ويلف ويدور حتى يضع يده على ما يروم ومن أمثلة ذلك الكثيرة ، كلامه فى إعراب الآية السكريمة « ان الذين آمنوا والذين هادوا الصابثون ». والصابثون رفع على الابتداء وخبره محذوف ، والنية به التأخير عما فى حيز أن من اسمها وخبرها كأنه قيل ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا والصابثون كذلك وأنشد سيبويه شاهدا له :

ولا فاعلموا أنا وأنتم

بغاة ما بقينا فى شقاق

أى فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك . فان قلت هلا زعمت أن ارتفاعه للعطف على الحل لأن واسمها ، قلت : لا يصح ذلك قبل الفراغ من الخبر ، لا تقول ان زيدا وعمرو منطلقان . فان قلت : لم لا يصح والنية به التأخير فكأنك قلت ان زيدا منطلق وعمرو ، قلت : لأنى إذا رفعت عطفها على محل ان واسمها والعامل فى محلها هو الابتداء ، فيجب أن يكون هو العامل فى الخبر لأن الابتداء ينظم الجزأين فى عمله كما تنظمها ان فى عملها فلو رفعت الصابثون المنوى به التأخير بالابتداء وقد رفعت الخبر بان لأعمال فيهما رافعين مختلفين . فان قلت : فقوله والصابثون معطوف فلا بد له من معطوف عليه فما هو ؟ قلت : هو مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قواه إن الذين آمنوا .. الخ . ولا محل لها كما لا محل للتى عطف عليها.

فان قلت : ما التقديم والتأخير إلا لفائدة فما فائدة هذا التقديم ؟ قلت :
فائدته التنبيه على أن الصابئين يقاب عليهم إن صح منهم الايمان والعمل
الصالح فما الظن بغيرهم ^(١) .. الخ .

والزمخشري كثيرا ما يسخر النحو في خدمة الاعتزال فعندما يرى أن
ظاهر الآية : « وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رحمة ورحمانية ابتدعوها »
تخالف حرية الارادة فأعرب رهبانية على أنها منصوبة بفعل مضمّر يفسره
الظاهر مع تقديره (وابتدعوا رهبانية) ولم يحز العطف على ما قبلها لأنه
لا يجوز عندهم عطفها على جعلنا ووصفها بقوله تعالى (ابتدعوها) لأن ما
يجعله هو تعالى لا يبتدعونه هم ثم يرجع مرة أخرى ويقول ويجوز أن
يكون رهبانية معطوفة على ما قبلها وتكون وابتدعوها صفة لها في محل
النصب (أى وجعلنا قلوبهم فيها رأفة ورحمة ورحمانية مبتدعة من عندهم
بمعنى وفقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانية ^(٢) فيقف في إعراب
الآيات كي يقرر مذهبه الكلامي فيأتي مرة أخرى إلى معنى أداة
العطف (الواو) يقول في الآية « هو الأول ، والآخر والظاهر والباطن »
فان قلت : فما معنى الواو ؟ قلت : الواو الأولى معناها الدلالة على أنه
الجامع بين الصفتين الأولية والأخروية والثالثة على أنه الجامع بين الظهور
والخفاء وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين ومجموع
الصفتين الآخرين ، فهو مستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية
فهى في جميعها ظاهر وباطن جامع المظهر بالأدلة والخفاء فلا يدرك بالحواس
وفي هذا حجة على من جوز إدراكه في الآخرة بالحاسة ^(٣) فكل هذه

(١) تفسير الكشاف ج / ١ ص ٧٤

(٢) تفسير الكشاف ج / ٣ ص ٢٠٤

(٣) تفسير الكشاف ج / ٣ ص ٢٠٠ آية ٣ سورة الحديد

التمسفات والتمسحات لأجل أن يقرر بأن الله لا يدرك بالحواس الظاهرة .
ولأجل أن يقرر عقيدة الاعتزال بأن مراد الرب كمراد العبد منه
ما يقيم ومنه ما يمنع فيقول في الآية « ولعلكم تشكرون » أن لعل هنا
بمعنى الارادة أى إرادة أن تشكروا^(١) وفي الآية « هل من خالق غير الله
يرزقكم من السماء والأرض »^(٢) دليل آخر على دقة الزمخشري في التماسه
الوجه النحوية التي يسخرها لتقرير الرأى الاعتزالى فى مسألة حرية
الارادة ، يقول : فان قلت : ما محل يرزقكم قلت : يحتمل أن يكون
له محل إذا أوقعته صفة خالق وأن لا يكون له محل إذا رفعت محل من
خالق باضمار يرزقكم وأوقعت يرزقكم تفسيراً له أو جعلته كلاماً مبدءاً
بعد قوله هل من خالق غير الله ، فان قلت : هل فيه دليل على أن الخالق
لا يطلق على غير الله تعالى : قلت : نعم ، أن جعلت يرزقكم كلاماً مبدءاً
وهو الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة وأما على الوجهين الآخرين وهما
الوصف والتفسير فقد تقييد فيهما بالرزق من السماء والأرض وخرج من
الاطلاق فكيف يستشهد به على اختصاصه بالإطلاق والرزق من السماء
والمطر ومن الأرض النبات^(٣) . فنرى كيف ترك الوجه الثالث الذى لا يتفق
ومتعقده وجاء بالوجهين الآخرين لإثباتا وتقريراً لرأيه بأن هناك خالقاً
غير الله وهو الانسان الذى يخلق أفعاله .

فاذا ما تمعنا الزمخشري في تفسيره عالماً نحوياً فهو عندما يتعرض
للقرآن من الوجهة الاعرابية لا ينساق وراء صناعه النحوية كسائر النحويين
فيمصرف ويبعد عن جانب المعنى يأخذ بالظاهر ، بل نراه يحمل كل همه

(١) تفسير السكشاف ج/١ ص ٣١٦ آية ٥٢ سورة البقرة .

(٢) سورة الفاطر آية ٣ .

(٣) السكشاف ج/٢ ص ٥٧٠ .

حيثما كان هناك تقديرا أعرابى أن يعالج الأحكام النحوية ويبين مقاصد النحو من الناحية التى تستخدم فيها وتخدم تفسير القرآن وتنسق معانيه يقول فى الآية « يتربصن ثلاثة قرؤ^(١) » فان قلت : فعلام انتصب ثلاثة قرؤ ؟ قلت على أنه مفعول به كقولك المحترى يتربصن الغلاء أى يتربص مضى ثلاثة قرؤ أو على أنه ظرف أن يتربصن مدة ثلاثة قرؤ ، فان قلت : لم جاء المميز على جمع الكثرة دون القلة التى هى الأقراء ؟ قلت : يتسمون فى ذلك فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما فى الجمعية لا ترى إلى قوله بأنفسهن ، وماهى إلا نفوس كثيرة ولعل القراء كانت أكثر استعمالا فى جمع قرء من الأقراء فأوثر عليه تنزيلا لقليل الاستعمال منزلة المهمل . فيكون مثل قولهم : ثلاثة شموع^(٢) ، فاذا مارأى الزمخشري أن الحكم الأعرابى مخل بالمعنى رفضه فى آية « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما^(٣) » يقول والمنصوبان أعنى بين ذلك قواما جائز أن يكونا خبرين معا وأن يجعل « بين ذلك » لفوا « وقواما » مستقرا وأن يكون الظرف خبرا « وقواما » حالا مؤكدة ، وأجاز القراء أن يكون « بين ذلك » اسم كان على أنه معنى لضافته إلى غير متمكن كقوله :

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت

وهو من جهة الأعراب لا بأس به ولكن المعنى ليس بقوى لأن ما بين الأعراف والفتقير قوام لاحالة فليس فى الخبر الذى هو معتمد الفائدة

(١) سورة البقرة ٢٢٨ .

(٢) تفسير الكشاف ج/١ ص ٢٧٧ « البقرة » .

(٣) الفرقان ٦٧ .

فائدة (١) .

على أن الكشف مظهر لثقافات الزمخشري العديدة التي أحاطت بشتى علوم العربية أصولا وفروعا ففيه صورة واضحة لثقافته البيانية وفيه كذلك صورة لثقافته فى التصريف والاشتقاق وما يليها من شتى علوم اللغة مما لا داعى فى هذا الفصل لزيادة الأطناب فيه .

أصول لغوية فى الكشف :

١ — يحتوى الكشف على مجمل الأصول اللغوية والعربية العامة التى اشتهر بالنبوغ فيها وتفوق فى دراساتها تفوقا ظاهرا وقد سبق أن ذكرنا عناية الزمخشري فى تفسيره باللغة، والقراءات ، والنحو ، وجوه الأعراب، ونضيف إلى ذلك أن الزمخشري وضع فى تفسيره أهم الأصول البلاغية العربية عندما عرض لتفسير بعض الآيات التى هى من قبيل المجاز أو الاستعارة أو الكناية ، أو التى تشتمل على وجوه مختلفة ، من التقديم ، أو التأخير ، والحذف أو الزيادة ، والتعريف أو التفسير ، وغير ذلك من وجوه بلاغة الكلام وألوان فصاحته وما يشتمل عليه من محسن لفظى أو معنوى كالطباق والجناس مثلا وتفسير الكشف من حيث اشتماله على على أصول البلاغة العربية والكثير من فروعها فى دقة تحاييله وعمق تفصيله، وسعة احاطته ، وجمال عرضه ، وذكاء تطبيقه ، يكاد يعد فريدا فى بابهِ .

والزمخشري كثير من الاصطلاحات التى تعد من أهم اصطلاحات البلاغة العربية ، وهوى فيض فى بلاغة الاستعارة والتمثيل والكناية والتشبيه ، وفى بلاغة مختلف أساليب الكلام ، وكثيرا ما يذكر التخييل ، فى الآيات التى تجيء من قبيله ، يقول فى قوله تعالى : « والأرض جميعا قبضته يوم

القيامة والسموات مطويات بيمينه » : أن الغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو يحملته ومجموعة ، تصوير عظمته والتوقيف على كنهه جلالة ، لا غير من ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقية ، أو جهة مجاز .. إلى أن يقول : ولا نرى بابا في علم البيان أدق ، ولا أرق ولا أطف من هذا الباب ، ولا أنفع وأعون ، على تعاطي تأويل المشتبهات ، من كلام الله تعالى ، وكلام الأنبياء ، فإن أكثره وعليقته تخيلات ، قد زلت فيها الأقدام ، قديما^(١) .. الخ . وهو يريد بالتخييل هنا التمثيل على سبيل الاستعارة ، والمراد ما جاء على غير سبيل الحقيقة بل على ضرب من المعجوز والتأويل وهو يتكلم عن التخييل في آيات آخر كثيرا ، وإنما ذكرنا التخييل على سبيل المثل لبعض الاصطلاحات البيانية التي يأتي بها الزمخشري في كشفه . ويقول الزمخشري في هذه الاصطلاحات البلاغية أنها ألفاظ مستحدثة لم يعارفها الناس في ذلك العهد — أي ظهد الوضع ، المفوى — وإنما أحدثوها بعد^(٢) .

أن صاحب الكشف في عرضه لبلاغة الآيات القرآنية ووجهه اعجازها ولما احتوت عليه من ضروب البيان بعد جليل القدر وعظيم المنزلة ، بين علماء التفسير والبلاغة .

٢ — ويكثر الزمخشري في كشفه من الاستشهاد ببلاغة القرآن الكريم بشعر المحدثين وكلامهم ، مؤكدا أن المحدث وأن كان لا يستشهد

(١) تفسير الكشف ج/٣ ص ٤٠، ٤١ وكذا في نسخة الكشف والظاهر « غلبته »

أو أغلبه .

(٢) تفسير الكشف ج / ١ ص ١٦٧ .

بشعره في اللغة إلا أنه عربي اللسان وما يقوله بمنزلة ما يرويه^(١) ويكثر من الاستشهاد كذلك بقول الحسن البصري في اللغة والتفسير^(٢) ، وبغيره من الاسلاميين والمحدثين . ويستشهد كذلك بشعر للحريزى وكلام أعرابية مستجدية بمكة^(٣) .

٣ — يعيل الزمخشري في تفسيره إلى ترجيح الاستعمال المستفيض الذي هو بمنزلة الخبر المتواتر ، على القياس ونص عبارته : ولكن استعمال المستفيض الذي هو بمنزلة الخبر المتواتر تقضاهل إليه القياسات^(٤) . وحيث لا يشتهر الاستعمال المستفيض يستشهد الزمخشري بالقياس ، كما في كلامه على الرحمن حيث استدل باستعمالات العرب على أن الزيادة في بناء الاسم هي ازيادة المعنى^(٥) .

٤ — ومن الجدير بالذكر أن الزمخشري يطلق على المجاز في اللغة « اتساعا » كما في تفسيره لقوله تعالى : « ويعملون أصابعهم في آذانهم من الصواعق » حيث يقول : أن رأس الأصبع هو الذي يعمل في الأذن ، فهلا قيل أناملهم ؟ ويجيب عن ذلك بأن هذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد يحصرها الحاصر ، ويسمى المجاز العقلي اتساعا كذلك .

٥ — والفلسفة اللغوية ظاهرة في الكشف ظهورا جليا ، حيث نجد

(١) الكشف ج / ١ ص ٢٣ ، ١٧٠ .

(٢) راجع استشهاده مثلاً في معنى « الدولة » الكشف ج / ٣ صفحة ٢١٥ ، ٢٥٧ وفي

تفسير كلمة همماز .

(٣) الكشف ج / ٣ ص ١٦٤ ، ١٠٣ ، ٢٩٩ ، ٢٩٤ .

(٤) تفسير الكشف ج / ٢ ص ١٧٧ ، ج / ١ ص ٤٤ .

(٥) الكشف ج / ١ ص ٣٤ ، ١٦٧ ، ٤٥ .

الزمخشري يحاول رد الفروع اللغوية إلى أصولها والمتشابهات إلى أصل واحد أو يحاول أن يجعل بين الأصول المختلفة وجوه صلة وتناسب ، وذلك ماسوف نفسه في الباب الثالث من هذا القسم عند الكلام على المبادئ العامة اللغوية عند الزمخشري .

٦ — ومن أمثله ذوقه اللغوي الدقيق وإحساسه بالفرق بين لفظه ولفظة ، ماعرض له في كلامه على لفظه سلسبيل يقول : لسلاسة انحذارها في الحلق وسهولة مساغها ، يعنى أنها في طعم الزنجيل وليس فيها الذعة ، ولكن نقيض اللذع ، وهو السلاسة يقال شراب ، سلسل ، وسلسال ، وسلسبيل ، فقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية ودلت على غاية السلاسة ، قال الزجاج : السلسبيل في اللغة صفة لما كان في غاية السلاسة^(١) .

٧ — ويعرض الزمخشري في تفسيره لوضع كثير من أصول الدراسات اللغوية والبلاغة فنجده يتحدث عن موسيقى اللفظ ويعرض الموازنة اللغوية بين لفظه وأخرى ويشير إلى ما توحى به اللفظة من تأثير وهزة ، ويعرض للنقد اللغوي للكلمة ، ويذكر ما جرى فيها من الاتساع وغير ذلك من وجوه الاتجاهات اللغوية للمفردات .

وأخيرا فإن هذه هي أهم ملامح الاتجاهات اللغوية عند الزمخشري في تفسيره الكشف ولاضير علينا إذا كنا استعظردنا في هذا الموضع إلى الحديث عن كل ما يتصل بالكشاف من دراسات وبحوث ، ومن الجدير بالتنويه أن الباب الثالث الخاص بالحديث عن تفصيل الكلام على الاتجاهات اللغوية عند الزمخشري ، سوف يكمل جوانب هذا البحث ويوضح أهم خصائص الاتجاهات اللغوية عند هذا الأمام الجليل .

مصادر الكشف :

وكتاب الكشف — الذى يعد من أهم كتب التفسير وأصوله ، حافل بالعديد من الآراء والمصادر التى أعتمد الزمخشري عليها ورجع فى تفسيره اليها واستدل بأرائها حينما ونقدها حينما آخر وأضاف اليها اضافات حينما ثالثا . ونلاحظ أن الزمخشري فى أغلب الأمر ينقل رأى ولا يشير إلى مرجعه ويستدل بالدليل ولا يذكر من أى كتاب أخذه .

ومن أجل اعطاء صورة واضحة عن « الكشف » رأيت أن أشير إلى أهم مصادره التى أمكننى الا بانه عنها ولا شك فى معرفة هذه المصادر ما يوضح لنا الكثير من ثقافات الزمخشري واتجاهه الفكرى معا ومدى تأثيره بالمفسرين الذين استقى منهم وأخذ عنهم .

١ — مصادر اللغة :

(١) كتاب سيبويه (م ١٨٩ هـ) : يستشهد بأقواله فى مواضع عديدة (١) .

(ب) اصلاح المنطق لابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٤ هـ . يذكره وينقله نقدا لاذعا (٢) .

(ج) الكامل للمبرد (المتوفى ٢٨٥ هـ) (٣) .

(د) كتاب المقم فى الخط والتمجى لدرستويه المتوفى ٣٧٤ هـ (٤) .

(١) تفسير الكشف : ١١٧ — ١٧١ — ٦٧ / ١ ، ٨٥ ، ٣ / ٢٩٦ — ١٩٢ —

١ / ٢٩ ، وتفسير البحر المحيط لابی حيان — ح ٦ ص ٩٨

(٢) تفسير الكشف : ٢٨٢ — ٤٤٥ / ح ١

(٣) د » ٢٧٦ — ١٤٠ / ج ٢ ، ٢٥١ / ج ١

(٤) د » ٧٤ / ج ١

- (هـ) كتاب الحجة لأبي على الفارسي المتوفى ٣٧٧ هـ ^(١) .
 (و) كتاب الحلييات لأبي على الفارسي ^(٢) .
 (ز) كتاب التمام لابن جنى المتوفى ٣٩٢ هـ ^(٣) .
 (ح) كتاب المحتسب لابن جنى ^(٤) .
 (ط) كتاب الاقليد وهو كتاب فى اللغة الأدب لم نتعرف على مؤلفه ^(٥) .

- (ى) التبيين لأبي الفتح الهمداني ^(٦) .
 ونقل الزمخشري كذلك عن كثير منهم يونس واليساى ^(٧) ،
 والخليل ، — وأستاذ القراء — معاذ بن مسلم الهراء ^(٨) كما نقل عن
 الاصمعي ^(٩) ، وأبى على الفارسي وابن جنى والجوهري .

٢ — مصادر الادب :

- (أ) الحيوان للجاحظ ^(١٠) .
 (ب) كتب التاريخ — لا يأتى بأسمائها ^(١١) .

(١) تفسير الكشاف	٦٢ / ج ١
(٢) د د	٢٦٠ / ج ١
(٣) د د	٢٧٦ / ج ٢
(٤) د د	٢٩١ / ج ٢
(٥) د د	٣٠٥ / ج ٣
(٦) د د	١٣ / ج ٣
(٧) د د	٢٧٧ / ج ٢
(٨) د د	٢٨٨ — ٢٨٧ / ج ٢ ، ٤٨٠ / ج ١
(٩) د د	١٥ / ج ٣
(١٠) د د	٤٤٩ / ج ٢ ، ١٦٠ / ج ١
(١١) د د	٥١٣ / ج ٣

- (ج) ديوان الزمخشري^(١) .
 (د) نوابغ الكلم — لازمخشري^(٢) .
 (هـ) النصائح الصغار — لازمخشري^(٣) .
 (و) شافى العى من كلام الشافعى للزمخشري^(٤) .
 (ز) حساسة أبى تمام^(٥) .
 (ح) (استغفروا واستغفري) لأبى العلاء المعرى^(٦) .
 وينقل أيضا عن عبد الله بن المقفع^(٧) ، وابن المعتز^(٨) ، كما نقل عن
 أبى على الفارسي^(٩) والجوهري^(١٠) ، وابن جنى^(١١) .

٣ — مصادر الفقه والحديث:

- (أ) يشذ ويندر أن يذكّر الزمخشري فى تأليفه الكشف مصادر
 الحديث والسبب يرجع إلى أنه حامل لاجازة الرواية فكان ينقلها من غير
 سند استنادا على روايته ، وان أشار إلى سنن أبى داود^(١٢) .

(١)	تفسير الكشف	٢٦٠ / ج ١
(٢)	» »	٢٩٧ / ج ١
(٣)	» »	٣٦٨ / ج ١
(٤)	» »	٣٧٦ / ج ١
(٥)	» »	٤٣٠ / ج ٢
(٦)	» »	٤٦٦ / ج ١
(٧)	» »	٤٥٠ / ج ٢
(٨)	» »	٣١٤ / ج ٢
(٩)	» »	٣١٢ / ج ٢
(١٠)	» »	١٠ / ج ١
(١١)	» »	١٢٢ / ج ٢
(١٢)	» »	١٣٤ / ج ٢

(ب) وأما مصادر الفقه عنده غالبا فهم أبو حنيفة والشافعي ويسند الأقوال اليهم ونراه أيضا يسند الأقوال أحيانا إلى الفقهاء بقول مطلق^(١) .

٤ — مصادر القراءات :

(أ) يعتمد في قراءاته على استنباطاته حينئذ وعلى أقوال الصحابة والتابعين حينئذ آخر ويعتمد أيضا على المصاحف التالية : —

(ب) مصحف عبد الله بن مسعود^(٢) .

(ج) مصاحف أهل الحجاز والشام^(٣) .

(د) مصحف أبي بن كعب^(٤) .

وغيرها من القراءات والمصاحف كعاصم وناقم وعامر .

٥ — مصادر التفسير :

يرجع الزمخشري في تفسيره إلى مصادر عديدة مثل : —

(أ) تفسير (مجاهد) المتوفى سنة ١٠٤ أو ١٠٣ هـ^(٥) .

(ب) تفسير عمر بن عبید المعزلى المتوفى سنة ١٤٤ هـ^(٦) .

(ج) تفسير قتادة^(٧) .

(د) كتاب نظم القرآن للجاحظ^(٨) .

(هـ) تفسير أبي بكر الاصم المعزلى المتوفى سنة ٢٣٥ هـ^(٩)

(١) تفسير الكشف ٣٣٠ / ج ٢

(٢) د د ٢٧٨ / ج ٢

(٣) د د ٥٠ / ج ٢

(٤) د د ٢٩٥ / ج ٢

(٥) د د ١٩٣ ، ١٤٤ ، ٨٥ / ج ٣ — ٥٨٢ ، ٥٩١ ، ٢٨٤ / ج ٢

(٦) د د نشر اليه فيما بعد

(٧) د د ٤٢٢ ، ٤٢٣ / ج ٢

(٨) د د المقدمة

(٩) د د ٥٧ / ج ٢

- (و) تفسير (معاني القرآن) للزجاج المتوفى ٣١١ هـ^(١) .
 (ز) تفسير الرمانى — المتوفى سنة ٣٨٢ هـ^(٢) .
 (ح) تفسير التهذيب للحاكم أبى الحسن الجشى المعتزلى المتوفى ٤٩٤ هـ^(٣)
 (ى) تفاسير وأقوال الصحابة كابن عباس وعلى ابن أبى طالب
 والحسن البصرى وابن مسعود وغيرهم^(٤) .
 (ك) وهناك تفاسير أخرى للخوارج والمجبرة والرافضة والمعتزلة
 والحشوية^(٥) .

* * *

وهذه موازنة موجزة بين معانى القرآن للزجاج وبين الكشف
 للزمخشري :

١ — للزجاج (م ٣١١ هـ) تفسير اسمه « معانى القرآن » وهو فى أربعة
 أجزاء والموجود منه الجزء الرابع فقط وقد صوره معهد المخطوطات بالجامعة
 العربية، ويقع فى « ٢٠٩ » ورقة وهو عن نسخته بخط القرن السادس
 الهجرى وقد كتبت بخط جميل فى قطع متوسط . ويبتدىء هذا الجزء
 بتفسير سورة يس وينتهى بآخر سورة التين .

ويمتاز هذا التفسير بصبغته اللغوية الواضحة، وقد أفاد منه الزمخشري

(١) تفسير الكشف ٦، ١٣، ١٤، ٨٥، ٣٧، ٥٨٢، ٥٩١، ٢٨٤ / ٢٧

(٢) » » تقتنى دار الكتب المصرية جزءا من أجزاء هذا التفسير تحت رقم

(٢٧٦٢٧ ب) وينصب جهد المؤلف فى الدفاع عن المعتزلة وآرائهم

وتدليل اللغة لهذا الغرض .

(٣) » » م ٤٢٣ - ٤٢٢ / ٢٧

(٤) كشف م ٢١٠ - ٢٦٧ / ج ٢

(٥) » م ٢١٠، ١٤٦ / ج ٢

في الجانب اللغوى كثيرا ، وقد أشار اليه في مواضع مختلفة حيث يعتمد عليه في آرائه ويستدل به ولا خير في أن ننقل عنه بعض النصوص لنوازن بينها وبين آراء الزمخشري في الكشف . ومن ذلك نجد أن الخصائص اللغوية للمفسرين واحدة وأن الاتجاه فيهما متقارب ، وذلك مما يجعل الزمخشري انه قد نظر إلى معانى القرآن للزجاج وأفاد منه حين جمعه مصدرا من مصادره .

ويقول الزجاج في تفسير « معانى القرآن » في الآية « وجعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون » قرء في إيمانهم وقرء في أيديهم . والمعنى عند من قرء في أعناقهم ومن قرء في إيمانهم أو قرء في أيديهم — معنى واحد وذلك أن الغل لا يكون في العنق دون اليد ولا في اليد دون العنق ، والمعنى انا جعلنا في أعناقهم وفي إيمانهم أغلالا وقوله فهي إلى الأذقان . فهي كناية عن الأبدى لا عن العنق لأن الغل يجعل في اليد تلى الذقن والعنق .

قوله فهم مقمحون المقمح الرافع رأسه الغاض بصره وقيل للسكانونين شهر قماح لأن الابل إذا وردت الماء ترفع رؤوسها لشدة البرد فلذلك قيل لها شهر قماح وإنما ذكرت الأعناق ولم تذكر الأيدي إيجازا واختصارا لأن الغل يتضمن اليد والعنق ومن قرء في إيمانهم فهو أيضا يدل على العنق ومثل هذا قول الشاعر : — وهما المنقب العبدى :

وما أدري إذا يمت أرضا

أريد الخير أيهما بلىنى

أخبر الذى أنا أبتغيه

أم الشر الذى لا يأتلىنى

ولما ذكر الخير وحده ثم قال أيهما يأتي ، لأنه قد علم الانسان أن الخير والشر معرضان له لا يدري إذا ألم أرضاً أيلقاء خير أم شر ، ومثل هذا من كتاب الله تعالى « وجعل لكم سراويل تقيكم الحر » ولم يقل تقيكم البرد لأن ما تقي الحر تقي البرد^(١) .

والزمن مشرى حينما يفسر نفس الآية ينظر إلى تفسير الزجاج فيقول : « ثم » مثل تصميمهم على الكفر وأنه لا سبيل إلى أروعائهم بأن جعلهم كالغلولين المقمحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق . ولا يعطفون ولا أعناقهم نحوه يطأطئون رؤوسهم له وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون أقدامهم ولا ما خلفهم في أن لا تأمل ولا تبصر وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله .

فان قلت ما معنى قوله (فهي إلى الأذقان) ؟ قلت : معناه فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزومة إليهما وذلك أن طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادرا من الحلقة إلى الذقن فلا تخليه يطأطئ رأسه ويوطئ قذاله فلا يزال مقمحا . والمقمح الذي يرفع رأسه ويقض بصره يقال قمح البعير فهو قامح إذا روى فرفع رأسه ومنه شهر قامح لأن الأبل ترفع رؤوسها عن الماء لبرده فيها وهما السكانونان . ومنه اقحمت السويق . فان قلت : فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدى وزعم أن الغل لما كان جامعا لليد والعنق وبذلك يسمى جامعة كأن ذكر الأعناق دالا على ذكر الأيدى . قلت : الوجه ما ذكرت لك والدليل عليه قوله (فهم مقمحون) ألا ترى كيف جعل الأقامح نقيجة قوله : (إلى الأذقان) ولو كان الضمير للأيدى ، لم يكن معنى التسبب في

(١) معاني القرآن - للزجاج مخطوط الجامعة العربية .

الأقمار ظاهراً ، على أن هذا — الأضمار فيه ضرب من التعسف وترك الظاهر الذى بدعوه المعنى نفسه إلى الباطن الذى يجفوه عنه ترك للحق الابلج إلى الباطل اللجلج ، فان قلت : قرأ ابن عباس — رضى — فى أيديهم وإبن مسعود فى إيمانهم فهل يجوز على هاتين القراءتين أن تجعل الضمير للأيدي أو للإيمان : قلت : يأتى ذلك وأن ذهب الأضمار المتعسف ظهور كون الضمير للأغلال وسداد المعنى عليه كما ذكرت^(١).

٢ — يقول الزجاج مفسراً قوله تعالى : حتى توارت بالحجاب سورة (ص) ... يعنى الشمس ولم يجر لها ذكر وهذا لأحسبهم أعطوا الفكر فيه حقه لأن فى الآية دليلاً يدل على الشمس وهو قوله . (إذ عرض عليه بالعشى الصافنات) فى معنى إذ عرض عليه بعد زوال الشمس حتى توارت بالحجاب ولا يجوز الاضمار إلا أن يجرى ذكر ، ودليل الذكر بمنزلة الذكر . (سورة ص) .

والزمخشري نراه ينظر إلى قول الزجاج فيقول : « والتواري بالحجاب مجاز فى غروب الشمس عن توارى الملك أو الخبأة بحجابها . والذى دل على أن الضمير للشمس مرور ذكر (العشى) ولأن المضمّر من جرى ذكر أو دليل ذكر^(٢) ، ولا شك أن المدلول اللغوى واحد فى التفسيرين .

٣ — ويقول الزمخشري فى تفسير قوله (الصافنات) : الصافن الذى فى قوله :

ألف الصفون فما يزال كأنه

مما يقوم على الثلاث كسيراً

(١) تفسير الكشاف ٥٨٢ / ٢

(٢) تفسير الكشاف ج : ٣ / ١٤ .

وقيل الذى يقوم على طرفى سنبك يدا ورجل هو المتخيم والصابن
الذى يجمع بين يديه^(١).

وقد نظر إلى قول الزجاج حيث يقول فيها : « قال أهل اللغة وأهل
التفسير أيضا الصابن القائم الذى يثنى يديه أو أحدى رجليه معنى حتى يقف
على سنبيه مكم وهو طرف الحافر .

قال الشاعر :

ألف الصنفون فما يزال كأنه

مما يقوم على الثلاث كسيرا^(٢)

٤ — والزمخشري يطمئن قلبه إلى المعانى اللغوية فى تفسير الزجاج
إذ يقول الزجاج فى الآية (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى ،
والأشراق^(٣)) : الأشراق طلوع الشمس واضائتها يقال شرقت الشمس إذا
طلعت وأشرقت إذا اضاءت وقد قيل أن شرقت وأشرقت بمعنى واحد
والأول أكثر^(٤) .

فيعمد الزمخشري إلى هذا التفسير اللغوى فيقول : (ووقت الأشراق
هو حين تشرق الشمس أى تضيء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى وأما
شروقها فطلوعها ، يقال شرقت الشمس ولم تشرق^(٥) .

٥ — قال الزمخشري فى قراءة قوله تعالى « أفتر مكوها » : حكى

(١) تفسير الكشاف : ١٣ / ٣ .

(٢) معانى القرآن : سورة ص ورقة ٩ .

(٣) تفسير الكشاف : ١٨ / ص ج ٣ .

(٤) معانى القرآن : ورقة ١٩ .

(٥) تفسير الكشاف : ٦ / ٣ .

عن أبي عمر واسكان الميم ووجهه أن الحركة لم تكن إلا خلسة خفيفة فظنها الراوى سكونا والاسكان الصريح لحن عند الخليل وسيبويه وحذاق البصريين لأن الحركة الأعرابية لا يسوغ طرحها إلا في ضرور الشعر انتهى وأخذ الزمخشري هذا الكلام من الزجاج قال الزجاج أجمع النحويون البصريون على أنه لا يجوز اسكان حركة الأعراب إلا في ضرورة الشعر فأما ما روى عن أبي عمرو فلم يضبطه عنه القراء وروى عنه سيبويه أنه كان يخف الحركة ويختلسها وهذا هو الحق وإنما يجوز الإسكان في الشعر ثم يعلق أبو حيان على كلام الزمخشري بقوله « والزمخشري على عادته في تجهيل القراء وهم أجل من أن يلتبس عليهم الاختلاس بالسكون ، وقد أشار^(١) أبو حيان في تفسيره البحر المحيط إلى الموارد التي استفاد الزمخشري من الزجاج^(٢) .

ومن هذه النصوص المختلفة نعرف أن معانى القرآن للزجاج الذى أشار إليه الزمخشري في الكشف كان — من غير ريب — من أهم مصادره وأجل مراجعه وأن الزمخشري قد أفاد منه في الاتجاه اللغوى ، فى تفسيره الكشف كثيرا . ويتضح ذلك جليا من استقصاء التفسيرات التى كتبها هذان الامامان فى الآيات الواحدة .

* * *

وننتقل إلى ناحية أخرى فى البحث وهى الموازنة بين أراء الزمخشري والرماني^(٣) من تفسيريهما وأن كان تفسير الرماني مفقودا إلا أن الطوسى

(١) تفسير البحر المحيط — لأبى حيان — ج ٥ ص ٢١٧

(٢) نفس المصدر ج ٥ ص ٢٢٥

(٣) وانظر أيضا كتاب — النكت فى اعجاز القرآن — لرماني ص ٨١ ، ٨٢ والكشاف

ج ١/٢٧٣ حيث نجد أراء الرماني البلاغية منعكسة فى تفسير الكشاف .

يشير إليه كثيرا ، ف تفسير الطوسي ^(١) يمكن أن يكون حلقة اتصال بين
تفسير الزمخشري والرماني .

أما تفسير جزء عم المنسوبة منخطوطه إلى الرماني ، وهي محفوظة
بدار الكتب المصرية — قسم المكتبة التيمورية — ففي رأي أن هذه
المنخطوط ليست صحيحة النسبة إلى الرماني نفسه ، إذ أنها مكتوب عليها
بخط حديث : هذا تفسير الرماني ، ويرجح أن تكون هذه الكتابة الحديثة
بقلم المرحوم تيمور باشا .

وقد صور معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية قسما من تفسير
الرماني عن نسخة عثر عليها في المسجد الأقصى وكتب عليها بخط حديث
اسم علي بن عيسى الرماني ، أما خط هذه النسخة فجميل ومشكول وتاريخ
نسخها يرجع إلى القرن السادس الهجري وتقع في (١٥٠) ورقة من القطع
المقوسط وهي ناقصة من الأول والآخر ، وتحمل رقم (١٦ — ٤٩٠) ،
والأسف ليس في هذه الصورة تفسير جزء (عم) ، إذ تبعد هذه الصورة
بتفسير قوله تعالى من سورة إبراهيم : يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه
الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ . وتنتهي بتفسير
الآية ٣٥ من سورة الكهف وهو قوله تعالى : « ودخل الجنة وهو ظالم
لنفسه قال : ما أظن أن تبعد هذه أبدا » .

وهذه الصورة صحيحة النسبة إلى الرماني بمسكس تفسير جزء عم
المنسوب إليه ، وهناك دليل قاطع على أن تفسير « جزء عم » ليس للرماني
وهو أن تفسير هذا الجزء هو صورة طبق الأصل من تفسير الكشاف ، إذ

(١) هو أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المشهور بشيخ الطائفة عند الامامية (م

٤٦٠ هـ ١٠٦٨ م) له مؤلفات كثيرة ومنها تفسيره الكبير « التبيان » .

نرى أكثر العبارات منقولة بالحرف الواحد منه اللهم إلا في مواد قليلة ،
 فاذا سلمنا جدلاً بأن هذا التفسير حقاً هو تفسير الرمانى يكون معنى ذلك
 أن الأمام الزمخشري انتحل تفسير الرمانى ونسبه إلى نفسه ، وأعتقد
 أن هذا يقتضى مع ما نعرفه من الظروف التى كانت تحيط بالزمخشري من
 ناحية منافسيه ومخالفيه فى رأى . على أن نسبة هذا الجزء من التفسير
 للرمانى لا يعتمد على أى سند علمى مقطوع به ، ومجرد كتابة اسم الرمانى
 عليه ليس مبرراً ولا يجوزاً علمياً لهذا الانتساب ويبدو أن بعض الباحثين
 قد وقع فى هذا الخطأ وأخذ يقارن بين جزء عم هذا وبين تفسير السكشاف
 وأخذ يستنتج استنتاجات يعوزها الدليل ... نعم الشيء الوحيد الذى
 لا يمكننا أن نشك فيه هو أن الزمخشري أطلع وأستفاد كثيراً من تفسير
 الرمانى ولا سيما من الجوانب اللغوية .

ومن ذلك نخلص إلى نتيجة قطعية وهى أن تفسير « جزء عم » هذا
 ليس صحيح النسبة للرمانى . ويرجح أن بعض الناسخين قد نسخ صوراً
 لهذا الجزء من السكشاف ثم نقله إلى الرمانى ، على أن تفسير هذا الجزء
 يتسم بسمه معاداة الاعتزال ونحن نعرف أن الرمانى كان معتزلاً ، مما
 يستحيل معه نسبة إليه ولورجعنا إلى مصورة الجامعة العربية نعرفنا منها ،
 حين نجمل النظر فيها أن صبغة تفسير الرمانى هى صبغة اعتزالية واضحة فهو
 ينمى تفسيره لبعض الآيات ، ليحملها على الدلالة على تأييد أراء جماعة
 المعتزلة ، وفوق ذلك فهو يولى الجانب اللغوى فى تفسيره عناية كبيرة ،
 يقول الرمانى فى تفسير قوله تعالى : « ليجزى الله كل نفس ما كسبت ،
 أن الله سريع الحساب ، هذا بلاغ للناس لينذروا به وليعلموا إنما هو
 إله واحد ويمذكروا أولوا الألباب » مانصه : قد يقال ما الجزء ؟ الجواب

مقابلة العمل بما يقتضيه من خير أو شر فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر ثم يستطرد المفسر الرماني المعتزلى ، إلى الجانب الاعتزالى حيث يريد أن يتخذ من تفسير هذه الآيات حجة على مذهبه الاعتزالى ، فيقول : ويقال كم حجة فى الآية على مخالفى الحق الجواب : ثلاث حجج :

الأولى : حجة على المجبرة فى الارادة لأنها تدل على إرادته من جميع المكلّين أن يعلموا إنما هو إله واحد وهم « السنة » يزعمون أنه أراد من النصارى أن يثلثوا ومن الزنادقة أن يقولوا بالتنقية .
الثانية : حجة عليهم فى أن معصية الله لم يردّها .

الثالثة : حجة على أصحاب المعارف أنه قد أراد من يقذ كرون دلائل القرآن التى تدلهم على أنه واحد وقد تضمنت الاتيان ببيان عما يوجب الجزاء على الأعمال من الأخذ بالحزم وطلب الثقة فيما يعمل عليه من الفعل والاجتهاد فى طاعة الله جل وعز لأنها سبب النجاة من العقاب والفوز بالثواب^(١) .

ومن التفاسير الشيعية التى نهج الزمخشري على نهجها ومن المرجح أنه اطلم عليها تفسير (التبيان) لمحمد بن حسن الطوسى أحد أقطاب الأمامية الاثنى عشرية المتوفى (٤٦٠ هـ) ، وهذا^(٢) التفسير يحتوى على آراء اللغويين والمتكلمين والمفسرين وهو تفسير أدنى لغوى أكثر من أن يكون تفسيراً بالرواية ولا سيما أن المؤلف كان شيعياً والشيعة والمعتزلة يلتقيان فى كثير من الآراء الكلامية . ولا كمال البحث نقدم نماذج من « التبيان » لنوازن بينها وبين الكشف : لتتضح الصورة التى نريد بيانها ،

(١) راجع تفسير آية ٥١٠٥٠ من سورة إبراهيم من تفسير الرماني المصورة .

(٢) ج ٢ ص ٤١٨٩ ، ٢١ : الكشف .

والتي يتضح منها تقارب الآراء والأفكار بين : « التبيان » و « الكشف » : —

١ — يقول الطوسي في تفسير قوله تعالى^(١) : « وتلك نعمة بمنها على أن عبادت بنى إسرائيل » قيل في معناه قولان : أحدهما أن اتخاذ بنى إسرائيل عبدا قد أحبط ذلك وأن كانت نعمة على . الثاني أنك لما ظلمت بنى إسرائيل ولم تظلمني اعتدلت بها نعمة على وقيل قول ثالث : أنه لا يوثق بأنها نعمة منك مع ظلمك بنى إسرائيل في تعبيدهم وفي كل ذلك دلالة وحجة عليه وتقرير له ويجوز في أن النصب بمعنى تعبيدك بنى إسرائيل والرفع بالرد على النعمة أي وتلك نعمة على تعبيدك بنى إسرائيل وتركك إياي غير عبد والتعبيد اتخاذ الإنسان أو غيره عبدا تقول عبده وأعبده بمعنى واحد — قال الشاعر :

علام بعبدي قومي وقد كثرت

وفيهم أباعر ماشاءوا رعبدان

وقال الحسن : أراد ، أن أخذت أموال بنى إسرائيل واتخذتهم عبدا فانفقت على من أموالهم ، فأراد أن لا يسوغه ما أمتن به عليه^(٢) . فنرى الزمخشري في هذا المقام يذكر هذا بمعناه ويذكر الأقوال ويستشهد بالبيت ولكن بأسلوب مبسط ومنمق فيقول : كر على امتنائه بالتربيه فأبطله من أصله واستأصله من سنخه وأبى أن يسمى نعمته إلا نعمة . حيث بين أن حقيقة أنعامه عليه — تعبيد بنى إسرائيل لأن تعبيدهم وقصدتهم بذبح أبنائهم هو السبب في حصوله عنده وتربيته فكانه امتن عليه بتعبيد

(١) سورة الشعراء ، آية ٢٢ .

(٢) تفسير التبيان — للطوسي طبعة طهران ج ٢ ص ٣٦١ .

قومه وتعبيدهم تذليلهم واتخاذهم عبيدا يقال عبدت الرجل وأعبدته
إذا اتخذته عبدا ، قال الشاعر : -

علام يعبدنى قومى وقد كثرت

فيهم أباعر ماشاءوا وعبدان

فان قلت إذا : جواب وجزاء معا والكلام وقع جوابا لفرعون
فكيف وقع جزاء قلت : قول فرعون وفعلت فعلتك فيه معنى أنك
جازيت نعمتى بما فعلت فقال له موسى : نعم ، فعلتها مجازيا لك تسليمها
لقوله لأن نعمته كانت عنده جديره بأن تجازى بنحو ذلك الجزاء . فان
قلت تلك إشارة إلى ماذا وإن عبدت ما محلها من الأعراب قلت : تلك
أشارة أى خصلة شفاء مبهمة لا يدري ماهى إلا بتفسيرها ومحل إن عبدت
الرفع عطف بيان لتلك والمعنى تعبيدك بنى إسرائيل نعمة تمنها على .
وقال الزجاج : ويجوز أن يكون أن فى موضع نصب^(١) .

٢ — ويقول الطوسى كذلك فى تفسير قوله تعالى : « أنا رسول
رب العالمين » وإنما قال رسول على التوحيد وهو اللاتنين لأن المعنى كل
واحد منا رسول رب العالمين وقد يكون الرسول فى معنى الجمع قال
الهدلى :

ألكنى إليها وخير الرسول

لها أعلمهم بنواحي الخبر

أى وخير الرسل . وقيل : أنه فى موضع الرسالة فكما يقع المصدر
موضع الصفة كذلك تقع الصفة موضع المصدر الارسال جعل الشئ ماضيا
فى الأمر ومثله الأطلاق والبعث وأنشد فى ذلك يقول : -

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم

بسر ولا أرسلتهم برسول

أى رسالة^(١) ، والزمنشري يأتى بنفس الكلام بشيء من التغيير ،
ويمالج نفس المعالجة النحوية التى عالجها الطوسى ويسعدشهد بنفس البيت
الذى استشهد به صاحب التبيان ، ويقول : —

هلا ننى الرسول كما ننى فى قوله تعالى (أنا رسولا ربك) قلت :
الرسول يكون بمعنى الرسل وبمعنى الرسالة فجعل ثم بمعنى المرسل فلم يك بد من
تثنيه وجعل ههنا بمعنى الرسالة فجازت التسوية فيه إذا وصف به الواحد
والتثنية والجمع كما يفعل بالصفة بالمصادر نحو صوم وزور . قال :

الكنى إليها وخير الرسو

ل أعلمهم بنواحي الخبر^(٢)

٣ — ويقول الطوسى فى قوله تعالى : « فظلت أعناقهم لها خاضعين »
قيل المراد بالأعناق الرؤساء وقيل فى وجه جمع الأعناق بالياء والنون مع
أنها لاتعقل وهذا الجمع يختص بما يعقل وفيه أربعة أقوال : —
الأول : فظل أصحاب الأعناق لها خاضعين وحذف المضاف وأقام
المضاف إليه مقامه لدلالة الكلام عليه .

الثانى : أنه أراد بالأعناق الرؤساء والجماعات كما يقال جاء عنق من
الناس أى جماعة .

الثالث : أن يكون على الأفعام ، قال أبو عبيده والمبرد خاضعين
من صفة الهاء والميم فى قوله أعناقهم كما قال الشاعر جرير :

(١) تفسير التبيان للطوسى : ج ٢ ص ٣٦٠ .

(٢) تفسير الكشف : ج ٢ ص ٤٢٩ .

أرى مر السنين أخذن منى

كما أخذنا السرار من الهلال

فعلى هذا يكون ترك الأعناق وأخبر عنها الهاء والميم وتقديره فظلوا خاضعين لها .

الرابع : انها ذكرت بصيغة ما يعقل لما نسب اليها ما يكون من العقلاء قال الشاعر :

تمررتها والدك يدعو صاحبه

إذا ما بنو نعش دنوا فقصوبوا^(١)

وهذا هو نهج الزمخشري في هذا الصدد فيقول : فان قلت : كيف صح مجيء خاضعين خبرا عن الأعناق ؟ قلت أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فاقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع وترك الخضوع وترك الكلام على أصله كقوله « ذهب أهل اليمامة » كأن الأهل غير مذكور ، أو لما وصفت بالخضوع الذى هو للعقلاء قيل خاضعين ... وقيل أعناق الناس : رؤساؤهم ومقدمهم شبهوا بالأعناق كما قيل لهم هم الرؤوس والنواصي والصدور وقال : في محفل من نواحي الناس مشهود وقيل جماعات الناس يقال جاءنا عنق من الناس لفوج منهم .

٤ — ويصرح الطوسى في ديباجة تفسيره « التبيان » في ذكر علل قيامه بهذا التصنيف بقوله : فان الذى حملنى على الشرع فى عمل هذا الكتاب انى لم أجد أحدا من أصحابنا قديما وحديثا من عمل كتابا يحتوى على تفسير جميع القرآن ويشتمل على فنون معانيه ، وإنما سلك جماعة منهم فى جمع ما رواه ونقله وانتهى اليه فى الكتب المزوية فى الحديث . ولم يتعرض

أحد منهم لاستيفاء ذلك وتفسير ما يحتاج إليه . فوجدت من شرع في تفسير القرآن من علماء الأمة بين مطيل في جميع معانيه واستيعاب ما قيل فيه من فنونه كالطبري وغيره . . . وبين مقصر اقتصر على ذكر غريبه ومعاني ألفاظه وسلك الباقون المتوسطون في ذلك مسالك وتركوا ما لا معرفة لهم به فان الزجاج والفراء وما أشبههما من النحويين أفرغوا وسعهم فيما يتعلق بالاعراب والتصريف ومفضل بن سلمة وغيره استكثروا من علم اللغة واشتقاق الألفاظ والمتكلمون كأي على الجبائي وغيره صرفوا همتهم إلى ما يتعلق بالمعاني الكلامية ، ومنهم من أضاف إلى ذلك الكلام في فنون علمه فادخل ما لا يليق به من بسط فروع الفقه واختلاف الفقهاء كالبلخي وغيره ، وأصلح من سلك في ذلك مسلكا جميلا مقتصدا محمد بن بحر أبو مسلم الأصفهاني وعلي بن عيسى الرمانى فان كتابيهما أصلح ما صنف في هذا المعنى غير أنهما أطالا الخطب فيه وأوردا كثيرا مما لا يحتاج إليه .

ولا شك أن الطوسي اقتبس كثيرا من الرمانى ورجع إلى كتاب شرح المحصول لشمس الدين محمد بن محمود الأصفهاني واتخذ تفسيرهما مرجعا له ونظرا لما بين تفسير الكشاف وتفسير القبيان والققارب الكثير بينهما في المضامين والآراء فصل إلى نتيجة مهمة ، وهى أن الزمخشري إما أن يكون قد استقى تفسيره مباشرة من تفسير الطوسي اعتمادا على نقله من التفسيرات التي رجع إليها وإما أن يكون قد رجع إلى المصادر الموجودة في تفسير الطوسي .

ولو فرضنا جدلا أن الزمخشري لم يطلع على تفسير الطوسي ولم يتأثر به ، لكان ذلك مؤديا بنا إلى القول بأن كلا من التفسيرين تفسير الطوسي

وتفسير الزمخشري قد استفاد شيئاً كثيراً من تفسير الرمانى والأصفهاني، حيث يكون كل من هذين التفسيرين أصلاً من أصول الكشف وان لم يشر إليهما الزمخشري .

- ٥ -

هذا ومن البديهي أن الفاحية الاعترالية في الكشف، وهى الواضحة كل الوضوح كما أسلفنا - كانت مقصودة للإمام الزمخشري كل المقصد، وكان هو معنياً بها كل العناية ذلك أن الكشف كان من أهم التفسيرات التى كتبت على ضوء آراء الفرق الدينية ، والتى استخدم فيها العقل أساساً مقبلاً فى دراسة القرآن الكريم . وقد انتصر الزمخشري فى تفسيره لعقيدته الاعترالية انتصاراً كبيراً .

ونحن نعلم أن القرآن الحكيم هو المصدر الاول للثقافة الدينية، ومرجعها الأصيل ، فعليه لم يكن من الغريب أن تقوم حوله دراسات عميقة ودقيقة وهو خير ما يمثل تطور الفكر الإسلامى فى جميع مراحلها وفروعها المختلفة . وليس القرآن دستورا الهيئياً فحسب ، بل ان دراسة القرآن هى التى تفصح عن الفكر الدينى والفكر اللغوى والأدبى والقارىخى والأفكار الاجتماعية والفلسفية والرياضية فى حياة المسلمين فى كل زمان وكل مكان ، والبحوث التى تحوم حول القرآن وتدور فى فلكه فتحت أمامنا أبواباً شاسعة فى ميدان الثقافة الإسلامية بمختلف نواحيها من حيث أن القرآن هو مدار لتلك الثقافات التى تسير حوله .

ومن الطبيعى أن هذه الدراسات لم تتوقف لأن القرآن ما زال هو السراج المنير الذى يضىء الطريق لكل سالك وحائر، ومنذ العصر النبوى والمسلمون الأولون يحاولون فهم القرآن للإفادة منه فى التوجيه الروحى

والاجتماعى ، ومن ثم أخذوا يعمقون فيه ويفسرونه من شتى جوانبه المختلفة فى أبسط صوره ، هو شرح كلام الله ، أو بعبارة أخرى هو الفن الذى يبين لنا مداولات ومفاهيم ألفاظ القرآن من حيثياته المختلفة ، وكان الذين يقومون بهذا العمل فى صدر الاسلام هم الرسول صلوات الله عليه والصحابه من بعده ، ثم بعض التابعين ، فكانوا يفسرون ما أشكل من القرآن ، وما صعب فهمه على الناس منذ القرن الثانى للهجرة ومع هذا كان البعض فى صدر الاسلام يتخرج من هذا التفسير وينظر إلى هذا العمل بعين الارتياح ، وكانوا يرونه بدعة لم تكن فى عهد الرسول (صلعم) ، وليس فى حقيقة الأمر إلا شهادة على الله بأنه غنى بهذه الآية كذا وتلك الآية كذا ، وقد كانوا لورعهم وتمسكهم الدينى العميق يتحرجون ويحتاطون من هذه الشهادة التى ربما تكون تفسيراً لا يصل إلى كنه المقصود القرآنى وحقيقته ، ولم يكن أساس هذا الشعور عبثاً ، بل كان مستنداً إلى أقوال النبى وعمل الصحابة وقد ورث أحاديث ومأثورات غير قليلة فيها نهى عن التفسير بالرأى .

وكان شقيق بن سلمة من هؤلاء المتحرجين^(١) ، وكان أحمد بن حنبل يتعاشى من التفسير ويقول : « ثلاثة أشياء لا أصل لها : التفسير ، والملاحم ، والمغازى »^(٢) ، ولا شك أنه رضى الله عنه لم يكن يقطد ترك التفسير مطلقاً بل يريد ترك القول بالرأى فى التفسير ، ويقول الامام الطوسى فى مقدمة تفسيره « التبيين » : « واعلم أن الرواية ظاهرة فى أخبار أصحابنا

(١) طبقات بن سعد ٥ / ١٤٨ - ١٣٩ - ٦٨ / ٦

(٢) ياقوت ج ٣ / ٢٢ - مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ١٤ ط ، دمشق -

عن منهج التفسير - لامين الحولى

بأن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالأثر الصحيح عن النبي (صلعم) وعن الأئمة الذين قولهم حجة كقول النبي (صلعم) « وأن القول فيه بالرأى لا يجوز وروى العامة ذلك عن النبي (صلعم) قال : « من فسر القرآن برأيه وأصاب فقد أخطأ » فذكره جماعة من التابعين وفقهاء المدينة القول في القرآن بالرأى كسعيد بن المسيب وعبيدة السلماني ونافع . ومحمد بن القاسم وسالم بن عبد الله ، ولهذا كان جلة المسلمين يكثفون بالمأثور عن النبي وعن المعاصرين له من الصحابة ويسمى هذا النوع من التفسير « التفسير بالمأثور » أو « بالرواية » وكان رجال الحديث وأئمتهم هم أصحاب الشأن الأول في هذا المقام ذلك لأنهم روايتهم لكل ما صدر عن النبي من قول وفعل قد رووا فيما رووا أقواله في القرآن أيضا وهذا هو السبب الذي من أجله نجد في كتاب من أهم كتب الحديث وهو صحيح البخاري بابين في الدراسات القرآنية هما : كتاب تفسير القرآن ، وكتاب فضائل القرآن ، ووجود مثل هذه الأبواب أو الكتب في كتب الحديث هو الذي دفع المستشرقين وبعض مؤرخي التفسير إلى القول بأن التفسير نشأ أولا على أنه فرع من الحديث .

ويلاحظ أن الذي روى عن النبي من التفسير قليل ولكن كان هناك جماعة من الصحابة يفسرون بعض الآيات القرآنية حسب فهمهم الذي استوحوه واقتبسوه من نور النبوة وبأفكارهم النقية الصافية أمثال علي ابن أبي طالب ، وعبد الله بن عباس وابن مسعود ، وأبي بن كعب ثم التابعين الذين رووا كل ما ذكر هؤلاء وأضافوا إليه ما اجتهدوا هم في التفسير ، ثم تلقتهم طبقة أخرى فعلت فعلهم وهكذا .

وبمرور الزمن تضحى هذا التراث أو التفسير المأثور وأخذ يختلط به

عن غير قصد ، داخل البيئة الإسلامية من أقاصيص دينية وروايات لم تظهر مغزاها في صدر الإسلام ، وهي التي سميت فيما بعد بالإسرائيليات التي حارب وجودها في التفسير المفكرون والعلماء في مختلف العصور .

وكانت الخطوة التالية هي ترتيب هذه الروايات من التفسير بالمأثور ومن ثم أخذ علماء الاسلام يجمعون تلك الروايات المبعثرة من هنا وهناك ويجمعونها حسب ترتيب الآيات القرآنية في المصحف وأصبحت هناك كتب تفسير القرآن بأجمعه وفق المأثور ، ومنها التفسير المشهور (جامع البيان في تفسير القرآن) للطبري ، وكتاب (الدر المنثور في التفسير المأثور) للسيوطي ، وقد اتهم بعض رجال التفسير بالمأثور بالأختلاق يقول الطوسي . « ومن المفسرين من حدث طرائقه ومدحت مذاهبه كابن عباس والحسن وقتاده ومجاهد وغيرهم ، ومنهم من ذمت مذاهبه كأبي صالح والسدي والكلبي وغيرهم »^(١) .

وقد اتهم مقاتل كذلك بالكذب ويقولون أنه يروى عن مجاهد ولم يسمع من مجاهد شيئا ويروى عن الضحاك ولم يسمع منه شيئا وكان يأخذ عن اليهود علم الكتاب^(٢) .

وعلى ضوء التفسير بالرأى جاء علماء يفسرون القرآن ليخدموا به عقائدهم الخاصة ومشاربهم الشخصية ، فهناك مفسرون كانوا يفسرونه لينقصوا لعقائدهم الاعترالية ، وآخرون يفسرونه لينتصروا لأذواقهم ، وفرق أخرى كانت تفسره على ضوء التطور العقلي للمسلمين وقد اتسع من

(١) مقدمة تفسير التبيان للطوسي .

(٢) الاتقان - السيوطي - ج ٢ ص : ٣٢٤ ، التذهيب ص ٢٠٦ ، التفسير معالم حياته منهجه اليوم - لابن الخولي .

هذه الأنواع من التفاسير التفسير العقلي الذي كان يعتمد فيه المفسر على منطقة الفكرى وثقافته الأدبية واللغوية كالزخشرى وأضرابه .

ومن البدهى أنه عندما يستعين المفسر فى تفسيره بالثقافات التى حذقها والعلوم التى تعمق فيها ، أن يتأثر تفسيره بتلك الثقافات وبذلك العلوم التى يستعين بها المفسر على فهم النص وبيان معانيه ، ومن هنا نجد تفاسير مختلفة ترضى كل ذوق وكل ذى ثقافة فالنحويون واللغويون صنفوا كتباً فى التفسير وفق مشاربهم وأذواقهم وعنوا بها ، وكذلك الفقهاء قد ألفوا تفاسير عنوا فيها بآيات الأحكام والمتكلم كان يفسر القرآن بما يتفق ومذهبه فى العدل والتوحيد وصفات الله والجبر والتفويض ، وهكذا فعل الفلاسفة ، فقد وقعوا فيما وقع فيه المتكلمون من المفسرين وسلكوا مسلكهم فى تأويل الآيات والعجيب أن كل هؤلاء كان يجد حجج مذهبهم فى القرآن وهكذا المتصوفة فقد رأوا فى القرآن أفكارهم واتخذوه ذريعة قوية لأحقية مذاهبهم وعقائدهم .

ومن ثم نجد أن الخوارج مثلاً لم يصعب عليهم أن يجدوا آيات من القرآن يستندون إليها فى خصومتهم لعلى بن أبى طالب وتصويب قتلهم على يدى ابن ملجم فقالوا إن قوله تعالى : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو الد الخصام » نزلت فى حق على ابن أبى طالب وقوله تعالى : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاتى » نزلت عندهم فى ابن ملجم ^(١) وكذلك صنع الشيعة فى التفسير فلم يفتهم تأويل الآيات فى أحقية على للخلافة ، واستدلوا بآيات كثيرة ، منها

(١) راجع : هامش : مذاهب التفسير الإسلامى — بلولد تسهر — ترجمة الدكتور عبد العظيم النجار ص ٢٨٨ .

قوله تعالى : « فاذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب » قالوا المراد : فانصب عليها للخلافة وقوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما نزل إليك من ربك فان لم تفعل فما بلغت رسالته : » قالوا المراد من الابلاغ هنا نصب على الخلافة وقالوا أن « الشجرة الملعونة » هي شجرة بنى أمية ، وقالوا المراد من قوله تعالى : « سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » أى ظلموا آل محمد وأمثال هذه التأويلات زراها فى كتبهم أمثال تفسير الرضا المنسوب إلى الإمام الثامن للشيعة وتفسير التبيان للشيخ الطوسى « وتفسير الطوسى » ، لفيض الكاشانى « وتفسير القمى » وغيرها من التفاسير .

وقد جاء تفسير الطبرى حاويا لكثير من فنون اللغة والأدب ، ونجد تفسير الرازى فيه المعقول والمنقول والفلسفة والكلام والمثل والنحل وما إلى ذلك ، ولم تكن هذه الثقافات إلا تمهيدا عن مستوى فهمهم وتذوقهم ابلاغه القرآن ، ومهما كان فقد كانت آثار شخصيات المفسرين واضحة فى تفسيرهم فى كل عهد وعصر ، وقد كان الناس مضطرين إلى هذا النوع من التفسير بسبب تطور البيئة والظروف الزمنية والمكانية لأنهم كانوا فى حاجة ماسة إلى فهم القرآن فهما لا يخالف ما أنزل الله ويوافق الظروف والأحوال التى يعيش فيها المسلمون ويقال أن أول من فُتح باب التفسير على الناحية الأدبية واللغوية هو ابن عباس^(١) ، فعندما رأى أن فى القرآن بعض لغات يصعب فهمها ، أخذ يرجع فى تفسيرها إلى الشعراء القدماء الذين كان يأخذ بأقوالهم فى التفسير اللغوى وكانت أقوالهم حجة فى ذلك ، وبهذا المبدأ فتح بابا واسعا وغزير الفائدة فى التفسير .

(١) تفسير المذاهب الاسلامية « جولد تسيهر » ترجمة الدكتور نجار ص ٨٩

هذا وتفسير الكشاف منزلة كبيرة بين ما ألف في تفسير القرآن الكريم ، ذلك أن العلماء المسلمين قد اهتموا في كل عصر بتفسير كتاب الله وشرحه والسكلام على كل ما يتعلق بعلوم القرآن ، ومن طبقات المفسرين :

١ — طبقة الصحابة :

على بن أبي طالب ، زيد بن ثابت (م ٤٥ هـ) وابن عباس ، (م ٦٨ هـ) وابن مسعود (م ٤٤ هـ) .

٢ — طبقة التابعين :

أمثال مجاهد (م ١٠٣ هـ) ، وعكرمة (م ١٠٥ هـ) ، وطاوس (م ١٠٦ هـ) ، عطاء بن أبي رباح (م ١١٤ هـ) ، سعيد بن جبير (م ٩٤ هـ) ، السفي م ١٠٥ هـ إبراهيم النخعي (م ٩٥ هـ) وسواهم .

٣ — المتأخرون :

مثل : الحسن البصري (م ١١٠ هـ) وقتادة (م ١١٧ هـ) ، ومالك بن أنس (م ١٥٠ هـ) .

٤ — الطبقة الرابعة ههـ :

الطبري (م ٣١٠ هـ) ، الرازي (م ٦٠٦ هـ) ، والخازن (م ٧٤١ هـ) والبيضاوي (م ٦٩٣ هـ) القرطبي (٦٧١) ، والجلالين : الحلي والسيوطي والجل ، وابن كثير الدمشقي (م ٧٧٤ هـ) والنيسابوري (م ٤٦٨ هـ) وأبو حيان الأندلسي (م ٧٤٥ هـ) والخطيب الشريفي (م ٩٨٠ هـ) والشهاب الخفاجي (م ١٠٦٩ هـ) ومحمد رشيد رضا ومحمد فريد وجدي والراغب وسواهم من المفسرين .

وقد عنى العلماء والباحثون قديما وحديثا بكشاف الزمخشري عناية كبيرة ، فألفوا في شرحه والتعليق عليه ، وتحليل شواهد ، وفي الانتصار لمنهجه الاعتزالي ، أو الرد على آرائه الاعتزالية ، أو الرد على آرائه الاعتزالية فيه كتباً كثيرة ، ومن أهم ذلك :

١ — علي الطوسي (م ٥٦١ هـ) اختصر الكشاف وسماه جوامع الجوامع .

٢ — الشيخ محمد بن علي الانصاري (م ٦٦٢ هـ) حذف موارد الاعتزال .

٣ — ناصر الدين البيضاوي (م ٦٩٢ هـ) .

٤ — أحمد بن منير الاسكندراني (م ٦٨٣ هـ) سماه الانتصاف ، وهرب الزمخشري من الناحية الاعتزالية .

٥ — علم الدين العراقي (م ٧٠٤ هـ) سماه الانصاف ، تلخصه الأمام بدر الدين محمد المقرئ المعروف بالقاذفي (م ٧٠٥ هـ) .

٦ — قطب الدين الشيرازي (م ٧١٠ هـ) كتب حاشية الكشاف .

٧ — أبو علي عمر السكوني (م ٧١٧ هـ) ، المفسر العماد ، الكفندي النحوي (م ٧٧٠ هـ) ، نظام الدين النيسابوري .

٨ — حاشية شرف الدين الطيبي (م ٧٤٣ هـ) في ست مجلدات .

٩ — أبو حيان الأندلسي (م ٧٤٥ هـ) يتعقب الزمخشري في تفسيره المحيط .

١٠ — حاشية عمر الفارسي القزويني (م ٧٤٥ هـ) .

١١ — أحمد الجاربردي (م ٧٤٦ هـ) .

- ١٢ — نلصه الشلخ تاج الدين أأمد بن مكقوم (٥٧٤٩) .
- ١٣ — الفاضل اللمنى (م ٥٧٥٠) .
- ١٤ — جمال الدين عبد الله (م ٥٧٦٢) ، نلصه أبو الفضل بن حجر
- (م ٥٧٦٢) ، عبد الله الزلعلل اللنى (م ٧٦٢) .
- ١٥ — حاشلة قطب الدين اللللى الرالى (م ٥٧٦٦) .
- ١٦ — حاشلة علاء الدين المعلوم ببهلوان .
- ١٧ — حاشلة أكل الدين البارلى (م ٥٧٨٦) .
- ١٨ — حاشلة سعد الدين اللللزالى (م ٥٧٩٢) .
- ١٩ — حاشلة الشلخ يوسف اللبرلى (م ٥٨٠٤) .
- ٢٠ — حاشلة شلخ الاسلام + سراح الدين اللللى (م ٥٨٠٥) .
- ٢١ — حاشلة السلء شرف اللرلانى (م ٥٨١٦) .
- ٢٢ — شرح خطبة الللللل للفلروزابادى (م ٥٨١٧) .
- ٢٣ — حاشلة الشلخ ولى الدين أبو زرعه العراقى (م ٥٨٢٠) .
- ٢٤ — على المولى برهان الدين حمدر المروى (م ٥٨٣٠) .
- ٢٥ — حاشلة علاء الدين القوشلى (م ٥٨٧٩) .
- ٢٦ — حاشلة علاء الدين الطوسى (م ٥٨٨٧) .
- ٢٧ — حاشلة أأمد بن إسماعل الللورى (م ٥٨٩٣) .
- ٢٨ — حاشلة محى الدين الللللب (م ٥٩٠١) .
- ٢٩ — حاشلة شلخ الاسلام الهرولى المعلوم بالللل (م ٥٩٠٦) .
- ٣٠ — تعللقات شمس الدين - ابن كل باشا (م ٥٩٤٠) .
- ٣١ — تعللقات زلر الدين المطوفى (م ٥٩٤٨) .
- ٣٢ — نلصه عبد الأول الشهلر بأم ولد (م ٥٩٥٠) .

- ٣٣ - حاشية المامولى المهدي الشيرازي (م ٩٥٦ هـ) .
٣٤ - حاشية أبو السعود العماري (م ٩٠٢ هـ) .
٣٥ - تعليقات صنع الله المفتي (م ١٠٢١ هـ) .
٣٦ - حاشية حامد بن مصطفى القاضي (م ١٠٩٨ هـ) .
وسوى هؤلاء من العلماء والمفسرين الذين اهتموا بتفسير الكشف
من نواحيه المتعددة فمنهم الناقد والشارح ومنهم من أثنى عليه^(١) .
وقد أثنى العلماء في مختلف العصور على الكشف ثناء كبيرا وقده
فيه بعضهم - وأغلب الظن أن ذلك الباعث عليه صبغة الكشف الاعترافية -
قدحا كثيرا ، ومن جملة الآراء التي قيلت ما يلي :
- نقد شاعر من شعراء أهل السنة تفسير الزمخشري الكشف نقدا
لاذعا ، فقال :

عجبا لخبر في البلاغة ذائق
علم الفصاحة فردّه ومؤلفه
جمع المعاني والبيان مكشفا
أسرار قرآن بأكل معرفة
وأضله الله العظيم فزاع عن
سفن الصواب وحاد عنه وحرّفه^(٢)

(١) راجع : فهرس دار الكتب المصرية ج ١ كشف الظنون - حاجي خليفة معجم

سركيس ،

(٢) أزهار الرياض - للقاضي عياض - ج ٣ : ص ٢٩١ والأبيات لأبي زكريا يحيى

بن منصور التونسي .

ويقال شاعر آخر :

ولكنه فيه مجال لناقد

وزلات سوء قد أخذن المخافتا

فيثبت موضوع الحديث تمصبا

لمذهب سوء فيه أصبح مارقا

ويشتم أعلام الأئمة ضلة

ولاسيا أن أولجوه المضايقا^(١)

وقد حل ابن تيمية (م ٧٢٨ هـ) حلة شديدة بسبب اعتزالياته التي أسماها بدعا^(٢) .

ويقول الامام تاج الدين السبكي (م ٧٧١ هـ) منوها بالكشاف ثم ناقدا له بسبب اعتزاله وابتداعه ، حيث يقول : الكشاف كتاب عظيم في بابه ومصنفه أمام في فنه إلا أنه رجل مبتدع تجاهر ببدعته بضع من قدر النبوة كثيرا ويسئ أدبه على أهل السنة والجماعة والواجب كشط ما في الكشاف من ذلك كله ، ثم يستطرد في ذلك فيقول : اجمع الموافق والمخالف على أنه بحر من البحار مقولا معقولا في حق هذا — الكتاب الذي اتخذت الأعاجم دراسته في هذا الزمان ديدنها والقول عندما فيه أنه لا ينبغي أن يسمح بالنظر فيه إلا لمن صار على منهاج السنة لا تزحزحه شبهات القدريية^(٣) .

(١) كشف الظنون من ١٤٨٢ ج ١ . أزهار الرياض — للقاضي عياض — ج ٣ :

ص ٢٩١ .

(٢) راجع ص ٢٢ من كتاب مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية .

(٣) مبيد النعم ومبيد النعم — للسبكي — ص ١١٤ ، ١١٥ ط ليدن .

ويقول القمى (م بعد ٨٠٠ هـ) في تفسيره المسمى (تفسير النيسابورى) ^(١)،
مبيناً تأثيره بالكشاف وأخذه عنه : كتابى هذا جامع لأكثر التفاسير
وجل كتاب الكشاف، أما الأحاديث - أى الواردة في تفسير النيسابورى -
فأما من الكتب المعتبرة وأما من الكشاف ، والكبير إلا من الأحاديث
الموردة في الكشاف في فضائل السور فأننا قد أسقطناها لأن النقاد زيفوها
إلا ما شذ منها ، ثم يبين أخذه عن الكشاف في القراءات وغيرها .

ويقول ابن خلدون (م ٨٠٨ هـ) منها بالكشاف ^(٢) : أن من أحسن
ما اشتمل عليه هذا الفن ^(٣) من التفاسير ، كتاب الكشاف للزمخشري
ثم يشير ابن خلدون إلى الجانب الاعتزالي فيه ، وإن مطالعته للعلماء
والراسخين مأمونة العاقبة وضرورة لقرابة فنونه في اللسان ^(٤) .

ويقول كذلك ابن خلدون عنه ، أن جار الله الزمخشري وضع كتابه
في التفسير وتبعم آى القرآن بأحكام هذا الفن ^(٥) بما يبدي البعض من
اعجازه فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير لولا أنه يؤيد عقائد أهل
البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة . ولأجل هذا يقتحامه كثير
من أهل السنة ... الخ ^(٦) .

وللشيخ حيدر (م ٨٣٠ هـ) وهو من تلاميذ سعد الدين القفقالزاني ،

(١) راجع مقدمة هذا التفسير من ٤ إلى - ٦ ج / ١ مطبوع على هامش تفسير الطبرى

(٢) المقدمة ٣٨٢ إلى ٣٨٤ ط البهية القاهرة

(٣) يريد - بهذا الفن - ما يرجع إلى اللسان في معرفة اللفظة والاعراب والبلاغة في

تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب

(٤) المقدمة ص ٥٠٨ ، تاريخ ابن خلكان : ج ١ ص ٤٨٦ ط بولاق

(٥) راجع - حاجى خليفة - كشف الظنون ص ١٤٨٢ وما بعدها

(٦) الاطلاق - ج ٢ ص : ١٩١

حاشية على الكشف ، وقد نوه بالكشاف وأثنى عليه وإن قدح في جانبه الاعترالى (١) .

ويقول السيوطى (م ٩١١ هـ) فى الاتقان (٢) : نقلا عن حاشية « نواهد الابكار على تفسير البيضاوى » منوها بالكشاف ومستشهدا برأى الامام « البلقينى » (م ٨٦٠ هـ) ومعقبا عليه قائلا : « قصد الزمخشري بما أبان الاشارة إلى براعته فى علم المعانى والبيان وكيف يترجح فنان جمعهما أوزاق يسيرة قد وضعا بعض الصحابة والقابعين وما على الناس من اصطلاح أتى به عبد القاهر واقتفاه السكاكى ولا يقوم لهما فى كثير من المقامات دليل ، وقد عقب السيوطى على ذلك بقوله « لم يتوارد البلقينى والزمخشري على محل واحد وليس الزمخشري عن الأحاديث بحاح واحد وإنما مقصوده ان القدر الزائد على التفسير من استخراج محاسن الفقر واطرائف المعانى التى تستعمل فيها الفكر وبيان ما فى القرآن من الأساليب لا يتمها إلا لمن برع فى هذين العلمين لأن كل نوع أصولا وقواعد لا يدرك فن بقواعد فن آخر والفقهاء والمتكلم بمعزل عن أمرار البلاغة وكذا النحوى واللغوى الخ ...

ولمعين الدين الايجى الصفوى (م ٩٠٥ هـ) نقد لتفسير الكشف ذكره فى كتابه « جوامع التبيان فى التفسير » حيث عابه لا يثار جانب الرأى على جانب الرواية يقول : وكثيرا تجد الزمخشري ومن يحذو حذوه أعرضوا عن المعنى المنقول عن الرسول والصحابة لعدم فهم مناسبة لفظية أو معنوية وإن نقلوها بآخر الأمر بصيغة التمرىض (٣)

(١) راجع — حاجى خليفة — كشف الظنون ص ٤٨٢ وما بعدها

(٢) الاتقان — ج ٢ ص : ١٩١

(٣) معجم سر كيس ج ١ ص : ٥٠٠ ، ٥٠١

الجانِب الاعترَافى فى الكشاف :

تَهْمِيد : — هذا ونحن نعلم أن منهج المعتزلة يستند إلى تحكيم العقل من غير مَساس بأصول العقيدة ، وهو منهج اسلامى فى البحث والتجربة والاستدلال العقلى والشك والقياس . واقد كان المعتزلة أثر كبير فى القياس اللغوى ، كما يظهر ذلك من قولهم : اللغة اصطلاحية من وضع البشر لا توقيفية ، وكما يظهر أيضا من تحرر الجاحظ وأمثاله من المعتزلة كالفرأء وأبى على الفارسى والرمانى وابن جنى وغيرهم فى تشقيقهم الكلام واستعمالهم للموالد من الألفاظ ، بله الأعجبنى ، وكما يستظهر لنا من تتبع آراء الزخشرى وبحوثه اللغوية الطريفة التى حققها فى كتبه ، وتفرقة بين دلالة الألفاظ عن طريق الحقيقة ودلالاتها عن طريق الحجاز .

وعندما نحيل النظر فى الكشاف ، نرى كيف يتناول الموضوعات اللغوية فى مهارة وصبر ، مع العمق ودقة تناول والتدليل حتى استطاع أن يستنبط أصول الحجاز والحقيقة والاستعارة والتشبيه ، فى معرض تدليل البیان لتأييد رأيه ومذهبه الكلامى المعتزلى ، ولكى تلقى ضوءا على هذه الفاحية لأبد لنا من أن نلم الماهة سريعا بعقائد المعتزلة حتى يمكننا أن نرى كيف كان يطوع اللغة ويعبدها لابتكار أسلوب فيه راعة أخاذة وبساطة مطمئنة ، وبلاغة طيبة .

أصول عقائد المعتزلة :

تلتقى المعتزلة جميعا مهما تفرقت بهم سبل الاعتقاد عند خمسة أصول التوحيد ، العدل ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، المنزلة على المنزلتين الوعد والوعيد .

يقول الشيخ الخياط أحد أئمة المعتزلة : « ليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة : التوحيد، العدل الوعد والوعيد، المنزلة بين المنزلتين — الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإذا أكلت هذه الخصال فهو معتزلي ^(١) والمعتزلة عقائد فرعية كمسألة خلق القرآن وغيرها مما ذكرناه سابقا .

منهج الزمخشري في دعم أصول الاعتزال في تفسيره :

يحترم المعتزلة العقل احتراماً كبيراً ، فهي تخضع لحكمه ، وتدعن لسلطانه وتعتمد عليه ، في مجال البحث والاستنباط وترتكز على الحجج المنطقية والبرهان العقلي ، في كل مشكلة وعند كل خصومة . انهم يتحررون من النصوص الجامدة ما دام في ذلك مرضاة للعقل . ومن ثم فقد سلكوا طريق التأويل في تفسير الآيات المتشابهة من القرآن الكريم ، وكل ما يخالف عقائدهم من النص القرآني ، يحاولون أن يرجعوه إلى تأويل يتفق ومشر بهم وعقيدتهم الاعتزالية ، لقد طبقوا القرآن على عقائدهم بدلا من أن يطبقوا عقائدهم على القرآن .

ومن ثم تحرروا من أغلال الألفاظ واستعملوا العقل مصدرا للثقة-أفة الدينية وميزانا توزن به حقائق الدين . والطريقة الأساسية في أداء هذه المهمة هو سلوك منهج لغوي دقيق ينطبق على التوسع في اللغة بشتى معانيها واشتقاقاتها .

ومن أمثلة اعتزاز الزمخشري بالعقل قوله في تفسير الآية : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » : بعثة الرسل من جملة التنبية على النظر

(١) الاقتصاد - للرد على ابن الراوندى - للخياط ص ١٢٦ المعتزلة ليحيى بن أحمد المرتضى ص ٦ وأظهر ظهر الاسلام ج ٤ وضحي الاسلام ج ٣ ط ٥٧ - ١٩٥٥ لاحد أمين

والإيقاظ من رقدة الغفلة لئلا يقولوا كنا غافلين فلولوا بعث إلينا رسولا ،
 ينبهنا على النظر في أدلة العقل ^(١) ويملق على هذا ابن المنير السني فيقول :
 هذه من نزعات عقائد المعتزلة الذين يرون أن العقل كاف عندهم في إيجاب
 المعرفة ، بل في جميع الأحكام بناء على قاعدة المحسين والتقيييح العقلين
 وأما السني فلا يتوجه عليه هذا السؤال فإن العقل عنده شرط في وجوب
 عموم الأحكام ولا تكليف عنده قبل ورود الشرائع ^(٢) ، ونراه يقول في
 قوله تعالى « وتفصيل كل شيء » يحتاج إليه في الدين لأنه القانون الذي
 يستند إليه السنة والاجماع والقياس بعد أدلة العقل ^(٣) ويقول في تفسير
 قوله تعالى « ربنا اغفر لي ولوالدي فان قلت : كيف جاز له أن يستغفر
 لأبويه وكانا كافرين ؟ قلت : هو من معجزات العقل لا يعلم امتناع
 جوازه إلا بالتوقيف ^(٤) ، ويقول في ترجيح العقل على السنة في تفسير
 قوله تعالى : « وما كنت تدري ما الكتاب وما الإيمان » فان قلت :
 قد علم أن رسول الله ما كان يدري ما القرآن قبل نزوله عليه فما معنى
 قوله ولا الإيمان والأنبياء لا يجوز عليهم إذا عقلوا ، وتمسكوا من النظر
 والاستدلال أن يخطئهم الإيمان بالله وتوحيده ، ويجب أن يكونوا
 معصومين من ارتكاب الكبائر ومن الصفائر التي فيها تنفير قبل المبعث
 وبعده فكيف لا يعصمون من الكفر ؟ قلت : الإيمان اسم يتناول أشياء
 بعضها الطريق إليه السمع فعنى به ما الطريق إليه السمع دون العقل وذلك

(١) تفسير الكشاف ج ٢ / ص ٢٢٦

(٢) تعليقات ابن المنير الاسكندراني - تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٢٦

(٣) تفسير الكشاف ص ١٥٨ ج ٢ / ط ١٩٥١

(٤) تفسير الكشاف ص ١٨٣ ج ٢ ط ١٩٥١

ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحي^(١) وهكذا نرى الزمخشري يقول في الآية : « وخلق لـكم في الأرض » واستدل بهذه الآية على أن الأشياء التي يصح أن يفتنم بها ولم تجر مجرى المحظورات في العقل خلقت في الأصل مباحة مطلقا لكل أحد يتناولها ويستنفع بها^(٢).

والزمخشري في سبيل تأييده للعقل يجوز القياس العقلي فيقول في تفسير قوله تعالى : « ولقد علمتم المنشأة الأولى فلولا تذكرون : هذا دليل على صحة القياس حيث جهلهم في ترك القياس للمنشأة الأخرى على الأولى^(٣) ، أنه ينقهر الفرصة في كل مناسبة ليستنبط من النصوص القرآنية برهاناً جديداً لترجيح العقل واعزازه ، والفرض من هذا كله تأويل القرآن وإستخدام الآيات في تأييد مذهبه الكلامي ، ومن ثم كان من الضروري أن نعرف كيف حكم الزمخشري الأصول الخمسة في التفسير القرآني وكيف أخضع الآيات لها :

١ - التوحيد :

يتفق المسلمون وشتى الفرق الإسلامية على هذا الأصل واسكن المعتزلة في الحقيقة يجمعون في تحليله وفلسفته إلى أقصى حد فنراهم يفسرون الوجدانية تفسيراً خاصاً من حيث الصفات الثبوتية والسلبية ، وينفون عنه التجسيم حسب ما وصل إليه اجتهادهم ، يقول المعتزليون : أنه تعالى ليس بجسم لأنه واحد والوحدة تقتضي البساطة وعدم التركيب من ماهية ومادة ولو كان جسماً لاحتاج إل حيز وإذا احتاج إلى حيز فهو فقير والله

(١) تفسير الكشاف ص ٨٨ ج ٣ ط ١٩٥١ .

(٢) تفسير الكشاف ص ٢٠٨ ج ١ سورة البقرة .

(٣) الكشاف ج ٣ ص ١٩٦ .

غنى وليس كمنه شيء والزمن مشرى يدافع عن ذلك فى آيات من تفسيره فاذا مارأى آية ظاهرها التجسيم ، أخرج كل ما فى جمعبته من معارف وثقافات ليؤيد بها رأيه ، ولجأ خاصة إلى علم المعانى والبيان ليواتيه بالحل اللغوى المقنع ، يقول فى تفسير قوله تعالى : « إنا بيابعون الله يد الله فوق أيديهم » بدرسول الله التى تعلموا أيدي المبايعين هى يد الله . والحق منزله على الجوارح ، وصفات الأجسام فان عقد الميثاق مع النبى كالمهد مع الله وهو من قبيل القمئيل والقمئيل^(١) ، كما رأينا فى قوله تعالى مخاطبا لجهنم « هل امتلأت وتقول : هل من مزيد ؟ » فان هذا السؤال والجواب من باب التخمين الذى يقصد به تصوير المعنى فى القلب واقراره^(٢) ويقول فى آية « ويبقى وجه ربك » أن المقصود بالوجه ذات الله من قبيل اطلاق الجزء على السكل وبمشهد بقول « مساكين مكة » إذ يقولون : « أين وجه عربى كريم ينقذنى من الهوان^(٣) ؟ » وهكذا يقول فى تفسير قوله تعالى : قالت اليهود يد الله مغلولة حيث جعل الغل بمعنى البخل والبسط بمعنى السخاء ، دون أن يحتاج إلى أن يكون هناك يد . ويستدل على ذلك بأن الملك لا يعطى عطاء قط ولا يمنعه إلا بأشارته من غير استعمال يد وبسطها أو قبضها ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزىلا لقالوا ما أبسط يده بالنوال لأن بسط اليد وقبضها عبارتان وقعا متعاقبتين للبخل والجود ثم يستطرد فيقول : ومن لم ينظر فى علم البيان عمى عن تبصر بحجة الصواب

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٣٦ سورة الفتح .

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٦٣ :

(٣) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٨٩ سورة الرحمن .

في تأويل أمثال هذه الآية ولم يتخلص من يد الطاعن إذا عبثت به ^(١) ، وهكذا في قوله تعالى : « وجاء ربك والملك صفا صفا » فان قلت : مامعني أسناد المجيء والحركة والانتقال إلى الله وإنما يجوز أن على من كان في جهة ، قلت : هذا تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثاره فمثلت حاله في ذلك مجال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكر ووزرائه وخويعه ، .

وبعد أن ينفي المعزليون التجسيم عن الله عز وجل ينفون كذلك السكينونة والمكان عنه تعالى ، يقول في تفسير الآية : « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما » فان قلت : تعالى الله عن المكان فكيف صح أن يقال وسع كل شيء ؟ قلت : العلم والرحمة هما اللذان وسعا كل شيء في المعنى ، والأصل وسع كل شيء رحمتك وعلمك ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم ، وأخرجنا منصوبين على التمييز للأعراق في وصفه بالرحمة والعلم كأن ذاته رحمة وعلم واسمان كل شيء ^(٢) ، وعند تفسير الآية السكرية : الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم « يقول : أنه فيها أظهر شرف الإيمان والترغيب فيه وفيها فائدة أخرى وهي : التنبيه على أن الأمر لو كان كما تقول الجسمة لكان حملة العرش ومن حوله مشاهدين معاينين ولما وصفوا بالإيمان لأنه يوصف بالإيمان الغائب ، فلما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم علم أن إيمانهم وإيمان من في الأرض وكل من غاب عن ذلك المقام سواء في أن إيمان الجلم بطريق النظر والاستدلال لاغير ، وأنه لا طريق إلى معرفته إلا هذا

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٧١ سورة المائدة .

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٥ سورة غافر .

وأنه منزّه عن صفات الأجرام^(١)، ويقول في الآية « الرحمن على العرش استوى » — ولما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا: « استوى فلان على العرش » يريدون ملسكا وأن لم يقعد على السرير البتة، وقالوه أيضا لشهرته في ذلك المعنى ومساواته « ملك » في مؤداه وأن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر ونحوه قولك: « يد فلان مبسوطة » و « يد فلان مقلومة » بمعنى أنه جواد أو بخيل فلا فرق بين العبارتين^(٢).

وينفى المعتزلة ومن بينهم الزمخشري جواز رؤية الباري فيقول صاحب الكشف في تفسير « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »، البصر هو الجوهر اللطيف الذي ركبّه الله في حاسة النظر به تدرك المبصرات فالمعنى أن الأبصار لا تتعلق به أبدا ولا تدركه لأنه ميتعل أن يكون مبصرا في ذاته لأن — الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلا أو تابعا كالأجسام والهيئات وهو للطف أدراكه المدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك، ويلطف أن تدركه الأبصار^(٣). وهكذا نرى الزمخشري يؤول كل آية تدل في ظاهرها على معنى ينافي ما يجب في ذات الله ومقامه إلى ما يريد فالوحدانية عند المعتزلة هي نفى جميع الصفات المادية والهيئّة عن الله تعالى وأثبت أن صفاته عين ذاته لأنه لو كان غير هذا لزم أن يكون هناك صفة وموصوف وهذا من خواص

(١) تفسير الكشف ج ٣ ص ٢٥ سورة غافر .

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٩٥ سورة طه .

(٣) تفسير الكشف ج ١ ص ٥٢١ .

المركب، فيقول في الآية الكريمة « وهو السميع العليم » أنه السميع العليم لذاته^(١).

٢ - العدل :

يمتدح المسلمون جميعا بعدل الله ولكن المعتزلة تعمقوا في فهمه وآثروا حوله مسائل أولاها : أن الله يسير بالخلق إلى غاية ، وأن الله يريد خير ما يكون خلقه ، وتفرعت من هذه المسألة نظريتان مشهورتان هما نظرية الصلاح والأصلح ، ونظرية الحسن والقبح العقليين وحاصل رأى المعتزلة في النظرية الأولى ، أن الله لما كانت أعماله معللة ويقصد منها إلى غاية هي نفع العباد فالله يقصد في أفعاله إلى اصلاح العباد ، ومن المعتزلة من قال أنه يجب على الله أن يعمل ما فيه صلاح لعباده ، ومنهم من لم يكتف بذلك، بل قال يجب على الله رعاية ما هو الأصلح ، وجمهورهم على أنه يراعى ما هو الأصلح^(٢) والزمخشري المعتزلى في تفسيره يبذل قصارى جهده في تقرير وبيان علل أفعال الله وأنها صادرة عن حكمة ومصلحة يقول في تفسير الآية الكريمة : « قل هو إذن خير لكم » أنه لا يكشف أسراركم ولا يفضحكم ولا يفعل لكم ما يفعل بالمشركين مراعاة لما رأى الله من المصلحة في الابقاء عليهم^(٣).

ويذهب المعتزلة بمقتضى هذا المبدأ من رعاية الأصلح إلى أنه لا يجوز على الله تعالى أن يكون خالفا للمقدمات الموصلة إلى العصيان ، ففي تفسيره للآية الكريمة « ومما رزقناهم ينفقون » يذهب إلى أن الرزق هو الحلال

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٢١ .

(٢) أحمد أمين ضحى الاسلام ، الجزء الثالث صفحة ٤٥ .

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٦ .

لأن المعتزلة لا يسمون الحرام رزقا لأنه ليس برزق وأن الله لا يرزق^(١)
العبد الحرام ولا يجوز أن ينسب إليه ما يوصل العبد إلى المعصية ولا يجوز
فعل التقييح على الله لعماليه عن التقييح ، فلفظ الرزق وإسناده إلى الله تعالى
دليان على أن المنفق هنا هو الحلال ، والزمنشري تمسك في إثبات نظريته
بالاسناد فقط^(٢) ويصرح أيضا في الآية : « ممارزقناهم » بقوله من الحلال
لأن الحرام لا يكون رزقا ولا يسند إلى الله^(٣) .

وهكذا ينه الزمنشري في مواضع عديدة من تفسيره على أن الله
يراعى الأصلح ، ويؤول الآيات التي يناقض ظاهرها ذلك في أفعاله ، فيقول
في الآية « فاخرج لهم عجلا » فان قلت : فلم خلق الله العجل من الحلي صار
فطنة لبنى إسرائيل وضلالا ؟ قلت : ليس بأول محنة محن الله بها عباده^(٤) ،
ويقول أيضا في قوله تعالى : « وما أعجلك عن قومك » بأنه زل عنه أنه
عز وجل ما وقت أفعاله إلا نظرا إلى دواعي الحكمة وعلمها بالمصالح المتعلقة
بكل وقت^(٥) ، وكذلك يدعم نظرية الصلاح والأصلح بقوله تعالى :
« قال إنك من المنظرين » فان قلت لم أجيب إلى استنظاره وإنما استنظره
ليفسد عباده ويفويهم ؟ قلت فلما في — ذلك من ابتلاء العباد وفي مخالفته
من أعظم الثواب^(٦) ، ويقول الزمنشري في تفسيره الآية الكريمة : « فما

(١) تفسير الكشاف : ج ٢ ص ٤٦ .

(٢) تفسير الكشاف ج : ص ١٠١ .

(٣) تفسير الكشاف : ج ٢ ص ١٦٥ .

(٤) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ٣١١ .

(٥) تفسير الكشاف : ج ٢ ص ٣١٠ .

(٦) تفسير الكشاف ج ١ : ص ٥٤١ .

أغويتنى ؟ » : إن الله لم يخلق له الفى حتى يحمل الإغواء على تكليفه بالسجود لأنه كان سببا فى غيه .

وأما المسألة الثانية نظرية الحسن والقبح العقلين ؛ فخلاصة رأى المعتبرة فيها هو : أن الحسن والقبح فى الأشياء ذاتيان والشرع تحسينه وتقبيحه للأشياء منه عليها لا مثبت لها والعقل من غير بيان الشرع مدرك لها ومنتبه إليها ، لا منشئ لها .

يقول الزمخشري فى تفسير قوله تعالى : « ويا قوم أوفوا المكيال ، والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعنوا فى الأرض مفسدين » ، فإن قلت : وصف النهى عن النقصان أمر بالابقاء ، فما فائدة قوله « قلت : نهوا عن عين القبيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزال لأن فى التصريح بالقبح نعيما على المنهى وتعبيرا له ، ثم ورد الأمر بالايفاء الذى هو حسن فى المقول مصرحا بلفظه أو زيادة ترغيب فيه ^(١) ، ونظرية الحسن والقبح العقلين أساسها الأمور الحسنة التى يفعلها المكلفون لايحتاج أن يحسنها ويحبذها المشرع وهو ليس بأمر توقيفى بل هو يدرك بالفطرة والعقل كحسن الإحسان وحسن الصدق ، وقبح الكذب وهو لايحتاج أن يقبح من ناحية المشرع لأنه فى حد ذاته وب نفسه قبيح وحسن سواء قال الشرع بذلك أم لم يقل : وهكذا تفرع من مسألة العدالة أن الله لا يريد الشر ولا يأمر به ^(٢) وأنه لا يشاء الشرك والمعاصي ، والمسألة الثالثة التى لها أهمية كلامية من مسائل أصول العدل موضوع حرية الارادة ، أو الجبر والاختيار . يقول الزمخشري فى تفسير الآية الكريمة (فآلهمها فجورها وتقواها) معنى الهام

(١) تفسير الكشاف : ج ٢ ص ١٠٩ .

(٢) تفسير الكشاف ج : ٢ ص ٤٥٥ .

الفجور والتقوى إفهامها وإعقالها أن أحدهما حسن والآخر قبيح وتمكينه من اختيار ما شاء^(١).

ونرى الزمخشري يسوق الأدلة التي يستقيها من ظواهر الآيات لتقرير مذهب الاختيار فيقول في الآية (لعلكم تتقون) لا يجوز أن يحمل على رجاء الله تقواهم لأن الرجاء لا يجوز على عالم الغيب والشهادة، وحمله على أن يخلقهم راجين للتقوى ليس بسديد أيضا. ولكن «ولعل» واقعة في الآية موقع المجاز لا الحقيقة لأن الله عز وجل خلق عباده ليعبدوه بالتسكين والركب فيهم العقول والشهوات وأزاح العلة في إقذارهم وتمكينهم وهداهم النجدين ووضع في أيديهم زمام الاختيار وأراد منهم الخير والتقوى فهم في صورة المرجو منهم أن يشقوا ليرجع أمرهم مختارون بين الطاعة والعصيان كما ترجحت حال المرتجى بين أن يفعل وأن لا يفعل ومصادقة قوله عز وجل ليبلوكم أيكم أحسن عملا وإنما يبلو ويختبر من تخفى عليه العواقب ولكن شبه بالاختيار بناء أمرهم على الاختيار^(٢) ومن ذلك نرى كيف يذهب الزمخشري إلى أن «لعل» منافية لمقام الألوهية ومن ثم حملها على المجاز. وإذا كان الله لا يتدخل في إرادة الإنسان وجعلها حرة ففعلت إن شرا أو خيرا فما مدى سلطان الشيطان على الإنسان؟ إن الشيطان ليس له سلطان على إرادة الإنسان وإنما هو يزين والإنسان يختار لنفسه إما طريق الهداية أو طريق الضلال. وقد وجد الزمخشري آية تعينه على تقرير هذا المعنى وهي (وقال الشيطان لما قضى الأمر أن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم

(١) سورة البقرة ٢١ - سورة الملك ٢ - سورة النحل ٣٥ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ١٧٨ سورة البقرة .

فاستجبتهم لى فلانلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى
انى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم) فأخذ
يعتمد عليها فى تقرير رأيه وهذا دليل على أن الانسان هو الذى يختار
الشقاوة والسعادة وتحصيلهما لنفسه وليس من الله إلا التمسكين ولان
الشیطان إلا الغزین ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقال فلانلومونى
ولأأنفسكم فان الله قضى علیکم السکر وأجبرکم علیه^(١) فاذا ثبت أن
العبد حر طلیق فى إرادته وأفعاله وأنه يتصرف كيفما يشاء وأن الله
أعطاه العقل والتمیز لیبین الخبیث من الطیب . وعندما یرى الزمخشرى
أن ظاهر بعض الآیات یفید خلاف ذلك یبذل أقصى ما عنده من القدرة
الأدبیه والبیانیه ویجعلها دالة على عقیدته ولهذا نجده یقول فى الآیه السکرية »
ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة « لاختم ولا تنشیه
ثم على الحقيقة ، وإنما هو من باب المجاز ویحتمل أن — یكون من كلا
نوعیه وهما الاستمارة والتمثیل ، فان قلت : فلم أسند الختم إلى الله تعالى
ولإسناده إلیه بدل على المنع من قبول الحق والتوصل إلیه وهذا قبیح
من الله محال ، ویجیب الزمخشرى عن هذا بأجوبة منها : أن الإسناد
إلیه تعالى کنایة عن فرط تمکن هذه الصفة ورسوخها فى قلوبهم وأسماعهم
فإن كونها كذلك يستلزم كونها مخلوقة لله صادرة عنه فذكر اللزوم
لیفتقل منه إلى اللزوم ، ألا تراهم یقولون إن فلان مجبول یقصدون بذلك
رسوخ هذا المعنى فیه ولما لم یکن إرادة الحقيقة فى الإسناد إلى الله مقصودة
على مذهبه وجب أن یعده مجازا متفرعا من الکناية ومن ذلك نرى

كيف يقرر الزمخشري مذهبه الاعتزالي في حرية وقدرة بأجلى مظاهرها وكيف يؤول الآيات الدالة على خلاف ذلك .

٣ ، ٤ الوعد والوعد ، والمنزلة بين المنزلتين :

وهما الأعلان الثالث والرابع من أصول المعتزلة ، وقد جمعناها معا للارتباط الشديد بينهما ، وقول المعتزلة في ذلك مبنى على تصورهم للإيمان وتصورهم للمعدل الآلهى كما شرحوه ، وعلى قولهم في أن العالم سائر لغرض يرمى إلى تحقيقه^(١) فمعد أكثر المعتزلة أن الإيمان هو الاعتقاد بالله ورسوله والإقرار باللسان والعمل بالأركان ، وليس التصديق والاعتقاد القلبي هو وحده كافيا في حصول الإيمان . يقول الزمخشري في الآية «والذين يؤمنون بالغيب» فالإيمان الصحيح أن يعتقد الحق ويمرب عنه بلسانه ويصدق به عمله . فمن أخل بالاعتقاد وإن شهد وعمل فهو منافق ومن أخل بالشهادة فهو كافر ومن أخل بالعمل فهو فاسق^(٢) . ويسير الزمخشري على تقسيم الذنوب إلى صفائر وكبائر ، وعنده أن الصفائر مالم يأت فيها وعيد والكبائر ما جاء فيها وعيد ولا تسقط الكبيرة إلا بالتوبة . ويكرر هذا في موضع آخر فيقول : الكبائر الذنوب التي لا يسقط عقابها إلا بالتوبة والمعتزلة يرون أنه يجب على الله أن يثيب المطيع ويعاقب مرتكب الكبيرة فصاحبها إذا مامات ولم يتب لا يجوز أن يعفو الله عنه لأنه أوعده على الكبائر وأخبر به ، فلو لم يعاقب لزم الخلف في وعيده فهذا هو معنى أصلهم الذى أطلقوا عليه الوعيد والوعيد ، يعنون بذلك أن الثواب على الطاعات والعقاب على المعاصى قانون حتمى التزم الله تعالى به^(٣) .

(١) ضحى الاسلام أحمد أمين ج ٣ ص ٦١ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٩٨ سورة بقرة آية ٢ .

(٣) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٦٣ ، انظر أيضا الوعد والوعيد الكشاف ج ١ ص ٢٠١ .

وفي الآية الكريمة يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين يقول الزمخشري . الفاسق في الشريعة الخارج عن أمر الله يارتكاب الكبيرة وهو النازل بين المنزلتين أى بين منزلة المؤمن والكافر وقالوا إن أول من حد له هذا الحد أبو حذيفة واصل بن عطاء^(١).

ويقول الزمخشري في موضع آخر : الناس إما مؤمن تقى وإمام مشرك وإنما حدث أصحاب المنزلة بين المنزلتين بعد ذلك^(٢).

٥ - الامر بالمعروف والنهي عن المنكر :

هذا هو خامس الأصول المعتمدة والمسلمون جميعا يسلمون به وبدل عليه قول الله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)^(٣).

وهذه هي جملة الأصول الخمسة التي يذهب إليها الزمخشري المعتملى ويحاول تقريرها وشرحها وتأويل الآيات لتسكون مؤيدة لها في تفسيره الكشف ويستفيد من نبوغه في اللغة وعلومها في أن يعبد الطريق أمام الصعوبات التي يواجهها ويذل تلك الصعوبات بمهارة فائقة وتبصر في العلوم اللغوية ، وقد رأينا ما بذله من الجهد في هذا المضمار . وأرجو أن أكون وفقت في الامام بتلك الاتجاهات اللغوية .

(١) تفسير الكشف ج ١ ص ٢٠٧ سورة الاسراء .

(٢) تفسير الكشف ج ٢ ص ٢٢٥ سورة البقرة آية ٢٦ .

(٣) آل عمران آية ١٠٤ - ضحى الاسلام أحمد أمين ج ٣ ص ٦٤ ، وراجع الكشف

في تفسير هذه الآية ص ٣٤١ ج ١ وظهر الاسلام - أحمد أمين ج ٤ .

الفصل الرابع
الاتجاه اللغوي
في الفائق

الانجازات اللغوية عند الزمخشري في كتابه « الفائق في غريب

الحديث »

— ١ —

كتاب الفائق في غريب الحديث لجار الله الزمخشري ، أغزر كتب الحديث مادة لغوية ، وأكثرها تمحيصا وفائدة للباحثين والدارسين ، وقد أعجب به العلماء في مختلف العصور ، وقال عنه ابن الأثير : « إن الزمخشري سماه الفائق ولقد صادف هذا الاسم مسمى وكشف عن غريب الحديث كل معنى ^(١) .

ويذكر الزمخشري في مقدمة كتابه ، جهود العلماء في الكشف عن غريب ألفاظ الحديث ، وجهده في هذا السبيل ، وما صنعه من ترتيب الأحاديث ترتيبا سلمت فيه كلمات الأحاديث نسقا ولم تذهب بددا ^(٢) ، وقد التزم الزمخشري أن يورد الكلمات الغريبة من الأحاديث ويدل على مواضعها في أبواب الكتاب وقد رتبها على حروف المعجم ، وكل باب رتبها على الحرف الأول من الثاني ^(٣) ، وفي تفسيره الألفاظ الأحاديث يطرق الزمخشري أبوابا من النحو والبلاغة ويستشهد بكلام العزب ، وأمثالهم وشعرهم ، ولذلك يعد ثروة لغوية فريدة ^(٤) .

(١) كتاب النهاية - لابن الأثير - ١ - ٧ .

(٢) الفائق ج ١ ص ٢ ط القاهرة ١٩٤٥ .

(٣) التزم الزمخشري - رد الحديث أو الاثر بتمامه في أول كلمة غريبة فيه ثم يفسرها ويفسر ما بعدها من كلمات غريبة فلا يعود لذكرها مرة أخرى .

(٤) راجع مقدمة البيضاوي وأبي الفضل لكتاب الفائق .

وقد طبع الفائق في حيدر آباد (هند) عام ١٣٢٤ هـ ثم طبع في مصر عام ١٣٦٤ هـ (١٩٤٥) . والفائق شبيهه بأساس البلاغة من حيث العمل اللغوى ولكنه لا يقاربه من جانب المنهج ، إذ لم يبين فيه وجوه البلاغة ولا تعرض للمجاز وما إليه ، مما بنى عليه الأساس ويعمل ذلك بعض الباحثين^(١) بأن الزمخشري ألف الفائق أولا ثم الأساس ثانيا أغزر مادة ، وأكثر تحقيقا وأعظم منهجية .

والحديث النبوى الشريف قد أولاه العلماء ، عناية كبيرة فى مختلف العصور وألفوا فى جمع غريبه وفى شرح هذا الغريب وترتيبه مؤلفات كثيرة وأقدم الكتب العربية فى غريب الحديث هو كتاب « أبى عبيد » (م ٢١٠) ، أو ٢٠٨ هـ) كما يذهب إلى ذلك ابن الأثير ، ويذكر « ابن النديم » إن أول من ألف فى غريب الحديث هو (ابن عبد الأعلى)^(٢) ، وهو معاصر (لأبى عبيد)^(٣) ، ثم صنف فى الغريب بعدهما (الضرير السكندى) (م ٢١٤ هـ) (والنضر بن شميل م ٢٠٣) ومحمد بن عبد الواحد غلام ثعلب م ٤٦٢ هـ) و (أبو عمر الشيبانى م ٢٠٦ هـ) — والأصمعى (م ٢١٦) و (موفق الدين البغدادى م ٦٢٩ هـ) والهروى وابن الأثير (صاحب كتاب النهاية) وسواهم من العلماء على مختلف الأجيال مما يضيق المقام عن

(١) المعجم العربى للدكتور نصار ج ١ : ص ٥٩ ط ١٩٥٦ القاهرة .

(٢) تاريخ بغداد — للخطيب — ج ١١ ص ٢٠٤ .

(٣) المعجم العربى — ج ١ : ص ٥٠ .

استقصائهم ووصف كتبهم^(١) . وكتاب الفائق للزمخشري يعد من أجل
كتب غريب الحديث وواسطة عقدها .

- ٣ -

يبدأ الزمخشري كتابه بكتاب الهمزة ويليه كتاب الباء والقاء
فالثاء الخ . وهو يعتبر حرف الكلمة الأول باعتبار فعلها الثلاثي إن
كانت الكلمة فعلا ، أو أصلها اللغوي إن كانت اسما ، وبذلك رتب
الكتاب على حروف المعجم الواقعة في أوائل الكلمات الغريبة المقصودة
بالتفسير (يحىء المؤلف إلى أشهر كلمة في الحديث فيشرح غريبها ويتطرق
من ذلك إلى شرح باقى مفردات الحديث التى وقعت فيه تلك الكلمة) ومن
ثم كان فى الثغور على طلب الحديث منه كلفة ومشقة كما يقول (ابن الأثير) ،
وإن كان دون غيره من مقدمى الكتب . ومن الجدير بالذكر أن كل كتاب
يحتوى على فصول بالنظر إلى الترتيب الهجائى للحروف الثوانى من الكلمة ،
ولنستعرض كلمة من كلمات هذا المعجم اللغوى الجليل لنرى إتجاه
المؤلف فيه .

يقول المؤلف فى شرح كلمة « السنة » وذلك فى فصل السين مع النون
وقد جاءت هذه الكلمة فى الحديث الشريف عن النبى صلى الله عليه وسلم .
أنه حض على الصدقة فقام رجل قبيح السنة ، صغير القمة بقود ناقة حسناء
جملاء ، فقال هذه صدقة (يقول الزمخشري : السنة الصورة ، يقال ما
أحسن سنة وجهه وقيل : سنة الخد : صفحته . وقالوا هو أشبه به

(١) راجع مقدمة النهاية لابن الاثير فى تاريخ المؤلفين فى غريب الحديث وس ٥٠
وما بعدها ج ١ المعجم العربى للدكتور حسين نصار .

سنة ومنة وأمة ، أى صورة وقوة وثقل وقامة ، ومنها : المسنون المصور .
القمة : شخص الانسان قائما وراكبا ، يقال : أنه لحسن القمة على
الرحل ونظر عرابى إلى دينار ، فقال ما أصغر قممك وأكبر هممك
الجللاء : الجميلة ، وهى فعلاء التى لا أفعل لها كديمة هطلاء ..

فنجده يفسر كلمة السنة . ثم يشرح معناها اللغوى ثم يشرح معانى
الكلمات المهمة التى جاءت فى الحديث نفسه وهو شرح لغوى لا يزيد عن
تبيين المعنى وتوضيحه ، دون أن يقصد إلى بيان حقيقة ومجاز دون أن
يفيخ فى الشرح اللغوى لنفس الكلمة على ما نجده فى أمهات كتب المعاجم
اللغوية .

فلأخذ كلمة أخرى مثل فرط ، فنجده يصدر هذه المادة بالحديث الذى
وردت فيه . ثم يقول : فرط يفرط إذا تقدم وهو فارط وفرط ، ومنه قيل لقباشير
الصبيح افراط ، وللعلم المتقدم من أعلام الأرض ، فرط ويقال للدعاء فى المعزى ،
جعل الله لك فرطا وسلطا صالحا ، وحديث رسول الله : « أنا فرطكم
على الخوض » . كأنه قال أنا أولكم قدوما على الخوض وهنا نجد
الزمخشري يذكر معانى الكلمة الحقيقية منها والمجازى دون أن يصرح
بذكر الحقيقة أو المجاز .

وفى خاتمة الكتاب يقول الزمخشري أنه انتهى منه فى أوائل شهر
ربيع الآخر سنة ٥١٦ هـ) ويصف كتابه بأنه جليل جم الفوائد غزير
الفوائد من أثن مافيه من رواية وعلقة بفهمه حفظا ودراية نبغ فى أصناف
من العلم وبرع فى فنون من الأدب (١) .

وإذا رجعنا إلى الكتاب نجد أنه يطرق بحوثا نحوية كثيرة منها :
 كلامه في بلاء ، واستعمالاتها^(١) ، ولغة أهل الحجاز إذا وقفوا على الألف^(٢) .
 ولام التعريف ، وتصغير بعض أسماء الإشارة^(٣) ، وقط واعرابها
 واستعمالاتها^(٤) وبعض الكلمات المحذوفة اللام^(٥) ، وتخفيف الهمزة^(٦) ،
 وقلب تاء الافعال^(٧) ، بعض الكلمات التي لاتقع إلا في النداء^(٨) ، ومتى
 تعمل إذا^(٩) .

كما أنه يطرق بحوثا لغوية عديدة ، مثل بعض غرائب الجمع^(١٠) ،
 ومعاقبة المين الحاء^(١١) ، وزيادة الباء^(١٢) ، وكلمة التنوير

(١) الفائق ج ١ : ص ١٠٠ .

(٢) الفائق ج ١ : ص ١١٩ .

(٣) الفائق ج ١ : ص ١٤٠ .

(٤) المصدر السابق ص ٣١٤ .

(٥) نفس المصدر : ص ١٣٨ .

(٦) المصدر السابق ص ٤٠٢ ج ١ .

(٧) المصدر السابق ج ١ ص ٦٥٦ .

(٨) المصدر السابق ص ٤٧٥ ج ٢ .

(٩) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٥ .

(١٠) المصدر السابق ص ٣٢٥ ، ٢٤٣ ج ١ .

(١١) الفائق ج ٢ ص ١١٤ .

(١٢) الفائق ج ١ ص ١٣٧ .

وأصلها^(١) ، وكل كتاب حكمة عند العرب مجلدة^(٢) ، وسوى ذلك من شرح مفردات وتراكيب لغوية عديدة .

ويحتوى الكتاب شرح أمثال عديدة وردت أثناء الشرح اللغوي لغريب الحديث .

هذا بالإضافة إل مافى الكتاب من مادة لغوية فى غريب الحديث مما أبنا لك اتجاه الزمخشري فيه .

والكتاب بلاشك يعد معجما لغويا كبيرا وأن كان معجما خاصا بألفاظ الحديث الغريبة ، وإذا أخذنا أى بحث لغوى فى الفائق لنعرف منه روح ، الزمخشري فى الفهم والبحث والمناقشة مثل كلمة (سيد وأعلامها) نجد الزمخشري يقول : (هو فيصل من ساد يسود قلبت وأوه لمجامعها الياء وسبقتها إياها بالسكون^(٣)) فياخذ القاعدة الصرفية فى ذلك تلخيصا واضحا لابس فيه ولاخفاء .

وهكذا نخرج من ذلك بنتيجة أخيرة وهى أن الفائق يعد من روائع تراث الزمخشري اللغوى ، ولاشك أنه قد عرض لشتى البحوث اللغوية أوردها فيه بروح العالم وعمق الباحث وسعة اطلاع المؤلف ، مما يجعلنا نؤكد أن الزمخشري فى هذا الكتاب قد أفاد اللغة العربية فائدة جلى لاتنكر .

وقد كان بودى أن تساعدنى المصادر المختلفة على الموازنة بين الفائق وبين غيره من الكتب التى ألقت قبله ، فى غريب الحديث ، واسكن هذه

(١) الفائق ج ١ ص ١٣٧ .

(٢) الفائق ج ١ ص ٢٠٦ .

(٣) الفائق : ج ١ ص ٦٢٢ .

الكتب مفقودة نرى أوصافها في بعض كتب التراجم والفهارس^(١) ،
والنهاية لابن الأثير وهي لا تكفى لمقارنة مبسطة دقيقة .

ولا يفوتنا في خاتمة هذا الفصل أن نشير إلى أحد أئمة اللغة وفحولها
والذى ألف في غريب الحديث : أبى عبيد القاسم بن سلام الهروى البغدادى
(م ٢٢٤) وقد ألف هذا الامام كتابه المشهور (غريب الحديث) فأطال
ونظم وانتزع اعجاب الباحثين وقال الخطابى في مقدمة (غريبه^(٢)) بلغنى
أن أبا عبيد مكث في مكاتبه أربعين سنة ، يسأل العلماء عما أودعه من تفسير
(الحديث والأثر) وقد جمع فيه ما في كتب المؤلفين السابقين . ونهج فيه
أبو عبيد نهج كتب المسانيد ، فأفرد أحاديث الرسول وأحاديث كل
رجال الصحابة والتابعين على حدة ، وأورد الأحاديث في كل مسند بدون
أى ترتيب ، وتقدم النسخة التى في دار الكتب المصرية (تحت رقم ٢٠٥١
حديث) بمباراة « وقال أبو عبيد في حديث النبى صلى الله عليه وسلم .) في
مسند النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يذكر الحديث ثم سنده ، ثم يشرح
لفظه الغريب والمعقود له الباب ، ثم ينتقل إلى حديث آخر ، وراعى فيه
شرح الغريب وتفسير اللفظ ، وإيراد بعض المشتقات القليلة ، مثل الفعل
والصدر ، والاستشهاد على المعنى من القرآن والشعر ، وبعض الأحاديث
الأخرى التى قد ترفع إلى الراوى نفسه المفرد له المسند أو غيره .

وقد أعجب الناس به منذ ظهوره ، من لغويين وفقهاء^(٣) والزمنشرى

(١) نزهة الألباب لابن الانصارى - ٩٩١ - ياقوت معجم الأديباء ٩٦٣/٦ ، ٩٢١/١ ، ١٠/١٦ ، الفهرست ٢٣١ وفوات الوفيات ٤/١ كشف الظنون ، وفيات الأعيان ١/٥٠٤ .

(٢) نهاية ابن الأثير - ٦

(٣) راجع الفائق ج ٢ : ص ٤٠

أيضا من الذين اعجبوا بهذا الكتاب واطلع عليه واستمعان منه بما أودعه من آراء وشواهد وأقوال في الشرح اللغوي لألفاظ غريب الحديث فترى فيه الزمخشري تارة يوافقه الرأي ومرة أخرى يخالفه له ويظهر لنا من مجموع ما نقله جار الله عن هذا الامام وهو أن « غريب الحديث » لأبي عبيد كان أحد مصادر الزمخشري في تأليف الفائق^(١).

* * *

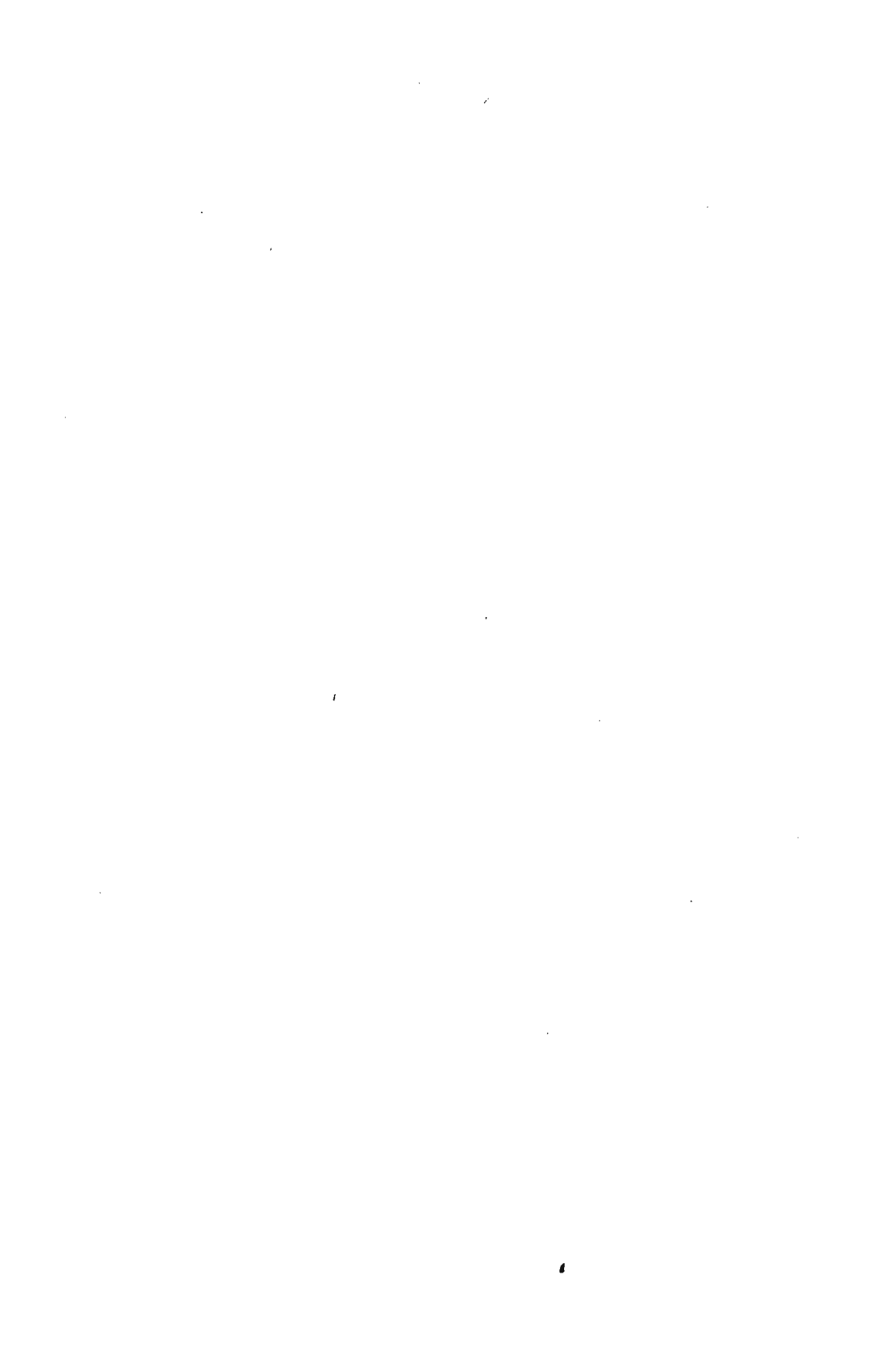
(١) راجع الفائق ج/ ٢ ص ١٣٤ ، ١٧١ ، ٤٢٠ ، ج/ ٣ ص ٢٦ ، ٧٤ ، ٨٦ .
وراجع كتاب المعجم العربي للدكتور حسين نصار ج ١ ص ٥٢

الباب الثالث

الاصول اللغويه عند الزمخشري
وتجديده وصلته بالفكر المعاصر

"

الفصل الأول
المبادئ اللغوية
عند الزمخشري



أولاً — الملاحقة اللغوية عند الرمخشي حول الاشتقاق : —

١ — سبق أن تحدثنا عن الاشتقاق وأقسامه وتفرق الرمخشي فيه، ونعرض الآن إلى الاشتقاق أصلاً لغوياً عند الرمخشي .

ان الاشتقاق بأقسامه : الصغير : والكبير : والأكبر : والكبار : وسيلة من وسائل ثروة اللغة وزيادة مادتها بما يقضونه من توليد الألفاظ بعضها من بعض ، للدلالة على المعاني الجديدة التي كانت تحتاج إلى التعبير عنها بألفاظ تشق من اللغة وتولد عنها بالاشتقاق ولم ينقطع سبل الألفاظ الجديدة في اللغة العربية ، ففي صدر الاسلام والعصور التي تلتها ظهر عدد كبير من الألفاظ للدلالة على المعاني الجديدة ، يقول صاحب الفهرست : « ان العرب لم يزالوا على مر الزمان يشتقون الكلام بعضه من بعض ويضمون للأشياء أسماء كثيرة بحسب حدوث الأشياء والموجودات وظهورها ^(١) » وكان الاشتقاق طريقاً للتجديد والتنوع اللغوي من مثل استعمال كعب الله للفظ « الواقعة والفاشية ، والطامة ، والقارعة » بمعنى القيامة ، وبذلك كان الاشتقاق في اللغة العربية مظهرًا من مظاهر حيويتها وقدرتها على التطور والتجديد وفائدة الاشتقاق في الدلالة على أصول الألفاظ واضحة فيه تكون ألفاظ اللغة العربية مجموعات ينظم كل واحدة منها سلك جامع مؤلف من مادة ومعنى ، وبذلك يصبح كاشفاً عن أصل الألفاظ وسبيلاً إلى معرفة الأصل من الدخيل . إلى أنه الجسر الموصل بين اللغة والحياة الفكرية والاجتماعية والسبيل إلى البحث في الصلة بين التعبير والتفكير والعمل ، والاشتقاق من أعظم مزايا اللغة العربية وهو مظهر حيويتها المتصلة بين

ماض عريق في القدم ، ومستقبل وثيق الصلة بمراحل هذه الحيوية في نظام منطقي حكيم امتاز بالاطراد والاستقرار . وكما ان العرب الذين نطقت ألسنتهم بهذه اللغة النobile قد بنوا مجتمعهم على نظام الأنساب والتوسع في روابط الأسرة حتى كان منها البطون والأفخاذ والعشائر المتعاونة والشعوب المتناصرة كذلك اختتمهم قد احتفظت بالقرابة الوثيقة — في اللفظ والمعنى جميعا — بين جذور الكلمات وما تفرع عنها في تسلسل متطور احتفظ بحال نظامه عند صوغ بعض الكلمات من بعض في صيغ وأبنية كان من مجموعها أسرة لغوية حملت مؤلفي المعاجم على استعراضيها كلها معا في مادة واحدة ، غير مفرقين بين الأصل وما تسلسل منه ، لأنهم اعتبروها كالشجرة التي إذا فصل فرع منها عن أصله فقد حيويته ، أو كالعضو إذا فصل عن الجسد الذي هو منه .

وقد عني أسلافنا بدراسة العربية من ناحية الاشتقاق فألفوا فيها الكتب النفيسة والبحوث الحكيمة ، وأبانوا عن تقارب المعاني بتقارب الحروف ألفاظها وعن اشتراك الألفاظ الكثيرة في معنى عام لاشتراكها في حرفين أو أكثر ومن أقدم من درس العربية من هذه النواحي أبو علي الفارسي وتلميذه ابن جني وأبو الحسين أحمد بن فارس ^(١) .

وقد اهتم ابن جني كثيرا بالاشتقاق في كتابه الخصائص الذي يعد أصلا من الأصول اللغوية عند الزمخشري ، وسبق أن استعرضنا الاشتقاق بأقسامه عند الزمخشري الذي تابع أستاذه ابن جني في كثير من مسائله . والزمخشري يعد من أصحاب الفلسفة اللغوية في هذا الباب —

(١) راجع كتاب الاشتقاق لعبد الله امين .

الاشتقاق — وان كان في أغلب آرائه في هذا الجانب متبعاً لابن جنى الفياضوف المغموى المشهور .

٢ — الاشتقاق الكبير وأهميته عند الزمخشري :

يؤيد الزمخشري فائدة الاشتقاق الكبير وأهميته في اللغة ، وهو ما يكون بين الكلمتين تناسب في المعنى واتفاق في الحروف الأصلية ، دون ترتيبها ، مثل « حمد ومدح » ومثل « جذب وجذب » ومثل « كلم ولاكم » ومثل « لهبة ، ورهبة » ^(١) ، يقول الزمخشري في ذلك : الحمد ، والمدح اخوان ^(٢) وهو الثناء والنداء على الجميل ^(٣) ويقول أيضاً في كتابه الفائق ^(٤) الحمد هو المدح والوصف بالجميل .

وقد سبقه إلى ذلك ابن جنى في الخصائص إذ خص هذا النوع من الاشتقاق بباب خاص سماه الاشتقاق الكبير ^(٥) .

ويرجع بعض الباحثين الاشتقاق الأكبر ومعرفتنا به إلى الخليل الذي حلل الكلمة إلى حروفها الأصلية الثلاثة ولجأ إلى تقليب مواقع هذه الحروف لحصر اللغة وتدوين معجمه « العين » ^(٦) .

(١) يقول الزمخشري في الفائق ج / ١ ص ٦٨٤ : الهمزة يحتمل أن تكون قلب الهمزة من قولهم : جاء يترهل أى جاء يمشى ثقيلًا .

(٢) يقصد الزمخشري من استعمال الاصطلاح (الاخوة) الشائعة في كتبه إلى اللفظين الذين يتلاقيان في الاشتقاق الكبير والأكثر .

(٣) تقديم الكشف ج / ١ ص ٣٧ .

(٤) الفائق مادة (ح ، م ، د) .

(٥) الخصائص لابن جنى ج / ١ ص ٥٣٥ ، ١٢ ، ١٠ .

(٦) الخصائص ج / ١ ص ٥٥٥ ج / ٢ ص ١٥٧ ، ١٦٣ ، والزهري ج / ١ ص ٣٤٥ .

٣ — النظرية الثنائية للألفاظ : أودوران للمعنى على الفاء والعين
وتخصيصه باللام :

لاحظ الزمخشري كأستاذه ابن جنى الصلة بين الألفاظ المشتركة في
حرفين ، مما يجمع الكثير منها الاشتقاق الأكبر ، مثل « أَرَزْ » ، وهز «
و « فليج وفليح » و « نفق ونفذ » و « قط وقطع » و « فطم وفطل وقطف »
وهي كثيرة في اللغة العربية .

ومن ثم ذهب الزمخشري ومن قبله ابن جنى ^(١) إلى النظرية الثنائية
للغة فقد رأى بعض علماء فقه اللغة قديما وحديثا إلى أن الألفاظ منشؤها
التاريخي القديم إلى أصول ثنائية زيد عليها حرف ثالث في مراحل تطورها
التاريخي ، وهذا الحرف الثالث ينوع المعنى العام الذي تدل منشؤها التاريخي
القديم إلى أصول ثنائية زيد عليها حرف ثالث ينوع المعنى العام الذي تدل
عليه تلك الأصول الثنائية وأكثر الذين يذهبون إلى الأصل الثنائي للألفاظ
العربية يقولون أن هذه الأصول الثنائية نشأت عن حكاية الأصوات
الطبيعية المقارنة للمفعل أو الحدث الذي تدل عليه تلك الأصول ، والحرف
الثالث المزيّد هو الواقع في آخر الكلمة ^(٢) . وقد يكون في وسط الكلمة
أو أولها قليلا .

وشواهد النظرية الثنائية للألفاظ عند الزمخشري كثيرة وقد سبق أن
ذكرنا بعضها :

(١) يقول الختم والكنم : اخوان : لأنهما متشاركان ومتناسبان في
المعنى ولأن في الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه كئماله وتغطية لثلا

(١) فقه اللغة محمد المبارك — ص ٩٠ .

(٢) الفلسفة اللغوية — جورجى زيدان — ص ٥٧ .

يتوسل اليه ولا يطلع عليه ^(١) .

(ب) وكذلك يقارن الزمخشري في كتابه الفائق (الجن) إلى (لحد) بمعنى « ضل » ومسألة تعلق المادتين مع « لحظ » بمعنى أصلى واحد ^(٢) .
(ج) يقول أنفق الشيء ، وأنفذه ، اخوان وعن يعقوب نفق الشيء .
ونفذ واحد وكل ما جاء مما فاءه نون وغينه فاء فذال على معنى الخروج ،
والذهاب ^(٣) ويقول في الأساس في مادة (ن ف ق) نفقت الدراهم وأنفقها
كقوالت نفدت وأنفذتها .

(د) يقول : المفلح : الفائز بالبغية . . . والمفلج بالجيم ومنه قولهم
للمطلقة استفلحي بأمرك بالحاء والجيم والتركيب دال على معنى الشق والفتح
وكذلك أخواته في الفاء والعين بمعنى فلق وفلذ وفلى ^(٤) ، وقال في الفائق
في مادة فلذ واستفلح : فلذ كبده أى قطعها وإذا قال الرجل للمرأة استفلحي :
أى استبدى واقتطعها .

(هـ) ويقول أيضا في كتابه الفائق في مادة (ش ت) عن علي (رضى
الله عنه) ولقد قط سيفي درعه : القط = القطع عرضا ويقول في مادة : ققط
قوله تعالى (عجل لنا قطنا) وهو من القط بمعنى القطع لأنه قطعة من
القرطاس أو قطعة من الرزق .

٤ — القيمة التعبيرية للحرف الواحد في اللغة العربية :

يستقيم ما ذكرناه عن النظرية الثنائية للألفاظ في اللغة العربية أن
ابن جنى والزمخشري يؤيدان القيمة التعبيرية للحرف الواحد في اللغة

(١) تفسير الكشاف ج / ١ ص ١١٩

(٢) الفائق ج / ٢ ص ٤٥٥

(٣) الكشاف ج / ١ ص ١٠١

(٤) الكشاف ج / ١ ص ١١٤

العربية^(١) ومن ذلك مثلاً :

(أ) حرف الغين : يدل في بعض المواد ومشتقاتها وتوابعها على الاستتار والغيبة والخفاء مثل « غاب ، غمد ، غرب ، غفر ، غطى » .

(ب) حرف النون : يدل على الظهور والبروز مثل : نفث ، نفخ ، نزع ، نزع ، نشأ ، نهض .

(ج) حرف القاف : يدل على معنى الانفصال والاصطدام وذلك مثل : قد ، قطع ، قط ، قرع ، دق ، شق .

(د) حرف السين : ويدل على الليونة والسهولة : « مثل سهل ، سلس ، سال » وان كنا نلاحظ ان مثل ذلك ليس قانوناً عاماً شاملاً^(٢) . ومن شواهد القيمة التعبيرية للحرف الواحد عند الزمخشري ما يأتي :

(أ) يقول للزمخشري في مادة (قد وقط و قطع) عند شرحه لكلام أبي بكر رضى الله عنه « بيننا وبينكم كقد الأبله » بأن القد : هو القطع طولاً وهو كالشق وفي أمثالهم المال بيني وبينك شق الأبله . ومنه حديث على رضى الله عنه : كان له ضربتان . كان إذا تطاول قدّ وإذا تقاصر قط^(٣) .

(ب) وفي تفسير قوله تعالى « طرائق قدا » القدد من القد كالقطعة من القطع ووصفت بذلك لدلائقها على التفرق والقطع^(٤) .

(ج) وقال في مادة (اثم) في كتابه الفائق قواه تأثماً ومثله : تحوّب ،

(١) الكشف ج / ١ ص ١٠١ .

(٢) راجع مقدمة لدرس لغة العرب - للعلايلي ص ٢١ وكتاب نشوء اللغة العربية للاب السكرملي .

(٣) الفائق ج / ٢ ص ٣٢٩ .

(٤) تفسير الكشف ج / ٣ ص ٢٧٦ .

وتخرج ، وقال في الأساس في مادة (ح و ب) يتحوب من القبيح :
يتخرج منه .

وأخيرا فإن ذلك كله يدل على فلسفة لغوية واضحة للزمخشري تدور
حول الاشتقاق وبذلك نجد الزمخشري يجارى الفلسفة اللغوية على أوسع
نطاقها ويؤيد ما سبق إليه ابن جني من نظريات كبيرة في فقه اللغة وأصولها
وخاصة نظريته في ثنائية الألفاظ ونظريته الأخرى في القيمة التعبيرية للحرف
الواحد في اللغة العربية .

ثانيا - منحنى الزمخشري في الابدال اللغوى أو الاشتقاق الكبير :

١ - كثير من الألفاظ اللغوية تتحد في بعض حررفها وتختلف في
البعض الآخر والحروف المختلفة التى يجمعها تناسب في الخرج مما يسميه علماء
اللغة اشتقاقا أكبر — لابد أن يكون ذلك راجعا إلى الابدال اللغوى بين
هذه الحروف المتغايرة للمقاربة الخرج يقول أبو الطيب اللغوى : الابدال
تبديل حرف من حرف وهى لغات مختلفة لمعان متفقة تتقارب اللفظتان في
لغتين لمعنى واحد حتى لا يختلف إلا في حرف واحد ^(١) ويقول ابن فارس
أن من سنن العرب ابدال الحروف واقامة بعضها مقام بعض مثل : مدحه
ومدحه ورفل ورفن ، وأما قوله تعالى « فانقلب فمكان كل فرق كالطود »
فاللام والراء متعاقبتان كما تقول العرب : فلق الصبح وفرقه ، وذكر عن
الخليل أنه ذكر « فجاسوا خلال الديار » أراد فجاسوا فقامت الجيم مقام
الحاء ^(٢) ومن أمثلة الابدال ما قاله ابن السكيت عن الابدال بين السين
والصاد نحو السراط والصراط ويقول البطلوسى في كتابه — الفرق —

(١) تفسير المزهج / ١ ص ٤٦٠ ط الرابعة

(٢) المزهج / ١ ص ٤٦٠

كل سين وقعت بعدها عين أو غين أو خاء أو قاف أو طاء جاز قلبها صادا ^(١) .

٢ - ويذهب الزمخشري إلى الابدال اللغوى ويستدل له بشواهد كثيرة في اللغة ومن مثل ذلك ما قاله الزمخشري :

(١) يقول الزمخشري : السراط : الجادة من سراط الشيء إذا ابتلعه لأنه يسترط السابلة إذا سلكوه ، والصراط من قلب السين صادا لأجل الطاء كقوله : مصيطر ومسيطر وقد تشم الصاد صوت الزاى ^(٢) .

(ب) ويقول في مادة قرب : القاب والقيب كالقباد والقيد بمعنى القدر وعينه واو اثلاثة وجوه ^(٣) .

(ج) ويقول أيضا الختم والكتم اخوان - أى متشاور كان في العين واللام ومقتناسان في المعنى ^(٤) .

(د) ومن الابدال في المضاعف ما قاله أبو عبيدة : من أن العرب تقلب حروف المضاعف إلى الياء ومنه قوله تعالى « لم يتسنه » من مسنون ، وقال أبو عمرو : لم يتسن : لم يتغير : من قوله تعالى : « من حأ مسنون » أى متغير فأبدل من إحدى اللنونات ياء مثل : تقضى من تقضض ^(٥) ، ويقول الزمخشري في الكشف « لم يتسنه » ، لم يتغير والها أصلية أو هاء سكت ، واشتقاقه من « السنة » على الوجهين لأن لامها هاء ، أو واو

(١) الزهرج / ١ ص ٤٦٩

(٢) تفسير الكشف ج / ١ ص ٥٣

(٣) الفائق ج / ٢ ص ٣٨٢

(٤) تفسير الكشف ج / ١ ص ١١٩

(٥) الزهرج / ١ ص ٤٦٨

وذلك أن الشيء يتغير بمرور الزمان وقيل أصله « يتسنن » من الحاء المسنون
« فقلبت نونه حرف علة كتمضي البازي ^(١) » .

٣ — ومن ذلك كله نرى أن الزغشري يذهب إلى جواز الابدال
اللفوى ووقوعه في اللغة العربية ، كما ذهب اليه الكثير ممن سبقوه من
علماء اللغة العربية وأئمتها ومن نظرية الابدال اللفوى يمكن معرفة
الأصول اللفوية للألفاظ وتقسيمها إلى فصائل وأنواع وتفسير ما بين بعض
الألفاظ والبعض الآخر من نسب لفقوى يرجع في جملة أمره إلى الاشتقاق ،
الذى تحدثنا عنه .

ثانيها — احتجاجة للسان للفقوى في عصره بالتراكيب :

١ — كان العلماء في عصر القدوين اللفوى يجمعون على الأخذ من
يوثق بفصاحته وسلامة عريقته . فاحتجوا بأقوال الجاهليين وفصحاء الاسلام
حتى منتصف القرن الثاني الهجرى وقد صنفوا الشعراء عدة أصناف الجاهليين ،
والاسلاميين ، والمولدين ، والمخضرمين . وأجمعوا على أنه لا يحتج بكلام
المولدين والمحدثين في اللغة العربية ، وكان سيمويه لا يستشهد في الكتاب
بأقوال الشعراء المحدثين ^(٢) فهو لا يسوق في شواهد شاعرا محدثا قط .
وتبعه على ذلك المحافظون ممن يسيرون وفق مناهج العرب وأساليب أدائهم
وان أكثروا في مقام الاستشهاد من الرجوع إلى القرآن الكريم والحديث

(١) تفسير الكشف ج / ١ ص ٢٩٥ وانظر باب الابدال في ج / ١٠ ص ٧ من

كتاب شرح المفصل لابن يعيش وتام البيت :

إذا السكرام ابتدروا الباع بدر تقضى البازي إذا البازي كسر

وأصله من اقضت .

(٢) كتاب العربية ليوهان فك : ص ٥١ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار

النبوى وكلام العرب . ولكن المحدثين يستشهد بشعرهم في المعاني كما كان يستشهد بشعر القدماء على القواعد ، يقول السيوطي في الاقتراح : « اجمعوا على أنه لا يحتاج بكلام المولدين والمحدثين في اللغة العربية وقد مال الزمخشري إلى استثناء أئمة اللغة العربية من ذلك داعيا إلى جعل الوثوق بكلامهم كالوثوق بروايتهم » ^(١) ومن ثم رأيناه في مؤلفاته وخاصة في الكشف والأساس يستشهد بأساليب المولدين وتعاييرهم ومعانيهم ، ذاهبا إلى أن المعاني يصل إليها المولدون والمقدمون ، وهو في ذلك يتابع ابن جني في انحصائص ^(٢) ، ومن العلماء من يسقط الاحتجاج بكلام الاسلاميين والمولدين جميعا في اللفظ والمعنى ذاهبين إلى الاحتجاج بكلام الأقدمين فقط في اللفظ والمعنى ، ويذهب « البغدادى » صاحب « الخزانة » إلى أنه لا يستشهد على اللغة والنحو والصرف إلا بكلام القدماء ، وأما المعاني والبيان والبديع فيستشهد عليها بكلام المولدين لأنها راجعة إلى المعاني ^(٣) . وموقف الزمخشري من جواز الاستشهاد على القواعد والمعاني بكلام طبقة خاصة من طبقات المحدثين والمولدين هي طبقة أئمة اللغة العربية وفحولها واضح لا يحتمل اللبس . إذ أخذت اللغة العربية في بداية عصر المحدثين نهضة جديدة اقترنت بأسماء : الكسائي وأبي زيد ، وأبي عبيدة والقراء ، والأصمعي وابن الأعرابي ، وابن السكيت والمبرد ، وثعلب ^(٤) الذي عد خاتمة الرواة . ومثل هؤلاء الأعلام من رواة اللغة وسدنتها كانوا يعدون اللغة العربية النقية الخالصة

(١) الاقتراح للسيوطي ص ٣١ الطبعة الأولى والكشاف ج ١ / ص ١٧٠

(٢) خصائص ابن جني ج ١ / ص ٢٢ ط الفجالة ١٩١٣

(٣) خزانة الأدب للبغدادى ج ١ / ص ٢٠

(٤) العربية : ليوهان فك : ص ٨٥ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار

هى القدوة المثلى والنموذج الرفيع ، لذلك كان من المنطقي في تفكير الزمخشري أن تقتن أنسس اللغة والقواعد العربية بتفكير هؤلاء الأئمة الكبار من حماة اللغة وأتمتها والروايات في ذلك كثيرة عن الزمخشري فحينما يستدل في تفسيره الكشف بشعر « لحبيب بن أوس » يقول : حبيب بن أوس - وان كان محدثا لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء اللغة العربية فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ، ألا ترى إلى قول العلماء ، الدليل عليه بيت الحماسة ، فيقتنعون بذلك لو ثوقهم بروايته واتقانه ^(١) . ويستدل الزمخشري حينما آخر بنثره ونظمه ^(٢) في تفسير المعاني اللغوية للألفاظ .

٢ - ولما كان الزمخشري يستشهد بالمولدين في اللغة فضلا عن المحدثين كان في كتبه ومؤلفاته استشهاد كثير بكلام مولد وبشعراء مولدين وكثر استدلاله على اللهجات العربية بمنطقة المولدين يقول :

١ - سمعت أهل السروات بمكة يقولون في دعائهم : « يا سيدى ومولى » ^(٣) .

٢ - ويقول : سمعت سرورية مستجدية بمكة وقت الظهر حين يغلق

(١) راجع تفسير الكشف : ج / ١ ص ١٧٠ ط الحلبي ١٩٤٨

(٢) يقول في كتابه الفائق ج / ٢ ص ٢٨٩ مادة « ف ق ر » : الاقصار : الاعارة للركوب من الفقر ، وفي بعض قرائن :

ألا أفقر الله عبدا أبت . عليه الدناوة أن يفقرا
ومن لا يعير قرى مركب . فقل : كيف يعقره لقرى؟

ويستدل أيضا في كتابه الفائق بعبارات من كتب عبد الحميد الكاتب - راجع الفائق

ح / ٣ ص ٢٢١ - وأنظر أيضا من هذه الناحية تفسير الكشف ج / ١ صفحة ٣٩٧

(٣) تفسير الكشف ح / ٢ ص ١٢٨

الناس أبوابهم ويأوون إلى مقابيلهم ، تقول : عييتني نويظرة إلى الله واليكم ^(١) .

٣ — قال في الأساس « عند مادة « ل ، م ، س » : سمعهم يقولون « المس لي فلانا » ^(٢) .

٤ — واستشهد في الفائق في مادة « ق ، ط ، ر » بأن ابن سيرين رحمه الله كان يكره القطر ^(٣) .

٥ — استدل بشعر للمبرد في مادة (ح ، و ، ر) وهو قوله :

إذا ما الحواريات علقن طنبت

بميتاء لا يألوك رافضها صخر ^(٤)

٦ — يقول عند تفسيره قوله تعالى (لا ريب فيه) : ونظيره قوله تعالى لا خير ، وقول العرب لا بأس به ، وهذه كثيرة في لسان أهل الحجاز ^(٥) .

ثالثاً — القاعدة بين القياس والاستعمال الشائع :

بقيت مسألة لا بد أن يعرض لها الزمخشري وهي موقف العلماء اللغويين من القياس اللغوي والاستعمال الشائع .

يقول الزمخشري في تفسيره قوله تعالى (وما أنتم بمصرخي) : فإن قلت جرت الياء الأولى مجرى الحرف الصحيح لأجل الادغام فكأنها ياء وقعت ساكنة بعد حرف صحيح ساكن ، فحركت بالكسر على الأصل . قلت :

(١) تفسير الكشاف ج / ٣ ص ٢٩٤

(٢) أساس البلاغة مادة (ل ، م ، س)

(٣) الفائق في غريب الحديث ٣٩١ ج / ٢

(٤) الفائق ج / ١ ص ٣٠٧

(٥) تفسير الكشاف ج / ١ ص ٨٨

هذا قياس حسن ولكن الاستعمال المستفيض الذى هو بمنزلة الخبر المتواتر
تقضاءل اليه القياسات (١).

وكتاب سيبويه يرينا كيف أن القواعد العربية اعتمدت على الاستعمال
اللغوى عند عرب البادية دون استثناء فهو يرجع دائماً إلى الاستعمال اللغوى
إلى العرب ولا يحميد فى ذلك عن ترجيح كفة اللسان الحجازى لأنه الأول
والأقدم وغالباً يكفى فى ذلك بعبارات عامة مثل : العرب الذين ترضى
عربيتهم أو (العرب الموثوق بعربيتهم) أو (عربى أثق بعربيته) (٢).

وكان الأصمى لا يكفى بالاستعمال اللغوى وحده ، بل يحكم فيه
القياس ويمتهد فى تنظيم الاستعمال اللغوى الدقيق بواسطة تعديدات معنوية
غاية فى الدقة ، ولا ريب أنه كان فى ذلك كثيراً ما يخالف المعانى
والاستعمالات التى ترد فى كلام البدويين . وادعى ابن الأعرابى : أنه
وجد ألف حالة سمع فيها من ثقافة البدويين ، تلك الصيغ التى ذكر الأصمى
انها خطأ ، وخالف غير ابن الأعرابى من علماء اللغة أيضاً الأصمى فى
أقواله وقد أنحى البطليموسى باللائمة على ابن قتيبة لأنه احتضن مذهب
الأصمى المتطرف (٣) (فى تنقية اللغة) دون أن يعنى بمذاهب آخرين من
ثقات العربية وعلمائها .

لقد كان هناك فريقان من علماء اللغة ، فريق حاول الاحتجاج على
السماع والتزامه والوقوف عنده ، وفريق القزم القياس واحتج به ، وقد
كان للفريق الثانى وهم أهل القياس الأثر الواضح فى حيوية اللغة وتجدها

(١) تفسير الكشاف ج / ٢ ص ٢٧٧

(٢) العربية — ليوهان فك ترجمة د. نجار ص ٥١

(٣) العربية — ليوهان فك ترجمة د. نجار ص ٩٠ ، ٩١

وتوسمها من نواح عدة ^(١) وهذه النزعة كانت قديمة ^(٢) من قبل أباام
الخليل ابن أحمد وتلميذه سيبويه ، إذ عاصرت مدرستهم مدرسة أخرى هي
مدرسة الرأي التي رفع شأنها أبو حنيفة النعمان وتلاميذه ^(٣) فبلغ القياس
ذروة ، مجده واستقر معمولاً به في اللغة إلى عصر أبي علي الفارسي في
المائة الرابعة ، من الهجرة ^(٤) وتلميذه ابن جنى ، وقد نهض به هذان
الامامان نهضة لم تكن للقياس من قبل . ونتعرف إلى منهج ابن جنى في
القياس من كتابه الخصائص الذي يدور حول القوص على أسرار اللغة
وأصولها ويستعمل القياس بقدر ما استطاع وتفق على أسقاده أبي علي
الفارسي تفوقاً ملحوظاً ولم يكتف بذلك بل ذهب إلى تعميم القياس
وتوسيم طرق الاشتقاق وهو الذي ابتكر الاشتقاق الكبير وكان يقول
مسألة واحدة من القياس أنبل وأنبه من كتاب لغة عند الناس ^(٥) .

وقد كان الثقافة الدينية أثر كبير في تنشيط القياس فانهم احتذوا
حذو أصول الفقه عند الحنفية خاصة فهذا ابن جنى يصرح بقوله ينتزع
أصحابنا العلل من كتب محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة فيجمع

(١) راجع ضحى الاسلام ج ٢ : ص ١٧٩ ، ٢٨١

(٢) قال محمد بن سلام المجعي في كتابه الغمراء ص ١٤ ان الحضرمي أول من جمع
النحو ومد القياس والعلل وكان أشد تجريداً للقياس من عمرو ابن العلاء وأنظر أيضا ص
١٥ ، ١٦ من نفس المصدر

(٣) راجع ضحى الاسلام الطبعة الخامسة ج ٣ : ص ٢٧٩ وما بعدها

(٤) أصول النحو — لسعيد الأفغاني — ص ٧٦ وما بعدها ط دمشق

(٥) الخصائص لابن جنى ج ١ / ص ٣٢٩ ، ٤٣٠ وأصول النحو ص ٨٢

وما بعدها .

بعضها إلى بعض بالملاطفة والرفق^(١) واستقر الحال حتى المائة السابعة
فيقول السيوطي في الاقتراح : « القياس بالنسبة إلى النحو كأصول بالنسبة
إلى الفقه ورتبته على نحو أصول الفقه في الأبواب والفصول والتراجم^(٢) .

ولقد كان للمعتزلة أثر كبير في اللغة حيث ان القياس أداته العقل ،
والعقل يلعب دورا أساسيا في فلسفتها وان أئمتها في النحو واللغة هم سيبويه
والفراء وأبو علي الفارسي والروماني وابن جني والزمخشري واضرابهم
وكلهم معتزلة وكما يظهر من قولهم أن اللغة اصطلاحية من وضع البشر
لا توفيقية^(٣) ، وكما يظهر أيضا من تحرر الجاحظ وأمثاله من المعتزلة في
تشقيقتهم الكلام واستعمالهم للمولد منه ومن الألفاظ بل الأعجمي . وقد
عربت الألفاظ الأعجمية في شتى العصور اللغوية ومن هذه الألفاظ العربية ،
ما جاءت في شعر لأبي بصير الأعشى وهي جلستان ، وبنفسج ، وسيسنبر ،
وشاهسفرم ، وزرجس وهي معربة عنه ، كلستان ، وبنفشه ، وسوسن بر ،
وشاه ابرم ، وزركس^(٤) ، وكلية الهربذ في شعر امرؤ القيس حيث
يقول :

إذا راعه من جانبيه كليهما مشى الهربذ في دفة ثم فر فرا^(٥)
وهي معربة : هيربذ ، بمعنى الأستاذ ، أو حامى النار الفارسية ، ومن
ذلك كثير كاستبرق ، وابريق ، وكنز ، وسجيل ، ، وهي معربة عن -

(١) الخصائص ١ : ص ١١١ وراجع ضعي الاسلام ج ٢ ص ٢٧٨ وما يليها

(٢) مقدمة الاقتراح - السيوطي - ص ٥

(٣) الخصائص ج ١ : ص ٣٦ ط الهلال بمصر

(٤) الصبح المنير في شعر أبي بصير ص ٢٠١ ، ١٤٥

(٥) ديوان امرئ القيس ص ١٠

استبرك ، وآب ريز وكفج ، وسنك وكل واشتقوا من زنديق — تزندق
ومن ديوان دون تدويننا وغير ذلك ^(١) .

والزمخشري وهو معتزلى مثل أئمة القياس من المعتزلة ينهج نهجهم
في التفكير اللغوى فيعمد إلى القياس فيجمله أحد الأصول العربية في قواعدها
ويضمه موضوع الأساس لأحكامها .

وذكر الزمخشري في تفسير قوله تعالى (الرحمن) فان قلت : كيف
تقول الله رحن أتصرفه أم لا (قلت) أقيسه على اخوانه من بابہ أعنى
نحو عطشان وعزنان وسكران فلا أصرفه فان قلت : قد شرط في امتناع
صرف فعلان أن يكون فعلان فعلى واختصاصه بالله يحظر أن يكون فعلان
فعلى فلم تمنعه الصرف قلت : كما حظر ذلك أن يكون له مؤنث على فعلى
كمعطشى فقد حظر أن تكون له مؤنث على فعلائة كندمانة ، فاذا لا عبرة
بامتناع التأنيث للاختصاص العارض فوجب الرجوع إلى الأصول قبل
الاختصاص وهو القياس على نظائره ^(٢) .

ومن ذلك أيضا ما ذكره في كلمة (الرحمن) بقوله أن في الرحمن من
المبالغة من حيث شموله الدارين — ما ايس في الرحيم . وقال : ان — الزيادة
في البناء لزيادة المعنى . كما ان العرب تسمى المركب الخفيف والمركب الثقيل
بالشقدف والشقنداف . فزادوا في بناء الاسم لزيادة المعنى ^(٣) . وهذا هو
الاستدلال بالقياس .

ولسكنه مع ذلك لا يغفل الاستعمال اللغوى وخاصة ما شاع منه . إذ

(١) العرب للجواليلى والاشتقاق والتعريب للمغربى ص ٤٧ — البيان والبيان ج ١

(٢) تفسير الكشاف ج ١ : ص ٣٥

(٣) تفسير الكشاف ج ١ : ص ٣٤

لم يهمله أئمة اللغة وشيوخها . ووضموه في منزلة خاصة وقدموه على القياس
إذ أن القياس لا يجيء إلا بعد أن يعتقد عدم وجود الاستعمال اللغوي .
وإذا خالف الاستعمال اللغوي القياس يرجح الاستعمال . والزمخشري
يقف معهم نفس هذا الموقف فيحتاج بالاستعمال ويقدمه على القياس إذا
كان شائما فالاستعمال الشائع عنده مرجح على الاستعمال اللغوي كما سبق
أن أشرنا إلى ذلك عما قريب .



الفصل الثاني

بين ابن جني والزمخشري

بين الزمخشري وابن جنى

١ — تقلد الزمخشري ثقافيا على أبي الفتح عثمان بن جنى (٣٠٠-٨٣٩٢) وقد قرأ تأليف أسقاده الروحى وخاصة الخصائص وأفاد منها ورجع إليها وتأثر بآرائها .

٢ — وابن جنى^(١) ينتمى إلى أصل رومى يونانى — وكان أبوه ملوكا لاسميان بن فهد الأزدي (م ٤١١ هـ) ويقول ابن جنى فيما بعد يذكر نسبة من قصيدة طويلة :

فان أصبح بلانصب فعلمى فى الـورى نسبى
على أنى أول إلى قوم سادة نجب
قياصرة إذا نطقوا أرم الدهر ذو الخطب
أولاك دعا النبى لهم كفى شرفا دعاء نبى

فتجده فى هذه الأبيات يذكر نسبه فى الروم ويعتز بنسبه فى العلم الذى يموضه عن كل نسب وقد ولد ابن جنى فى الموصل ونشأ وتعلم بها واخلف إلى مجالس العلم والدين واللغة والأدب ، فى مساجدها ومدارسها

(١) راجع مقدمة الخصائص تأليف ابن جنى وهى بقلم العلامة محمد على النجار وتاريخ الادب العربى لبروكلمان — ترجمة الدكتور عبد المليم النجار — ج ٢ ص ٢٤٤ — وأنباء الرواة للقفطى — ج ١ : ص ٣٣٢ إلى ٣٤٠ — وبقيمة الدهر للشمس ج ١ : ص ٧٧ وما بعدها ط الشام . ونزهة الالباء للابارى ص ٤٠٦ — ٤٦٩ — وتاريخ بندان للخطيب ج ١١ : ص ٣١١ — ووفيات الاعيان ج ١ : ص ٣٨٥ — ومعجم الادباء لياقوت ج ٥ ص ١٥ — ٣٢ ، بنية الوعاة للسيوطى ٣٢٢ .

وصحب أبا علي الفارسي أستاذه طيلة أربعين عاما وكان ذلك بعد عام ٥٣٣٧هـ على ما يروى الرواة . وبدأ ابن جني حياته العملية معلما ببلدة الموصل فلما قدمها أبو علي الفارسي تلمذ عليه ولازمه وتخرج على يديه وعهد إليه بالتدريس ببغداد فقبل . وقد أخذ كثيرا من رواة اللغة والأدب ، من مثل الأصمهاني مؤلف الأغاني وأحمد بن محمد الموصلي وابن مقسم وغيرهم من الذين كانوا يثق بهم وبأدبهم وعلمهم وسافروا ابن جني إل حلب فأقام فيها في بلاط سيف الدولة عدة سنين وتعرف على المتنبّي عند سيف الدولة وكان المتنبّي إذا سئل عن معنى حصل فيه غرابة دل على أبي الفتح .

وقد ألف كتبه في حياة أستاذه فأثنى عليها وعلى تلميذه ثناء كثيرا ، وألف المختص ، والخصائص ، والنصف والاعم ، والمبتدع ، والمغرب ، من المكّتب وشرح ديوان المتنبّي شرحا كبيرا وشرحا صغيرا .

وكان ابن جني ينوه بالمتنبّي ويستشهد بشعره في المعاني والأغراض وبصفه (بشاعرنا) ويقول الأستاذ محمد علي النجار عن ابن جني : أنه بلغ في علوم العربية من الجلالة والخطير ما لم يبلغه إلا القليل ، وصار مضرب المثل في معرفة النحو ، والتبريز فيه ، ويقول عقه الثعالبي في اليتيمية : « هو القطب في لسان العرب وإليه انتهت الرياسة في الأدب » وقد بلغ في اللغة والاحاطة بها منزلة كبيرة ويقول الأستاذ محمد علي النجار : أنه في علل العربية وتخريجها وبيان الحكمة في تصاريقها وإستخراج مناسبات الاشتقاق لا يشق له غبار^(١) وله شعر رائع^(٢) ذكر صاحب أنباء الرواة بعضها منه

(١) الخصائص ١/٣٣ .

(٢) أنباء الرواة ج ١/٣٣٨ .

ومنه مرثية طويلة في المتنبي^(١). وكان ابن جنى من مدرسة البصريين في النحو مثل أستاذه — أبي علي الفارسي وهو في كتبه ومباحثه يسير على أصول هذا المذهب ولما أقام ابن جنى في بغداد في أواخر عمره لم يعد من أصحاب المذهب البغدادي — لأنه كان حينئذ في أخريات حياته ، وكان في النحو والصرف حجة وأماما فيهما ، وكان الصرف أعظم شيء تفوق فيه والملازمة الصرفية أظهر ملكاته ، وأن كان اللغويون القدماء بلقبونه بالنحوي « لأن النحو كان يشتمل آنذاك الصرف أيضا . وابن جنى هو الذي أسس مبدأ الاشتقاق الأكبر ، الذي يبحث عما بين الصوت والمعنى من التناسب^(٢) وشرح مسائله ، وكان كاستاذه أبي علي الفارسي يؤمن بتوسيع اللغة عن طريق القياس والتوسع في الاشتقاق قياسا ومع ذلك ومع ما نعرفه من استاذية أبي علي له ، قد كان يخالفه في بعض الأحيان كما ذكر ابن جنى في مقدمة سر الصناعة في الكلام على « مرتبة الحركة من الحرف » حيث يقول « وقد ذكرنا في كتاب الخصائص فيما بعد فساد هذا القول من أبي علي رضي الله عنه » .

٣ — وقد كانت استاذية ابن جنى الفكرية للزمخشري مماثلة في القيمة العلمية لأستاذية أبي علي الفارسي لابن جنى وأن كان ابن جنى قد شاهد الفارسي ولم يعيش الزمخشري في عصر ابن جنى ولا رآه ومع ذلك فقد كان الزمخشري يجعل أستاذه ابن جنى — ويعظمه ويرفع من منزلته بين العلماء ، وقد ذكر الزمخشري ابن جنى في الكشف في عدة مواضع :

(١) يقول النحوي ج ٧٧/١ التيمية) كان الشعر أقل خلافة ويقول فيه صاحب المنتظم (ج ٧ / ص ٢٢٠) يقول الشعر ويجيد نظمه .

(٢) تاريخ الادب العربي — لبروكلمان — ج ٢ : ٢٤٤ .

(أ) في تفسير قوله تعالى « بدم كذب » يقول الزمخشري : قال ابن جنى : « أصله من الكذب : وهو الفوف البياض . الذى يخرج على أظفار الأحداث كأنه دم قد أثر في قميصه^(١) ،

(ب) وفي تفسير قوله تعالى « كلاسيكفرون » يقول الزمخشري ، وفي (محتسب) ابن جنى كلا بفتح الكاف والتنوين وزعم أن معناه ، كل هذا الرأي والاعتقاد كلا^(٢) .

(ج) وفي تفسير قوله تعالى « ولم أك بغيا » يخالف الزمخشري أستاذة ابن جنى في وزن بغى . فيذهب الزمخشري كالمبرد إلى أن وزنها فعول من حيث ذهب ابن جنى إلى أن وزنها فاعيل ، يقول الزمخشري : « والبغى : الفاجرة التى تبغى الرجال . وهى فعول عند المبرد : بغوى ، فأدغمت الواو فى الياء . وقال ابن جنى فى كتاب القمام : هى فاعيل ولو كانت فعولا ل قيل : بغو ، كما قيل : فلان نهو عن المنكر^(٣) » .

والزمخشري على أية حال قد نحى منحنى أستاذة ابن جنى فى الاشتقاق - والقياس اللغوى ، ويذهب كأستاذة إلى الاستدلال بالاستعمالات اللغوية الشائعة وبكلام المولدين ، وأن كان ابن جنى يجعل كلام المولدين حجة فى المعانى حيث يقول : فإن المعانى يقتضاهما المولدون كما يقتضاها المتقدمون وقد كان أبو العباس المبرد احتج بشيء بشعر حبيب بن أوس الطائى فى كتابه

(١) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ٢٧٦ .

(٢) تفسير الكشاف : ج ٢ ص ٢٩١ .

(٣) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ١٧٦ .

الاشتقاق لما كان غرضه معناه دون لفظه^(١) » من حيث يجعل الزمخشري كلام بعض المولدين وهم أئمة اللغة حجة في الاستعمال اللغوي - ذاهبا إلى أن مايقوله العالم باللغة بمنزلة ما يرويه ، والاستعمال الشائع عند ابن جنى مقدم على القياس^(٢) .

وقد كان الزمخشري كأستاذ ابن جنى متأثرا بالنزعة الاعتزالية التي أفادتها سعة في البحث وميلا إلى التجديد اللغوي وحبا للاستقلال في الرأي وإخضاع اللغة للمقاييس العقلية الدقيقة التي أفادت اللغة فائدة كبرى .

وكان الزمخشري ينحوي نحو المذهب البصري في النحو ، وقد جمع آراء - البصريين في كتابه « المنهل » وهو في عمومته صورة مفصلة ومبوبة لآراء سيبويه في « الكتاب » ومع ذلك^(٣) لم يكن يقنع بمذهبهم على المذاهب الأخرى بل كان يأخذ أحيانا من الكوفيين وحيثما آخر يخرج على اتفاق البصريين والكوفيين ويكون لنفسه رأيا مستقلا كما أشرنا في الأبواب السابقة وكان كأستاذ ابن جنى مع مذهبه البصري ، لا يمتنع عن أن يأخذ من الآخرين ويقول الأستاذ العلامة محمد علي النجار^(٤) . وكان الرجل -

(١) الخصائص لابن جنى ج ١ : ص ٢٤ .

(٢) الخصائص لابن جنى ج ١ : ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٣) قد أشار الزمخشري إلى ذلك في شعره بقوله :

فقل أين خلى سيبويه كتابة يقل حجر جار الله مأوى حالفا
وماني في رواة الكتب راوية له سوى واحد فانظر فلتت مصارفا

(٤) راجع ديوان الزمخشري ورقمه ٧٨ .

ابن جنى - مفهومهما بالعلم يأخذه عن أهله بصريا كان أو غيره فهو كثير النقل عن ثعلب والكسائى واضرا بهما وهو برىء من العصبية التى تعمى عن الحق .

وبالجملة فان آراء الزمخشرى فى اللغة وأصولها والاشتقاق وفروعه وفى القيمة التعميرية المحرف الواحد ، وفى القيمة الثنائية اللفظ وفى كثير من آرائه التجديدية كانت تنزع بسهم كبير إلى أصول ابن جنى اللغوية ، والنحوية ، والصرفية والاشتقاقية - ويتضح ذلك حليا مما سبق أفضنا الحديث فيه .

* * *

الفصل الثالث

مآخذ العلماء

على الزمخشري

مآخذ العلماء على الزمخشري :

(أ) أخذ علماء اللغة على الزمخشري بعض المآخذ ، وقد أكثر أبو حيان (٦٥٤ — ٧٤٥) من ذكر مآخذ نحوية وصرفية ولغوية ، أخذها عليه في تفسيره «الكشاف» ، وذكر كثيرا من ذلك في تفسيره الكبير «البحر المحيط» .

ب — فمن مآخذ العلماء على الزمخشري ما يلي :

١ — قال الزمخشري في مقدمة الكشاف : «أبكم من تحدى به من مصارع الخطباء» ، ويعلق السعيد الجرجاني على هذا بقوله ، «أخذه من بكم قياسا إذ لم يشتهر فعل بنى منه سوى ما نقله في الأساس من قواه «تكلم فلان فتبكم عليه إذا ارتج عليه»^(١)» وقد يجعل استعماله إياه بمنزلة روايته له ، فانه ثقة في اللغة .

٢ — وتحامل ابن مالك النحوي (٦٠٠ — ٦٧٢ هـ) على الزمخشري وردى عنه أنه كان يقول عن الشيخ جمال الدين ابن الحاجب أنه أخذ نحوه من صاحب «المفصل» وصاحب «المفصل» نحوي صغير^(٢) ويضيف صاحب «نفح الطيب» إلى هذا : أن لابن مالك كتابا عنوانه «الموصل في نظم المفصل» وقد حل هذا المنظوم فسماه «سبك المنظوم وفك المختوم»^(٣) . وقد ورد اسم كتاب ابن مالك «سبك المنظوم وفك

(١) تفسير الكشاف — حاشية السيد الشريف الجرجاني .

(٢) نفح الطيب — المقرئ المغربي — ج / ٧ ص ٢٥٧ وبغية الوعاة ، للسيوطي

(٣) نفح الطيب — ج / ٧ ص ٢٦٦ .

المختوم في ترجمات أصحاب المعاجم لابن مالك من مثل « بروكلمن —
ودائرة المعارف الإسلامية والزركلي^(١) ، ولكنهم لم يذكروا أنه شرح
المفصل ، وأما حاجي خليفة فيذكر في حديثه عن المفصل أن ابن مالك
شرح « المفصل » ولا يذكر اسم الكتاب .

وهذا القحامل من ابن مالك على الزمخشري تدفعه بكراهيته
للاعتزال خاصة إذا عرفنا أن العلماء المغاربة كانوا جميعا يكرهون الاعتزال
ويلقون السنة وذلك أثر الكراهية لهم لعلوم الرأي والفلسفة وما إليها ،
ولكن الشيء الذي نكاد نعتقد أنه هذه الكلمة مدسوسة على ابن مالك
لأنه درس على ابن يعيش (٥٥٣ - ٦٤٢ هـ) بحلب وابن يعيش هو شارح
المفصل ، والذي اتنى عليه وفضله ونوه بالزمخشري وقدره ، ولا بد أن
تلميذه ابن مالك قد أخذ عنه روح التقدير للفصل أو على الأقل روح
الإنصاف ، فضلا أن ابن مالك قد نظم المفصل ثم نشر هذا النظم فكان له
عملين على المفصل مما يوحى بمنزلة المفصل عنده ، فكيف يمكن أن يقصور
أن يقول عن الزمخشري صاحب المفصل بأنه نحوي صغير . أنى لا كاد
أثقل ذلك أو أتصوره ، وإنما المقول أن تكون هذه الكلمة مدسوسة
على ابن مالك من خصوم الزمخشري في الرأي والعقيدة .

٣ — وكثيرا ما يعقب المفسر الأندلسي أبو حيان في تفسيره البحر
المحيط على آراء الزمخشري ، على أن اعتراضاته وتعليقاته ، لم تكن
كلها صوابا وربما اختلط عليه الأمر في تمييز الاصطلاحات لدى النحويين
والبليانين ، وقد لاحظ ذلك ابن هشام فقال : « للبليانين في الاعتراض »

(١) أعلام الذهب - للزركلي - في وفيات عام ١٣٧٢ هـ .

اصطلاحات مخالفة لاصطلاح النجويين والزمنخشي يستعمل بعضها كقوله في تفسير قوله تعالى « ونحن له مسلمون » يجوز أن يكون حالا من فاعل نعيد ، أو مفعوله وأن تكون معطوفة على نعيد وأن تكون اعتراضية مؤكدة ، ويرد عليه مثل ذلك من لا يعرف هذا العلم كأبي حيان توهمًا منه أنه لا اعتراض إلا ما يقوله النجوي^(١) .

(ج) ومن آراء أبي حيان في نقد الزمنخشي ما يلي :

١ - قال الزمنخشي في تفسير قوله تعالى « ثم كان عاقبة الذين أساؤا السواى أن كذبوا » يجوز أن تكون « أن » بمعنى أى تفسير الاساءة . التكذيب والاستهزاء ووجه آخر وهو أن يكون أساؤا السواى بمعنى اقترفوا الخطيئة التى هى أسوأ الخطايا . وأن كذبوا عطف بيان لمؤلا ، وخبر كان محذوف لارادة الابهام « انتهى ، يملق أبو حيان على هذا الرأى بقوله وأما كون أن هنا حرف تفسير متكلف جدا وأما قوله الخطايا فكذا هو فى النسخة التى طالعناها جمع جمع التفسير بالألف والقاء وذلك لا ينقاش إنما يقتصر فيه على مورد السماع ولا يبعد أن تكون زيادة القاء فى الخطايا من الناسخ وأما قوله وأن كذبوا عطف بيان لما أى للسواى وخبر كان محذوف إلى آخره . فهذا فهم أعجمى لأن الكلام مستقل فى غاية الحسن ، فلا حذف ، فتكلف له محذوفًا لا يدل عليه دليل ، وأصحابنا لا يجيزون حذف خبر كان وأخواتها لاقتصارا ولا اختصارا ، إلا أن ورد منه شيء فلا يقاس عليه^(٢) .

٢ - قال جابر الله فى تفسير الآية الكريمة « قل إنما أعظكم بواحدة »

(١) معنى اللبيب - لابن هشام - ج ٢/ ص ٥٦ .

(٢) تفسير البحر المحيط - لأبي حيان - ج ٧/ ص ١٦٤ .

أى بخصلة واحدة وهو فسرهما بقوله أن تقوموا على أنه عطف بيان لها .
وقال أبو حيان : هذا لا يجوز لأن بواحدة — ككرة — وأن تقوموا معرفة
لقتديره قيامكم لله وعطف البيان فيه مذهبان أحدهما : أنه يشترط فيه أن
يكون معرفة من معرفة وهو مذهب بصرى والثانى : أن يتبع ما قبله فى
التعريف والتنكير وهو مذهب كوفى وأما التحالف فلم يذهب إليه ذاهب
وإنما هو وهم قائله ^(١) .

٣ — قال الزمخشري فى أعراب الآية الكريمة « أن نظن إلا ظنا » ،
أن أصله نظن ظنا ومعناه إثبات الظن فحسب ، فأدخل حرفا النفي
والاستثناء ليفاد لإثبات الظن مع نفي ماسواه وزيد نفي ماسوى الظن
توكيدا لقوله « وما نحن بمستقيمين » ويرد على ذلك أبو حيان
بقوله : هذا كلام من لاشعوره بالقاعدة النحوية من أن التفريع
يكون فى جميع المعمولات من فاعل ومفعول وغيره إلا المصدر
المؤكد فإنه لا يكون فيه ^(٢) .

٤ — قوله تعالى « لاريب فيه » اختار الزمخشري أن « فيه » خبر
وبذلك بنى عليه سؤالا ذكره فى قوله « هلا قدم الظرف على الريب كما
قدم على « الغول » فى قوله تعالى « لافيهما غول » وقد أجاب الزمخشري
عن ذلك بأن القصد فى إيلاء الريب « حرف النفس » نفي الريب عنه ،
وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد
عن المراد وهو أن كتابا آخر فيه الريب لافيه . . . » ويعلق أبو حيان
على ذلك بقوله : وقد انتقل الزمخشري من دعوى الاختصاص بتقديم

(١) تفسير البحر المحيط — لابی حیان — ج ٧ / ص ٢٩٠ .

(٢) تفسير البحر المحيط — لابی حیان ج ٨ / ص ٥٢ .

المفعول إلى دعواه بتقديم الخبر ولانعلم أحدا يفرق بين ليس في الدار رجل وليس رجل في الدار ، وأبعد من ذلك ذهب إلى أن قوله لاريب صيغة خبر ومعناه النهى عن الريب ^(١) .

٥ -- يقرر الزمخشري بأن الاضافة في قوله تعالى « أو كفارة طعام مساكين » مبينة كأنه قيل : أو كفارة من طعام مساكين ، كقولك : خاتم فضه بمعنى خاتم من فضه ، يرد عليه أبو حيان بأن هذه ليست من هذا الباب لأن خاتم فضه من باب إضافة شيء إلى جنسه والطعام ليس جنسا للكفارة إلا بتجاوز بعيد ؛ وقرأ باقي السبعة بالتنوين ورفع طعام ^(٢) .

٦ -- يقول صاحب الكشف في أعراب الآية الكريمة « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » أن الجملة موضع خبر عن الذين يؤمنون بالغيب وذهب به مذهب الاستثناف وذلك لوضوح تعلقه بما قبله . يرد عليه أبو حيان بأن هذا الأعراب منكر ، والمختار في الأعراب الجر على النعت والقطع أما للنصب وأما للرفع ^(٣) .

٧ -- يرى الزمخشري أن « الغيب » في الآية « الذين يؤمنون بالغيب » على وزن فيعمل مخفف كما قيل ، وأصله قيل ، ويرد عليه أبو حيان بأن هذا مذهب التخفيف ولا يصار إليه حتى يسمع نقلا عن العرب ^(٤) .

٨ -- يذهب الزمخشري إلى أن اللام « الناس » في الآية الكريمة

(١) تفسير الكشف ج/١ ص ٨٧ - تفسير البحر المحيط ج/١ ص ٣٣ .

(٢) تفسير البحر المحيط ج/١ ص ٢١ .

(٣) تفسير البحر المحيط ج/١ ص ٤٠٠ .

(٤) نفس المصدر .

«ومن الناس من يقول آمنا» بأنه أن كانت للجنس كانت من نكرة موصوفة وأن كانت للعهد كانت موصولة ويرد عليه أبو حيان بأن مذهب الزمخشري غير صحيح حيث أنه أراد جعل مناسبة الجنس للجنس والعهد للعهد ، ولا تلازم بينهما ، بل يجوز أن يكون اللام للجنس ومن موصولة ويجوز أن تكون للعهد ومن نكرة موصولة فلا تلازم بين ما ذكره (١) .

٩ — يذهب الزمخشري في « ألا » أنها حرف تنبيهية وأنه مركب من همزة استفهام ولا النافية لتدل على تحقيق ما بعدها ، والاستفهام إذا دخل على النفي أفاد تحقيقا ، يرد عليه أبو حيان بقوله : والذي نخشاه أن « ألا » التنبيهية حرف بسيط وأن دعوى التركيب خلاف الأصل وزعم أن همزة الاستفهام إذا دخلت على لا النافية تفيد تحقيق ما بعدها خطأ ، لأن مواقع « ألا » تدل على أن لا ليست للنفي حتى يتم ما ادعوه ، ألا ترى أنه تقول : ألا أن زيدا منطلق ليس أصله لا أن زيدا منطلق إذ ليس من تراكيب العرب (٢) .

١٠ — ويذهب الزمخشري إلى أن « اظلم » في قوله تعالى د وإذا أظلم عليهم ، مقعد واستدل بشعر حبيب بن أوس - « ها اظلم حالي تمت أجليا » - فيرد عليه أبو حيان بأن « اظلم » غير متعدي بنفسه واسكنه بتعدي بحرف جر ، ثم ينقذه في هذا الاستشهاد بقوله : كيف يستشهد بكلام من هو مولد وقد صنف الناس فيما وقع له من اللحن في شعره وقد نقد أبو علي الفارسي الاستشهاد بقول حبيب .

(١) تفسير البحر المحيط - لأبي حيان - ج ١ / ص ٥٤ .

(٢) تفسير البحر المحيط - لأبي حيان - ج ١ / ص ٩١ .

من كان مرعى عزمه وهومه روض الامالى لم يزل مهزولا^(١)

١١ - زعم الزمخشري بان ذكر - كلما - مع الاضائة - و - إذا - مع الأظلام فى قوله تعالى « كلما أضاء لهم ... وإذا أظلم ... دليل على حرصهم وأن همهم معقودة بذلك من إمكان المشى وتأتيه فـ كلما صادفوا منه فرصة انتهزوها وليس كذلك التوقف والتعجس انتهى . يعلق على ذلك أبو حيان بقوله : ولا فرق عندى فى هذه الآية بين كلما وإذا من جهة المعنى لأنه متى فهم التكرار من كلما أضاء لهم مشوا فيه لزم التكرار منه أيضا فى أنه وإذا أظلم عليهم قاموا ، لأن الأمر دائر بين إضاءة البرق والأظلام فمتى وجد هذا فقد هذا فيلزم من تكرار وجود هذا تكرار عدم وجود هذا على أن من النحويين من ذهب إلى أن « إذا » تدل على التكرار كلما وأنشد :

إذا وجدت أوار الحب فى كبدى أقبلت نحو شقاء القوم أبترد^(٢)

١٢ - يقول الزمخشري فى أعراب قوله تعالى : « وبشر الذين آمنوا » فان قلت - علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهى يصح عطفه عليه - قلت - ليس الذى اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشا كل من أمر أو نهى ، إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين فهمى معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين كما تقول زيد يعاقب بالقييد والارهاق وبشر عمرا بالعفو والاطلاق^(٣) ويجوز أيضا أن يكون معطوفا على قوله « فاتقوا النار » واسكن أبا حيان يرد عليه هذا الأعراب بقوله :

(١) تفسير البحر المحيط - لابی حيان - ج / ١ ص ٦١ .

(٢) تفسير البحر المحيط - لابی حيان - ج / ١ ص ٩١ .

(٣) تفسير الكشاف ج / ١ ص ١٩٦ .

وتلخص من هذا أن عطف الجمل بعضها على بعض ليس من شرطه أن تتفق معاني الجمل فعلى هذا يجوز عطف الجملة الخبرية على الجملة خبر الخبرية وهذه المسألة فيها اختلاف ، ذهب جماعة ومنهم سيبويه بأنه ليس بشرط فبذلك يعمشى أعراب الزمخشري وأبى البقاء وأجاز الزمخشري وأبو البقاء أيضا أن يكون « بشر » معطوفا على « فاتقوا النار » ليكون عطف أمر على أمر كقولك - « يا بنى تميم أحمذوا عقوبة ما جنيتم » « وبشر يا فلان بنى أسد باحسان إليهم » وهذا الذى ذهبوا إليه خطأ لأن قوله « فاتقوا » جواب للشرط وموضعه جزم والمعطوف على الجواب جواب ولا يمكن فى قوله « وبشر » أن يكون جوابا لأنه أمر بالإشارة وليس قوله وبشر أعرابه مثل ما مثل به يا بنى تميم ... الخ . لأن قوله « احمذوا » لا موضع له عن الأعراب بخلاف قوله « فاتقوا » فلذلك أمكن فيما مثل به العطوف ولم يمكن فى « وبشر »^(١)

١٣ - يزعم الزمخشري بأن « البشارة » هى الأخبار بما يظهر سرور الخبر به . وأدل قوله تعالى « وبشرهم بمذاب أليم » بالاستهزاء والسخرية الشديدة وقال سيبويه : أنه خير يؤثر فى البشارة من حزن أو سرور وقال ابن عطية : الأغلب استعماله فى الخير وقد يستعمل فى الشر أيضا مقيدا به منصوفا على الشر المبشر به وعلى العموم متى أطلق لفظ البشارة يحمل على الخير ، يعلق أبو حيان على هذا بقوله : ولنا ما يخاف قول ابن عطية والزمخشري بدليل قول سيبويه وغيره ، وأن البشارة أول خبر يرد على الانسان من خير كان أو شر وسمى بذلك لتأثيره على البشرية وقال تعالى « يبشرهم ربهم برحمة منه » ، وقال تعالى « فبشرهم

بمذاب أليم » ولكن الزمخشري جعل عكس هذا في الكلام^(١) .

١٤ — أجاز الزمخشري أن يكون « من ثمرة » في الآية الكريمة « ومن ثمرة إذا أثمر » بيانا على سبيل قولك « رأيت منك أسدا » أى أنت أسد ويرد عليه أبو حيان : بأن كون من المبيان ليس مذهب المحققين من أهل العربية بل تأولوا ما استدل به ولو فرضنا مجيء من المبيان لما صح تقديرها للمبيان هنا لأن القائلين بأن من المبيان قدروها وجعلوه صدرا لموصول صفة أن كان قبلها معرفة نحو (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) أى الرجس الذى هو الأوثان وأن كان قبلها نكرة فهو يعود على تلك النكرة نحو من يضرب من رجل أى هو رجل ومن هذه ليس قبلها ما يصح أن يكون بيانا له لانكره ولا معرفة إلا أن كان يتمم لذلك^(٢) .

١٥ — يذهب الزمخشري في اعراب قوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » بأن المضاف إليه هنا محذوف وتقديره أسماء التسميات لكونه معلوما مدلولا عليه بذكر الأسماء لأن الأسم لا بد له من مسمى وعوض منه اللام كقوله « واشتعل الرأس^(٣) » ويلمح على هذا أبو حيان بقوله : تعويض اللام عن الاضافة ليس من مذهب البصريين ثم يعمقه تلميذه ابن مكنوم بقوله : وعلى تقدير ذلك لا يصح هنا لأن اللام عند من جعلها عوضا إنما يكون المعوض عنه المضاف إليه ضمير وهنا لم يقدروه إلا اسما ظاهرا فلا يجوز لأعلى رأى بصرى ولا كوفى^(٤) .

(١) تفسير البحر المحيط - لابی حیان - ج / ١ ص ١٠٩ - ١١١ .

(٢) تفسير البحر المحيط - لابی حیان ج / ١ ص ١١٤ .

(٣) تفسير الكشف ج / ١ ص ١٢٠ .

(٤) تفسير البحر المحيط ج / ١ ص ١٤٦ .

١٦ — ذهب الزمخشري بأن « الذى » فى قوله تعالى ، د كمثل الذى استوقد ناراً « واقع موقع الذين كقولى تعالى « خضتم كالذى خاضوا » وذلك لسببين أحدهما أن - « الذى » لكونه وصله إلى وصف كل معرفة بمجمله وتكاثرت وقوعه فى كلامهم ولكونه مستطالاً بصلته حقيقة بالتخفيف ولذلك نهى عن كونه بالحذف فحذفوا ياءه ثم كسرتة ثم اقتصروا به على اللام وحدها فى أسماء الفاعلين والمفعولين والثانى أن جمعه ليس بمنزلة جمع غيره بالواو والنون وإنما ذاك علامة لزيادة الدلالة ألا ترى أن سائر الموصولات لفظ الجمع والواحد فيهن واحد^(١) ويرد على ذلك أبو حيان بقوله : ما ذكره من أن جمعه ليس بمنزل جمع غيره بالواو والنون صحيح من حيث اللفظ وأما من حيث المعنى فليس كذلك بل هو مثله من حيث المعنى ألا ترى أنه لا يكون واقفاً إلا على من اجتمعت فيه شروط ما يجمع بالواو والنون من الذكورية والعقل ، ولا فرق بين الذين يفعلونه والفاعلين ، من جهة أنه لا يكون إلا جمعا لمذكر عاقل ولا كنه لما كان مبنياً للقرم فيه طريقة واحدة فى اللفظ عند أكثر العرب ، وهذيل أتت بصيغة الجمع فيه بالواو والنون رفعا والياء والنون نصبا وجرا وكل العرب التزمت جمع ضمير العائد عليه من صائته كما يعود على الجمع للمذكر العاقل فدل هذا كله على أن ما ذكره ليس بمسوغ لأن يوضع موضع الذين ، ألا على التأويل الذى ذكرناه من إرادة الجمع أو النوع وقد رجع إلى ذلك الزمخشري أخيراً^(٢) .

١٧ — ذهب سيبويه والجمهور إلى أن « الفاء » فى قوله تعالى

(١) تفسير الكشاف ج / ١ ص ١٥٠ .

(٢) تفسير البحر المحيط - لابی حیات - ج / ١ ص ٧٧ .

« أفلا تعقلون » للعطف وكان الأصل تقديمها ولكن بما أن الهمزة الصدر قدمت على الفاء ولكن الزمخشري يزعم أن « الفاء » واقعة موقعها ويقدر بين « الهمزة والفاء » فعلا محذوفا يصح العطف بالفاء عليه ، وحكم « الواو ونم » حكم الفاء في نحو أو لم يسيرا ، أتم إذا ما وقع ويقال أن الزمخشري رجع فيما بعد إلى قول الجمهور^(١) .

١٨ - قرر الزمخشري أن قوله تعالى « فانه نزله » جواب قوله تعالى « من كان عدوا » ويرد عليه أبو حيان بقوله : هذا خطأ لما تقرر في علم العربية من أن اسم الشرط لا بد أن يكون في الجواب ضمير يعود عليه ، ... وأن قوله « فانه نزله على قلبه » ليس فيه ضمير يعود على « من » لمضى فعل التعزيل فلا يصح أن تكون الجملة جزاء . وإنما الجزاء محذوف لدلالة ما بعده عليه^(٢) .

١٩ - ذهب الزمخشري إلى أن « أم » في الآية الكريمة « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت » متصلة ويقدر قبلها محذوف ، ويرد عليه أبو حيان بقوله : لاتعلم أحدا أجاز حذف هذه الجملة ولا يحفظ ذلك لافي شعر ولا غيره ، فلا يجوز أم زيد وأنت تريد أقام عمرو أم زيد^(٣) .

٢٠ - ذهب جار الله في أعراب قوله تعالى « ونحن له مسلمون » بأنها جملة اعتراضية أي ومن حالنا أنا له مسلمون مخلصون أو مدعنون ، ويرد عليه أبو حيان هذا الأعراب بقوله : أن الذي ذكره النحويون أن جملة الاعتراض هي الجملة التي تفيد تقوية بين جزأي موصول صلة أو بين جزأي اسناد نحو قوله وقد أدر كتنى والحوادث جملة — أو بين فعل

(١) تفسير ابن مکتوم على هامش تفسير المحيط لابی صیان ج / ١ ص ١٦٠

(٢) تفسير البحر المحيط - لابی حیان - ج / ١ ص ٣٢ .

(٣) تفسير أبي حيان ج / ١ ص ٢٠٠ .

شرط وجوابه أو بين قسم وجوابه أو بين منعموت ونعمته أو ما أشبه ذلك فما بينها تلازم ما وهذه الجملة التي هي ونحن له مسلمون ليست من هذا الباب لأن قبلها كلاما مستقلا وبعدها كلام مستقل وهو قوله « تلك أمة قد خلت »^(١).

٢١ — أجاز الزمخشري أن ينصب « الها » في قوله تعالى « الها واحدا » على الاختصاص أى نريد بالهك الها واحدا . ويرد عليه أبو حيان بقوله : نص النحويون على أن المنصوب على الاختصاص لا يكون نكرة ولا مبهما^(٢).

٢٢ — يفسر الزمخشري « قد » في قوله تعالى « قد نرى تقلب وجهك » بمعنى « ربما نرى ومعناه » كثرة الرؤية « ويرد عليه أبو حيان بقوله : وشرحه هنا على التحقيق متضادا لأنه شرح « قد نرى » « ربما نرى » و « رب » على مذهب النحويين إنما تكون لتقليل الشيء في نفسه أو لتقليل نظيره ثم قال الزمخشري ومعناه كثرة الرؤية فهو مضاد للمدلول « رب » على مذهب الجمهور ثم على هذا المعنى الذى ادعاه هو كثرة الرؤية لا يدل عليه اللفظ لأنه لم يوضع لمعنى الكثرة وإنما فهمت الكثرة من متعلق الرؤية^(٣).

٢٣ — أجاز الزمخشري نصب قوله تعالى « علام الغيوب » على الاختصاص أو على النداء أو هو صفة لاسم ان .. ويرد عليه أبو حيان بقوله : بأن هذا الوجه الأخير لا يجوز لأنهم أجمعوا على أن ضمير المتكلم

(١) تفسير البحر المحيط — لابی حیان ج / ١ ص : ٤٠٣

(٢) تفسير البحر المحيط — لابی حیان ح / ١ ص : ٤٠٣

(٣) تفسير البحر المحيط — لابی حیان ج / ١ ص : ٤٢٧

وضمير المخاطب لا يجوز أن بوصف وأما ضمير الغائب ففيه خلاف شاذ
للإكسائي (١).

٢٤ — قال الزمخشري في معنى قوله تعالى : « لأواه حلیم » ان « اواه »
كلال من اللؤلؤ وهو الذي يكثر التأوه ومعناه أنه لقرط ترجمه ورقته
وحله كان يتمطف على أبيه الكافر ، ويرد عليه أبو حيان بقوله : ان
تشبيه أواه من أوه بلال من اللؤلؤ ليس بجيد لان مادة أوه موجودة في
صورة أواه ومادة لؤلؤ مفقودة في لؤلؤ لاختلاف التركيب إذ لؤلؤ ثلاثي
ولؤلؤ رباعي وشرط الاشتقاق التوافق في الحروف الأصلية (٢).

٢٥ — قال الزمخشري في اعراب الآية الكريمة « ان ربى اسمع
الدعاء » من اضافة فعيل إلى فاعله ويجعل دعاء الله سمعاً على الاستناد
الحجازى والمراد سماع الله ويقول أبو حيان في رده : هذا بعيد لاستلزامه
أن يكون من باب الصفة المشبهة والصفة متعمدة ولا يجوز ذلك إلا على
رأى أبى على الفارسي حيث لا يكون ليس وأما هنا فاللبس حاصل إذ
الظاهر أنه من إضافة المثال إلى المفعول لا من اضافته إلى الفاعل وإنما
أجاز ذلك الفارسي في مثل « زيد ظالم العبيد » إذا علم أن له عبيداً
ظالمين (٣).

٢٦ — قال الزمخشري في اعراب الآية الكريمة « فهى ظالمة » ..
فهى خاوية « بأن محل الجملة الأولى من الاعراب النصب والثانية لا محل
لها لأنها معطوفة على « أهلكناها » وهذا الفعل ليس له محل ، ويرد عليه

(١) تفسير البحر المحيط - لابی حیان - ج / ٤ ص ٤٩

(٢) تفسير البحر المحيط - لابی حیان - ج / ٥ ص ١٠٦

(٣) تفسير البحر المحيط - لابی حیان - ج / ٥ ص ٢٤٤

ذلك صاحب البحر المحيط بقوله: هذا الوجه ليس بجهل لأن فكاي الأجد
في أعرابها أن تكون مبتدأ والخبر الجملة من قوله أهلكناها فهي في
فهي في موضع رفع والمطوف على الخبر خبر فيكون قوله تعالى د فهي
خاوية في موضع رفع^(١).

٢٧ — يقول جار الله في معنى قوله تعالى د وقره أعين لنا ، بأن
د أعين ، جاء بصيغة جمع القلة دون عيون الذي هو جمع كثرة لأنه أريد
أعين للمقين وهي قليلة بالنسبة إلى عيون غيرهم ، ويلحق على هذا أبو حيان
بقوله : هذا ليس بجهد لأن أعين تطلق على عشرة فما دونه من الجمع
والمثقون ليست أعينهم عشرة بل هي عيون كثيرة جدا وأن كانت عيونهم
قليلة بالنسبة إلى عيون غيرهم ، فهي من الكثرة بحيث تفوت العدد^(٢)
٢٨ — يجعل الكوفيون د الباء في اسم الله « للاستعانة نحو كتبت
بالقلم وموضعها النصب أي د بدأت « وقدر الزمخشري فعلا غير بدأت -
وجمله متأخرا - تقديره - بسم الله أقرأ - أو - أتلو - والتقديم على
العامل عنده يوجب الاختصاص ، ولكن أبا حيان يرد عليه بقوله : ذهب
جمهرة النحويين إلى تقديره مقدما لاعلى سبيل الحصر ، على أن التقديم قد
يكون للاهتمام بالاحصر^(٣).

٢٩ — لتقارب معنى د - غير - و - لا - أجاز الزمخشري أنا زيدا
غير ضارب ، قال : كما جاز أنا زيدا لا ضارب . و أوردها على أنها مسألة

(١) تفسير البحر المحيط - لابي حيان - ج ٦ / ص ٣٧٦ .

(٢) تفسير البحر المحيط - لابي حيان - ج ٦ / ص ٥١٧ .

(٣) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٢ .

وتفسير البحر المحيط ج ١ ص ١٦ .

مقررة مفروغ عنها ليقوى التناسب بين - غير ولا - إذ لم يكن يذكري بينهما خلاف ثم يعلق أبو حيان على ذلك بقوله : وهذا الذى ذهب إليه الزمخشري مذهب ضئيف جدا ... لأن كون اللفظ يقارب اللفظ فى المعنى لا يقضى بأن يجرى أحكام عليه ^(١) .

٣٠ - إياك - فى مثل - قوله تعالى « إياك نعبد - مفعول مقدم والزمخشري يزعم أنه لا يقدم على العامل إلا للتعريض فكأنه قال : ما نعبد إلا إياك ثم يعلق أبو حيان على هذا بقوله : التقديم عندنا هو للاعتناء والاهتمام بالمفعول ^(٢) .

٣١ - قال الزمخشري فى قوله تعالى : « خشعا أبصارهم » بأن خشعا على بخشمن أبصارهم وهى لغة من يقول «أكلوني البراغيث وهم طيء» ، ويرد عليه أبو حيان بقوله : لا يجرى جمع التـكسير يجرى جمع السلامة فيكون على تلك اللغة النادرة القليلة وقد نص سيبويه على أن جمع التـكسير أكثر فى كلام العرب فكيف يكون أكثر ويكون على تلك اللغة النادرة القليلة وقال الفراء « حين ذكر الأفراد مذكرا ومؤنثا وجمع التـكسير قال لأن الصفة ، متى تقدمت على الجماعة جاز فيها جميع ذلك والجمع موافق للفظها فكان أشبه » انتهى كلام الفراء ، ثم يقول أبو حيان : وإنما يخرج على تلك اللغة إذا كان الجمع مجموعا بالواو والنون نحو مررت بقوم كريمين آباؤهم ، والزمخشري قاس جمع التـكسير على هذا الجمع السالم وهو قياس فاسد ، ويرده النقل عن العرب « أن حمم التـكسير أجود من الأفراد ^(٣) » .

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٨ تفسير البحر المحيط ج ١ / ص ٢٤ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٨ تفسير البحر المحيط ج ١ ص ٢٤ .

(٣) تفسير البحر المحيط - لأبى حيان - ج ٣ / ص ٢٢٥ .

٣٢ - قال الزمخشري في تفسير الآية الكريمة « يريد الله ليعين لكم »
 أى يريد الله أن يعين لكم فزيدت اللام مؤكدة لارادة التبيين كما زيدت
 في « لا أبأ لك » لتأكيد إضافة الأب والمعنى « يريد الله » أن يعين لكم،
 انتهى الكلام . ويرد عليه أبو حيان بقوله : كلامه هذا خارج عن
 أقوال البصريين والكوفيين ، أما كونه خارجا عن أقوال البصريين
 فلانه جعل اللام مؤكدة مقوية لتعمد « يريد » والمفعول متأخرا . وأضمر
 أن بعد هذه اللام وأما كونه خارجا عن أقوال الكوفيين فلأنهم يجعلون
 النصب باللام لا بأن وهو جعل النصب بأن مضمرة بعد اللام ^(١) .

ومن هذه الملاحظات والمآخذ الكثيرة التي أخذها أبو حيان على
 الزمخشري مما ذكرناه هنا اكتفاء به عما لم نذكره نجد أن أبا حيان ناقش
 الزمخشري بذوقه اللغوي النحوي المتمكن وكان الزمخشري في أغلب الأمر
 واقفا عند حدود بلاغة الآيات كما فهمها بذوقه الخاص .. وكان أبو حيان
 في أكثر نقده محكما لمذاهب النحو في آراء الزمخشري وهذه المذاهب لم يكن
 الزمخشري يتبناها في أغلب الأمر حيا منه الاجتهاد ودفعها لوصمة التقليد .
 ومهما كان فإن أبا حيان كان مصيبا في مواضع من نقده ومتعاملا
 متجنبيا في مواضع أخرى .

على أن ملاحظات أبا حيان تنصب كلها أو جلها على آراء الزمخشري
 النحوية واللغوية في تفسيره وليس منها شيء يقتصل بمذهب الزمخشري
 اللغوي ولا بأصول آرائه النحوية .

ويبدو أن المعركة بين الزمخشري وأبي حيان كانت تنحصر فيها بعض
 العناصر الأخرى من مثل اعتزالية الزمخشري أو خوارزميته وغير ذلك
 من العوامل .

الفصل الرابع

تجديد الزمخشري اللغوي

تجديد الزمخشري اللغوى :

يعيش الزمخشري بيننا فى العصر الحاضر، متجددا فى آرائه وأفكاره،
وفى نظراته اللغوية وتفكيره الذى ينطبق على تفكير علمائنا اللغويين
المعاصرين .

ومن مظاهر تجديد الزمخشري اللغوى ما يلى :

١ - تسهيل اللغة على أصحابها والناطقين بها يجعل كلام علمائنا فى
كل عصر حجة على اللسان اللغوى يؤخذ به ويرجع اليه ، فما بالناس باصطلاح
علماء اللغة الموجودين فى عصر من العصور على مسألة من المسائل ، لا شك
انه يكون أقوى فى الأخذ اللغوى من كلام فرد واحد . وهذا الاصطلاح
موجود اليوم فى المجامع اللغوية المبنوثة فى بعض عواصم العالم العربى ،
فلا ريب فى أن اصطلاحها اللغوى على شىء أو مسألة لغوية يكون حجة فى
الاستدلال .

٢ - توسع الزمخشري فى القياس اللغوى كأستاذ ابن جنى يعطى
اللغة مرونة وخصبا ونما وتجدداً كثيراً فلا شك أن ذلك من أسباب ثراء
اللغة ونموها .

٣ - كذلك توسعه فى الاشتقاق يحمل اللغة فلسفة لغوية مفهومة ولا
يحمل الألفاظ عبثاً ثقيلاً لا يعرف معناه ولا مفزاه عند الناطقين بها من
أصحاب اللسان العربى .

٤ - ادخال الاستشهاد بكلام المولدين فى الاستدلال اللغوى كما
فعل الزمخشري فى الأساس يتيح لنا أن نصنع هذا الصنيع فى لساننا اللغوى
الحاضر فنأتى بشواهد فى معاجمنا اللغوية من كلام أعلام الأدباء والكتاب

في العالم العربي من ذوى الأصالة والثقافة العربية الواسعة واللسان اللغوى المحافظ ممن يسمون في عرف النقاد المجددين « أدباء كلاسيكيين » .

٥ — ويتصل بتجديد الزمخشري اللغوى أنه انفرد ببعض المواد اللغوية التي ذكرها في الأساس ولم ترد عند غيره من اللغويين المتقدمين ولا في المعاجم اللغوية السابقة على الأساس .

ومن ذلك مادة « استغلف » وهذه الصيغة شائعة في ألسنة الناس وقد جاءت في أساس البلاغة يقول الزمخشري : السلف . (أسلفته وسلفته واستغلف فلان واستغلف وتغلف) . قال :

تذكر أيا ما تغلف لينها على لذة لو يرجع المنسلف
وفجوى كلام الزمخشري أن المادة غير منكرة ولا عامية ولكن معاجم اللغة تذكر بدلا منها « استغلف وتغلف » يقول ابن منظور في اللسان : « وقد أسلفت في كذا ، واستغلفت منه دراهم ، وتغلفت فاسلفني الليث السلف ، القرض والفعل أسلفت يقال : أسلفته مالا أى أقرضته ... وفي الحديث أنه استغلف من أعرابي بكرا أى استقرض ^(١) ويقول : صاحب مستدرك تاج العروس : استغلفت منه دراهم فاسلفني مثل تغلفت ، نقله الجوهرى ومنه أنه استغلف من أعرابي بكرا أى استقرض ^(٢) . والصحيح أن استغلف في كلامه محرفة عن استغلف كما ورد في النهاية التى هى مصدر التاج .

٦ — وينفرد الزمخشري كذلك بما نسب اليه من أن « لن » الناصبة تفيد تأييد النفي « يقول ابن هشام » لن لا تفيد تو كيد النفي خلافا للزمخشري

(١) لسان العرب — لابن منظور — ج ١١

(٢) تاج العروس ج ٦ ص ١٤٥

فى كشافه ولا تأييده خلافا له فى أنموذجة^(١) » ويقول الأشمونى أيضا فى شرحه على ألفية بن مالك : « ان لن لا تفيد تأييد النفى ولا تأكيد خلافا للزمخشرى ، الأول فى أنموذجه ، والثانى فى كشافه^(٢) .

ولكن افادة « لن » للتأكيد كثيرة فى كلام الزمخشرى فى الكشاف والمفصل والأنموذج ، فراه يقول فى تفسيره للآية الكريمة : « ان ترانى » فان قلت : ما معنى ان قلت : تأكيد النفى الذى تعطيه لا وذلك أن لا تنفى المستقبل تقول : لا أفعل هذا فاذا أكدت نفيا ، قلت لن أفعل غدا ، وكقوله تعالى « ان يخلقوا ذبابا » فقوله « لا تدركه الأبصار » نفى للرؤية فيما يستقبل ولن ترانى تأكيد وبيان^(٣) .

وكذلك ذكر الزمخشرى فى المفصل^(٤) : ان لن تفيد تأكيد النفى ما نصه : ان لأكيد ما تعطيه لا ، من نفى المستقبل تقول . لا أبرح اليوم مكانى فاذا أكدت وشددت قلت ان ابرح اليوم مكانى . . . والزمخشرى هنا لا يصرح بما يدل على أن « لن تفيد التأييد ، ولكن ابن يعيش فى شرح هذا الكلام يقرر : أعلم أن « معناها النفى وهى موضوعة لنفى المستقبل وهى أبلغ فى نفية من لا . لأن لا تنفى يفعل ، إذا أريد به المستقبل ولن تنفى فعلا مستقبلا قد دخل عليه السين وسوف تقع جوابا لقول القائل سيقوم زيد وسوف يقوم والسين وسوف تفيدان التنفيس فى الزمان فلذلك يقع نفية على التأييد وطول المدة نحو قوله تعالى « ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم » فذكر الأبد بعد ان تأكيد لما تعطيه لن من النفى الأبدى ومنه

(١) معنى اللبيب - لابن هشام - حرف اللام

(٢) شرح الأشمونى على ألفية بن مالك : ج ٣ : ص ٢٧٨ ط . أولى

(٣) تفسير الكشاف ج ١ . ص ٧٤

(٤) شرح المفصل - لابن يعيش ج ٨ . ص ١١١

قوله تعالى « لن تراني » ولم يلزم منه عدم الرؤية في الآخرة . لان المراد أنك لن تراني في الدنيا لأن السؤال وقع في الدنيا والنفي على حسب الاثبات . ويقول محمد بن عبد الغني الاردبيلي في شرح كلام الزمخشري في الأموزج : قال — أى الزمخشري — وانتصاب المضارع بأربعة أحرف نحو أن يخرج ولن يضرب وكى يكرم وإذن يذهب : أقول : انتصاب المضارع بأربعة أحرف... ولن نحو ان يضرب زيد ومعنى لن لنفى الاستقبال ولهذا الام مع الفعل المستقبل ^(١) .

ويقول في موضع آخر : قال الزمخشري : لن نظيرة لا في نفي المستقبل ولكن على التأكيد ، ويعلق الشارح الأردبيلي على هذا بقوله أقول إذا أردت نفي المستقبل مطلقا قلت لا أضرب مثلا وإذا أردت نفيه مع التأكيد قلت : لن أضرب مثلا وفي بعض النسخ « التأبيد » بدل قوله التأكيد ^(٢) . وينقد الصبان افادة « ان للتأبيد » فيقول في حاشيته على الأشموني وافقه على التأكيد كثيرون ، ورد ادعاؤه للتأبيد ، بأنه لا دليل عليه وبأنه ولو كانت للتأبيد للزم التناقض بذكر اليوم « فلن أكرم اليوم انسيا » والتكرار بذكر أبدا في « ولن يتمنونه أبدا » وأما التأبيد في « لن يخلقوا ذبابا » فالأمر خارجي لا من مقتضيات لن ^(٣) .

ويبدو أن مسألة افادة « لن » التأبيد التي تنسب للزمخشري في أموزجه والتي قررها ابن يعيش في مفصله لم يكن للزمخشري فضل السبق بالذهاب اليها بل سبقه إلى ذلك المعقولة يقول شارح عوامل الجرجاني . ان لن معناها

(١) شرح الأموزج ص ٢٧٤ ط طهران

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٢

(٣) حاشية الصبان على الأشموني ج ٣ : ص ٢٧٨

نفي المستقبل مع التأكيدي نحو ان يضرب زيد وقالت المعتزلة للتأبيد لأن الله تعالى نفي رؤيته بقوله لن تراني وهو لا يرى في الدنيا والآخرة لأنه ليس في مكان ولا في جهة فرويته ليست ممكنة فيكون لن للنفي الأبدى^(١).

ولا شك أن الزمخشري قد تأثر بأراء المعتزلة في هذه المسألة حيث يقررون استحالة رؤية الله عز وجل في الدنيا والآخرة معاً ويرون أن — الرؤية منافية لهفاته تعالى .

ومن ذلك كله نخلص إلى أن « التأبيد » الذي نسب إلى الزمخشري أفادته من (لن) الناصبة مشكوك فيه ، إذ لم نعر حتى الآن على نص صريح للزمخشري يؤكد التأبيد .

ويبدو أن افادة لن « التأبيد » ليست حتمية . بل قد يستفاد التأبيد من « لن » بمعونة القرائن والمقام في بعض الأحوال لا في كل الاستعمالات . ومن هذا نرى أن الذين يقررون افادة لن « التأبيد » عقد الزمخشري ويطلقون عليها « لن الزمخشري » هم واهمون في ذلك والحقيقة كما قلت أن التأبيد يستفاد من القرائن ولا يستفاد من « لن » ذاتها وان المعتزلة حين قرروا افادة « لن » للتأبيد ، إنما نظروا إلى ما تفيد الآية الكريمة « لن تراني » من دلالة على التأبيد بقريظة ان الكلام صادر عن الذات الأعلى بنفي الرؤية وإذا انتفت مرة انتفت كل مرة على سبيل التأبيد ، وذلك واضح لا يحتاج إلى بيان فليس الذي أفاد التأبيد هو « لن » وحدها ، إنما استفيد من « لن » بمعونة المقام والقريظة وهي عقلية ، إذ استحالة الرؤية أمر عقلي لزم منه استفادة التأبيد من « لن » .

٧ — وما ينفرد به الزمخشري كذلك ما ذهب إليه في عطف البيان

من جواز التخالف بينه وبين متبوعه في التعريف والتفكير وهو في ذلك يخالف كلا من الكوفيين والبصريين وقد ورد رأى الزمخشري عند كلامه في تفسيره على الآية الكريمة « وفيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا »^(١). قال الزمخشري في إعراب الآية الكريمة : فان قلت كيف أجزت أن يكون مقام إبراهيم والأمن عطف ببيان آيات وقوله « ومن دخله كان آمنا » جملة مستأنفة اما ابتدائية أو شرطية. قلت: أجزت من ذلك من حيث المعنى لأن قوله « من دخله كان آمنا » دل على أمن داخله فكأنه قيل فيه آيات بينات مقام إبراهيم - وأمن داخله ، ألا ترى أنك لو قلت فيه آية بيينة كان في معنى قولك فيه آية بيينة أمن من دخله انتهى ويرد عليه أبو حيان الأندلسي (م ٥٧٥٤)^(٢) في تفسيره الكبير بقوله « ولم يذكر الزمخشري في إعراب « مقام إبراهيم » إلا أنه عطف ببيان لقوله آيات بينات ورد عليه ذلك لأن آيات نكرة ومقام إبراهيم معرفة ولا يجوز التخالف في عطف البيان وقوله مخالف لإجماع الكوفيين والبصريين فلا يلتفت اليه وحكم عطف البيان عند الكوفيين حكم النعت فتتبع النكرة النكرة والمعرفة المعرفة ، وقد تبعهم في ذلك أبو علي الفارسي . وأما عند البصريين فلا يجوز أن يكونا نكرتين .

ويقول السيوطي في همع الهوامع في باب عطف البيان^(٣) ما نصه هو الجاري مجرى النعت توضيحا وتخصيصا قيل وتوكيدا لكن يجب جموده لا كونه أخص من المتبوع أو غير أخص في الأصح ، ولكن قال في شرح

(١) آية ٩٧ سورة آل عمران

(٢) تفسير المحيط - لابن حيان الأندلسي - ج ٣ : ص ٧ و ٨

(٣) همع الهوامع - للسيوطي - ج ٢ : ص ١٢١

التسهيل أن الجرجاني والزمخشري اشترطا زيادة تخصصه ... وبوافقه في الأفراد والقد كبير والتذكير وفروعهما ومنع البصرية جريانة على الفكرة وذهب الكوفيون والفارسي والزمخشري إلى جواز تنكيرهما ، وجوز الزمخشري تخالفهما .

٨ — مما انفرد به الزمخشري ذهابه في الآية الكريمة « ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم » ^(١) إلى أن تكون جملة أن — أعبدوا الله ببياننا لله من قوله تعالى « أمرتني به » مخالفا غيره من علماء النحو قال ابن هشام : في « ما افترق فيه عطف البيان والبدل » العطف لا يكون مضمر ولا تابعا لمضمر لأنه في الجوامد نظير النعت في المشتق ولكن أجاز الزمخشري في تفسير قوله تعالى « ان — أعبدوا الله » أن يكون ببياننا لله من قوله تعالى « الا ما أمرتني به » بخلاف أن يجعله بدلا من الهاء في به ^(٢) .

٩ — ويذهب الزمخشري في معنى « هل » في قوله تعالى : « هل أتى على الانسان » إلى أنها بمعنى « قد » قال في الكشف في تفسير الآية هل أتى على الانسان حين — هل بمعنى قد في الاستفهام خاصة فالمعنى أقدم أتى على التقرير والتقريب ^(٣) . ويعلق ابن هشام على ذلك بقوله ^(٤) : « قال قوم ان هل لا تأتي » بمعنى « قد » أصلا وهذا هو الصواب ، وان كان نقل الزمخشري عن سيبويه أن هل بمعنى « قد » ولكن في الكتاب أيضا ما يخالفه وينص على أنها للاستفهام ولم يزد على ذلك شيئا .

(١) آية ١١٧ من سورة المائدة

(٢) معنى اللبيب — لابن هشام — ج ٢ ص ٨٥ والكشاف ج ١ ص ٤٩٢

(٣) تفسير الكشف ج ٣ : ص ٢٩٥

(٤) معنى اللبيب لابن هشام ج ٢ ص ٣٣

- ١٠ — وما ذهب اليه الزمخشري جعله الواو قد تأتى بمعنى « أو »
 فى الاباحة . يقول ابن هشام فى معنى اللبيب زعم قوم أن الواو قد تخرج
 عن افادة مطلق الجمع ... وذلك أن تكون بمعنى « أو » فى الاباحة قاله
 الزمخشري ^(١) وزعم أنه يقال جالس الحسن وابن سيرين أى أحدهما ..
 والمعروف من كلام النحويين أنه لو قيل جالس الحسن وابن سيرين كان
 أمرا بمجالسة كل واحد منهما وجعلوا ذلك فرقا بين العطف بالواو وأو ^(٢)
 ١١ — وما ذهب اليه الزمخشري وانفرد به جعله « الواو الداخلة على
 الجملة الموصوف بها تأكيد لصوقها بموصوفها » يقول ابن هشام فى معنى
 اللبيب : هذه الواو أثبتتها الزمخشري ومن قلده وحلوا على ذلك مواضع
 الواو فيها كلها ^(٣) .
 ١٢ — وزاد الزمخشري أيضا على اقسام الجمل الاسمية ، والفعلية ،
 والظرفية الجملة الشرطية ^(٤) .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ : ص ١٦٤ يقول فى ذلك : « أو فى أصلها لتساوى شيئين
 فصاعدا فى الشك ثم اتسم فيها فأستعيرت للتساوى فى غير الشك وذلك قولك جالس الحسن
 أبو ابن سيرين أنهما سيان فى استصواب أن يجالسا

« (٢) معنى اللبيب — لابن هشام — ج ٢ : ص ٣٣

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٧

(٤) المصدر السابق ج ٢ : ص ٤٢

الفصل الخامس

صلة تفكير الزمخشري اللغوي
بالتفكير المعاصر

صلة تكثيره اللغوى بالتفكير المعاصر

(أ) لاشك أن اللغة كائن حي متجدد يتجدد مرأى الحياة ومشاهدتها
والكشف عن أسرارها ويتجدد مظاهر الحضارة ومخترعاتها وبما يدخل
إلى أهل اللسان من الأسنة الأخرى من الألفاظ ومصطلحات وأسماء .
وعلماء اللغة يقفون باللغة عند نهاية النصف الأول من القرن الثانى
المجهرى فلا يصح توليد ألفاظ ولا الاصطلاح عليها إلا إذا كان لها وضع
سائع مقبول عند الجاهلين أو عند الإسلاميين أو المخضمين . وما عر به
هؤلاء لا يجوز مخالفته ولا تعريبه مرة أخرى .

ولكن علمائنا اليوم يرون ضرورة التجديد والتوليد اللغوى ، عن
طريق الاشتقاق والقياس والتعريب وغيرها . على أن لا تخالف المصطلحات
الجديدة أصول العرب فى نحوها وصرفها واشتقاقاتها وقواعدها ، —
فيبيحون أن نعرب الألفاظ الأعجمية كما فعل المتقدمون . وأن نتكسر
أسماء جديدة على نمط ألفاظ العرب واصطلاحاتهم فى الموضع اللغوى ومن
ثم تقوم المعاجم اللغوية اليوم ببلاد العربية بهذه المهمة بصدر رحب وتكثير
منطلق وهى تضع فى رأس المصطلح الجديد إذا أداه لفظ قديم بلائه ، أو
ينطبق عليه معناه كان ذلك أولى باصطلاح والاستعمال وإلا كان لهم حق
الوضع اللغوى على نمط ما تفعل العرب وتراعيه من قواعد فى الاشتقاق
والقياس والصرف وغيرها .

وقد كان المرحوم إبراهيم عبد القادر المازنى الأديب المصرى المشهور
يدعو على صفحات المجلات ، كما أن الزيات يدعو فى المجتمع اللغوى إلى

تقرير حق المحدثين في الوضع اللغوي^(١) .

(ب) والمراد بالوضع اللغوي اطلاق لفظ على معنى ابتداء ، وقد يكون ذلك الوضع بالارتجال ، كالأب والأم والبحر والأرض والجبل وقد يكون بالاشتقاق ككتاب وشاعر ومفتاح وملعب ومسشفى ، وقد يكون بالتجوز كاطلاق السماء « على المطر » ، والغيث « على النبات » ، والقهوة « على المسكان » الذي تشرب فيه . وهذا الوضع بطرقه المختلفة كأن يجرى على قوانين مطردة نشأت عن طبيعة اللغة ، — وسليقة العرب ، وهذه القوانين هي ما نسميها بالقواعد والقياس ، ولكن المتكلمين باللغة لأسباب طبيعية أيضا يخالفون أحيانا هذه القواعد أو هذا القياس ، وهذه المخالفة ما نسميه « بالساع » والفرض منه مخالفة القياس في الاشتقاق ، أو النسب ، أو الجمع ، مثلا كقوله « يافع » من اليافع والقياس موقع .
و د أموى ، بالفتح في النسبة إلى أمية وأهلون وعشرون وأرضون وستون ، وبابه في جمعها مجعاً مذكراً سالماً ، وقد كان هذا الساع كالوضع من حق العرب الأولين ويرى الزيات اعطاء هذا الحق للمحدثين فنقبل منهم ما خالفوا القياس في لفظه أو خالفوا المقام في مدلوله . كقولهم مثلاً من النوع الأول « متحف » بالفتح والقياس الضم و « مقهى » بالفتح والقياس الضم و « نوادي » جمع ناد والقياس أندية و « أحفاد » جمع حفيد والقياس حفده و « طبيعى » و « بديهى » والقياس طبعى وبدهى وغير ذلك^(٢) .

(ج) ومن مثل ذلك ما أجازته مجمع اللغة العربية في استخدام الاشتقاق

(١) قصة الادب المعاصر — محمد عبد المنعم خفاجى — ج ١ : ص ٧ .

(٢) قصة الادب المعاصر — لعبد المنعم الخفاجى — ج ١ : ص ٧ .

قياساً لدى الضرورة وذلك للمحاجة الماسة في العلوم والفنون ولذلك أصدر قراره بهذا الصدد وفيما يلي نص القرار « اشتق العرب كثيراً من أسماء الأعيان والمجمع يحيز هذا الاشتقاق للضرورة في العلوم^(١) . وقد ذكر المرحوم الأستاذ الشيخ أحمد الاسكندري في مجلة المجمع مئات الأمثلة من أسماء الأعيان التي اشتق منها العرب^(٢) . من مثل أسماء التاج والباب والبحر والقوس وغير ذلك من الاشتقاقات وقد نجا الزمخشري هذا المنحى من الاشتقاق في كتابه « أسس البلاغة » .

(د) ومن ذلك أيضاً المصدر الصناعي وهو ما يكون بزيادة - ياء النسب والقاء على اللفظ بالتعبير عن المعنى الحاصل بالمصدر . ولم يستخدم العرب هذا المصدر إلا في بضع عشرات من الكلمات : منها كلمات الجاهلية ، والأعرابية ، واللصوصية ، والرجولية ، - والربوبية ، والألوهية ، والرهبانية ، والفروسية ، والأريحية وتوسع من بعدهم الفلاسفة والعلماء وبخاصة أرباب اللغة منهم كأبن سيدة^(٣) والزمخشري واشد الحاجة إلى هذا المصدر للتعبير عن كثير من حقائق الفلسفة والعلوم والفنون ، رأى مجمع اللغة العربية أن يكون قياساً وأصدر قراره التالي « إذا أريد صنع مصدر من كلمة يزداد عليها ياء النسب والقاء^(٤) »

وايس هذا الفكر المفوى بجديد على عصرنا الراهن ، فان الزمخشري كما أشرنا إلى ذلك وهو أرحب صدراً وأرفع أفقاً فقد نحا هذا المنحى

(١) الجزء الأول من مجلة المجمع ص : ٣٦ ، ٢٣٢ - ٢٦٨

(٢) الجزء الأول من مجلة المجمع ص : ٢٣٦ - ٢٦٨

(٣) فقه اللغة - للدكتور علي عبد الواحد وافي ص ١٧٣ ط الخامسة

(٤) الجزء الأول من مجلة المجمع ص : ٢١١، ٣٥ ، ٢١٥

وسار في هذا الطريق فاعتمد كلام اللغويين حجة ككلام وفي وضع
كلام المولدين موضع الاعتبار والاستشهاد ، وتوسع في اللغة عن طريق
القياس والاشتقاق وخالف في بعض الأحيان غيره من المتقدمين وأباح
لنفسه مخالفة معاجم اللغة وآتى بكثير من الجديد المقبول الذي لا ينفك منطق
اللغة واستعملاتها .

ولاشك أن الزمخشري يقضح تفكيره اللغوي اتضاحا ظاهرا بما
ذكرناه في شتى أبواب الرسالة وفصولها عامة وبما أشرنا إليه من تجديده
اللغوي خاصة .

ومن هذا كله يقضخ لنا في جلاء صلة تفكير الزمخشري اللغوي
بالتفكير المعاصر الذي يذهب إلى تسهيل اللغة على المتحدثين بها وتجويز
تجديدات المعاصرين اللغوية وخاصة إذا صدرت من مجامع لغوية رسمية
فالمجمع اللغوي في القاهرة والمجمع العلمي في دمشق وفي المجمع العلمي في العراق .
وفي هذا دليل على أن الفكرة اللغوية عند الزمخشري لا يزال جديدا
كل الجدة إلى اليوم ، ولا تزال محتاجين إلى صدره الرحب وتفكيره الخصب
وتجديده المقبول .

(ف)

(١٦٩) الفاسى - القاضى تقي الدين محمد . شفاء الغرام بأخبار البلاد

بن أحمد الحرام

(١٧٠) الفاسى - القاضى تقي الدين محمد . العقد الثمين فى تاريخ البلد

بن أحمد الأمين

(١٧١) الأفغانى - سعيد الأفغانى . أصول النحو

(١٧٢) فهارس دار الكتب المصرية

والجامعة العربية

(ق)

(١٧٣) القالى - إسماعيل بن القاسم . الامالى

القالى البغدادى

(١٧٤) قاسم بن قطلوبوقا . تاج التراجم

(ق)

(١٧٥) القفطى - جمال الدين أبو الحسن . إنباء الرواة

على بن يوسف

(١٧٦) الفلقشندى المصرى . صبح الأعشى

(ك)

(١٧٧) كرد على - محمد كرد على . رسائل الوطواط

(١٧٨) كرد على - محمد كرد على . أمراء البيان

(١٧٩) السكرملی - الأب انتاس الکرملی . مجلة لغة العرب

(م)

(١٨٠) المافرونی . محاسن أصحابان

(١٨١) المبرد - أبو العباس محمد بن يزيد . الکامل

(١٨٢) ميارک - محمد . فقه اللغة .

(١٨٣) مجلة معجم اللغة العربية

(١٨٤) مجلة المقتطف عدد أكتوبر سنة ١٩٣٨

(١٨٥) مرتضى - الشريف العلوی . الأمالی

(١٨٦) معين - الدكتور محمد . برهان قاطع

(١٨٧) محمد الخضر حسين . دراسات في العربية وتاريخها

(١٨٨) محمد فؤاد عبد الباقي - . المعجم المفهرس لألفاظ

القرآن الکریم

(١٨٩) المقدسی - شمس الدين أبو عبد . أحسن التقاسيم في معرفة

الله بن أحمد المقدسی الحنفی الأقاليم

(١٩٠) - المقرئ - أحمد بن محمد المقرئ . أزهار الرياض في اخبار

المقرئ . القاضي عباس

(١٩١) المقدسی - شهاب الدين تراجم رجال القرنين السادس

والسابع

(١٩٢) المقریزی - تقي الدين أحمد بن علی . خطط المقریزی

(١٩٣) المقرئ - أحمد المقرئ المقرئ . نفع الطيب

(م)

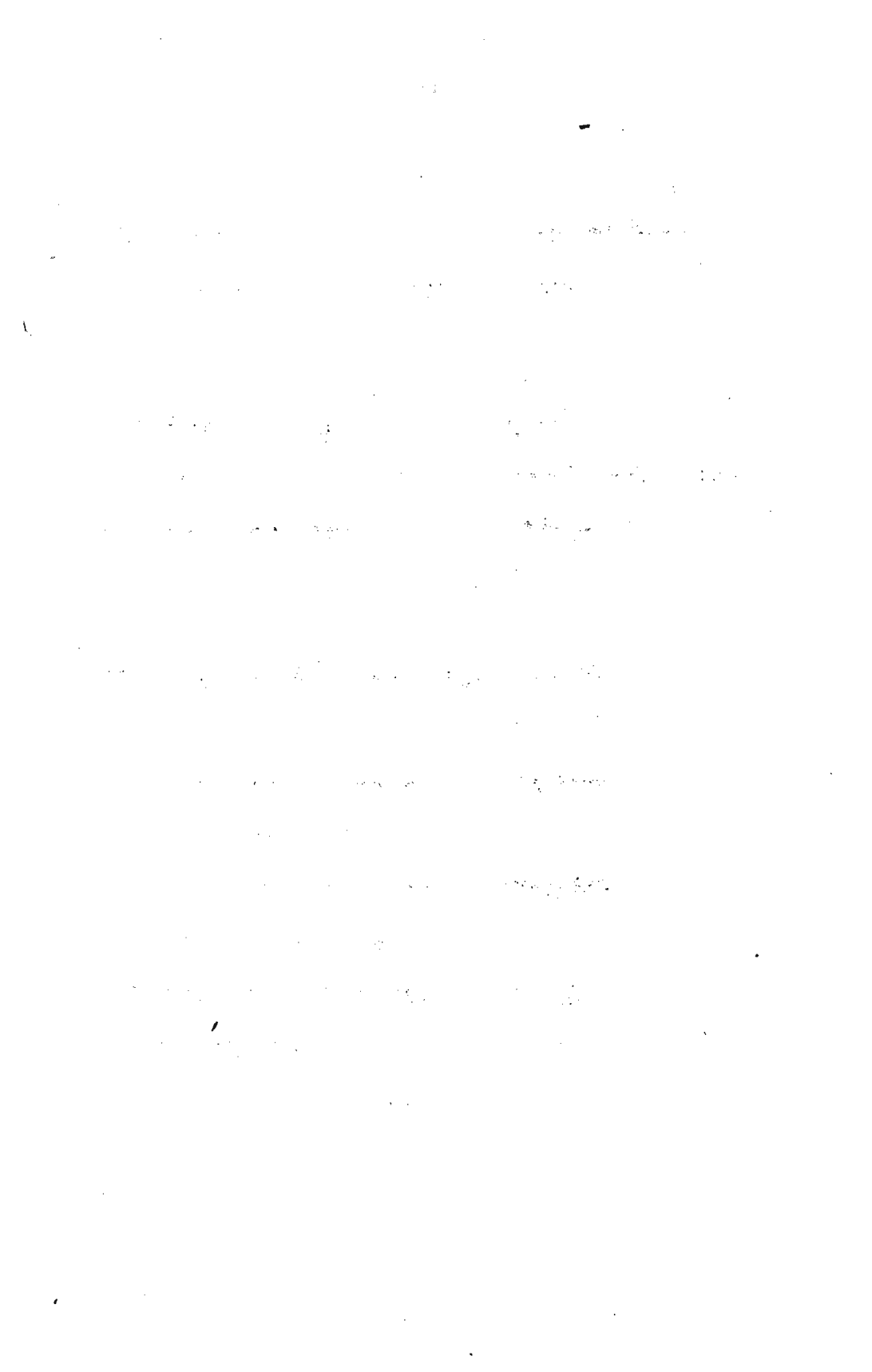
- (١٩٤) ميرخوند . تاريخ روضة الصفا .
(١٩٥) مهيار-مهيار بن مرزويه الديلي . ديوان مهيار

(ن)

- (١٩٦) النجار - محمد علي . لغويات .
(١٩٧) النسوي . سيرة جلال الدين منكبرتي .
(١٩٨) نفيسي - نظام الأطباء . فرهندي — لغة .

(ي)

- (١٩٩) اليافعي - عبد الله ابن أسعد بن علي . مرآة الجنان
اليمني .
(٢٠٠) ياقوت الحموي - أبو عبد الله . معجم البلدان
ياقوت بن عبد الله الرومي
(٢٠١) ياقوت الحموي - أبو عبد الله . معجم الأدباء
ياقوت بن عبد الله الرومي
(٢٠٢) يوهان فك (ترجمة الدكتور
عبد الحليم النجار) . العربية



الفهرس

الصفحة

تقديم

١

مقدمة

٥

القسم الأول : الزمخشري ١١ — ١٦٩

الباب الاول : عصر الزمخشري : ١٣ — ٧٠

الفصل الأول : الحياة السياسية ١٥ — ٢٨

الفصل الثاني : الحياة الاجتماعية في عصر ٢٩ — ٤٢

الزمخشري

الفصل الثالث : الحياة العقلية والأدبية في ٤٣ — ٥٦

عصر الزمخشري

الفصل الرابع : اللغة العربية في عصر الزمخشري ٥٧ — ٧٠

الباب الثاني : حياة الزمخشري : ميلاده ونشأته وأساتذته ٧١ — ١١٨

وكهولته ومرحلة العزلة في حياته ووفاته

الفصل الأول : حياة الزمخشري ٧٣ — ٧٩

الفصل الثاني : ميلاد الزمخشري ونشأته ٨١ — ٨٨

الفصل الثالث : حياته العلمية وأساتذته ٨٩ — ٩٨

الفصل الرابع : رجولته وكهولته ٩٩ — ١٠٩

الفصل الخامس : مرحلة العزلة في حياة ١١١ — ١١٨

الزمخشري ووفاته

الباب الثالث : آثاره وثقافته وشخصيته واعتزاله ١١٩ — ١٦٩

الصفحة

١٣١ — ١٢١ الفصل الأول : آثاره الزمخشري

١٤٢ — ١٣٣ الفصل الثاني : ثقافته

١٥٤ — ١٤٣ الفصل الثالث : شخصية الزمخشري

١٦٩ — ١٥٥ الفصل الرابع : اعتزاله وأثره في تفكيره

٤٣٢ — ١٧١ القسم الثاني : فكرة الزمخشري اللغوي

والأديب

٢٤٣ — ١٧٣ الباب الأول : مواهبه في اللغة والبلاغة الأدب وعلومها

٢٠١ — ١٧٥ الفصل الأول : مواهبه في اللغة وعلومها

٢٢٠ — ٢٠٣ الفصل الثاني : الزمخشري والبلاغة العربية

٢٤٣ — ٢٢١ الفصل الثالث : الزمخشري الأديب

٣٦٨ — ٢٤٥ الباب الثاني : الاتجاهات اللغوية عند الزمخشري

٢٦١ — ٢٤٧ الفصل الأول : مقامات الزمخشري واتجاهه

اللغوي فيها

٢٩١ — ٢٦٣ الفصل الثاني : أساس البلاغة والاتجاه اللغوي

السائد فيه

٣٥٨ — ٢٩٣ الفصل الثالث : الاتجاه اللغوي عند الزمخشري

في تفسيره « الكشاف »

٣٦٨ — ٣٥٩ الفصل الرابع : الاتجاه اللغوي في الفائق

٤٣٢ — ٣٦٩ الباب الثالث : الأصول اللغوية عند الزمخشري وتبعديده

وصلته بالفكر المعاصر

المقدمة

الفصل الأول : المبادئ اللغوية عند الزمخشري ٣٧١ — ٣٧٩

الفصل الثاني : بين ابن جني والزمخشري ٣٩١ — ٣٩٨

الفصل الثالث : ما أخذ العلماء على الزمخشري ٣٩٩ — ٤١٦

الفصل الرابع : تجديد الزمخشري اللغوي ٤١٧ — ٤٢٦

الفصل الخامس : صلة تفكير الزمخشري ٤٢٧ — ٤٣٢

اللغوي بالقفـكير المعاصر

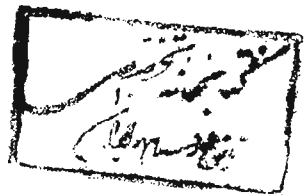
٤٣٣ — ٤٥١

أهم المصادر والمراجع

* * *

رقم الايداع بدار الكتب

م ١٩٧٧ / ٣٦٣٣



مطبعة دار نشر الثقافة
شارع الامام محمد باقر
٩١٦٠٧٦